علوان السهيمي

الأرض

لا تحابي أحداً

رواية

الشارقة

علوان السهيمي

الأرض لا تُحابي أحداً

روايـــــة

دار الفارابي

ابتداء

أنا ببساطة قصاص بطل هذه الرواية التي ستقرأها بعد هذه المقدمة.. وليست هذه المقدمة من التكنيك المقصود داخل النص... أكتب هذه الأسطر بعد صراع مرير شديد تخلله الدمع والضحك والصمت والتأمل والحنق والحقد والرضا وكل حالات الوعي الإنساني وأنا اقرأ ، هذا العمل الذي قام به الروائي الشاب علوان السهيمي.. هذا الذي حاصرني بعينيه وقلمه وسخطه، حاصرني أنا قصاص وحين أكتب الآن إنما أقتص من هذا الروائي الذي أجاد الحديث عن تضاريسي أكثر مني على الورق.. وحين أقص منه إنما اشتق من اسمي الدلالة.

" فدائما الحقيقة حين تكتب ... تضع أطرافها على المسرح وحين يسدل الستار في المسرح بعد العرض .. تأتي مهمة التاريخ "

لا أريدك أيها القارئ أياً كنت وكانت صفتك ومستوى ثقافتك سواء أكنت ناقداً أو روائياً أو قاصاً أو شاعراً أو قارئاً ألا تحاول أن تتسامح معي قدر ما تستطيع داخل النص، لا تكن مثل هذا الـ " علوان "..الذي أوجعني بي.. ففجعت من حقيقتي حين قرأتها ، فلم أكن أتصور وأنا أتحدث لعلوان عن تجربتي أنها ستكون مثلما قرأتها من قلمه .. لا أدري ربما لأن الهواء يبلع الكلام عند إلقائه من الفم على عواهنه.. ربما لأن الورق .. يحفظ العري !

نعم أنا قصاص .. وهذا ليس اسماً مستعاراً وليس اسماً كاذباً كما أنه ليس في الحقيقة...نكرة...ما تقرأه من نصّ هو إسقاطات مهوله بشكل جزئي على سيرة ذاتية حقيقية بدءاً من الطرف الصناعي الذي أستند به

جسدي حين أمشي ، وحين أنام امتده بجانبي ، كأرملة نائمة بجوارها... تابوت ليس فيه أحد !

نعم هذا النص أنا ، وكل شخصيات العمل .. هم .. "هم"! وكل الأحداث - كل الأحداث - فعلاً حدثت ...كان علوان في هذا العمل الثاني له على مستوى الرواية... أكثر دراية بنفسه من قارئه وأكثر دراية بي مني ، وأنا طرف غير حيادي أبدا تجاه ما أقرأه لعلوان عموما وطرف معادٍ تجاه ما قرأته ... عني منه.

أقول لك أيها القارئ ... كن معي في هذا العمل واعلم تمام العلم... كما قال سارتر المفكر الفرنسي الوجودي الأشهر " إن الآخرين هم الجحيم " ليس تجنياً أو ظلماً لأحد .. أو للمجتمع الذي عشت فيه والذي ما أزال فيه .. ممن حاول أن ينزع في ذاكرتي ومشاعري ... من يحاول أن يحيلني مسخاً ... أقتات المشوّه والمكرور والسائد والعادي ... وأنا أفعل ذلك ... فقط .. فقط حين أنام !

إن الروائي في هذا العمل ... ربما لأن تجربتي قاسية جداً كان هو أيضاً قاسياً في سبر أغوار نفسي وهو يتوغل فيها بمشرطه ... والمجروح يشعر دائماً ببشاعة المشرط وقسوته... حين يتلاشى في جسده سريان المخدر ويفيق تماماً ... مثلما أفقت قبل أكثر من ربع قرن ... ووجدت ساقي اليمنى تابوتاً ليس فيه أحد ... !

قصّاص

الإهداء

إلى قصاص

منتديات الكوكب العاشر

منتديات الكوكب العاشر

الفصل الأول

- اقرأ هذه الرواية فهي أمة تتحدث،
لأنها تعيد تصدير الأفكار إلينا باحتراف!

كانت هذه العبارة تدوي في مخيلة صالح كقنبلة، فبعض العبارات لها تأثير القنابل، لا تُمحى آثارها بسهولة. تبقى قابعة في الذاكرة، تسترق لحظات الصفو وتقلّب نفسها خشية أن تذوي أو تموت. كانت شمس الرياض حارة بشدة ذلك اليوم، وكأنها تسلخ الناس، لأنهم يشاكسونها في البقاء تحتها لإنجاز أعمالهم، وصوت جهاز تكييف سيارته الهونداي من فئة "سوناتا" يتعالى ببطء، وهواؤه البارد يلفح وجهه. إن أكثر ما يبتغيه المرء في حرّ الرياض المقرف هذا لفحة هواء باردة فقط. هذه المدينة التي تصارع نفسها إزاء الإسمنت والحديد!، كما وصفها له صديقه طلال مرة "الرياض مدينة تحترف الحديد والإسمنت، إنها مصنع يقذف البشرية ليقتتلوا بحثاً عن قوت!". كان صالح يقف عند الإشارة الضوئية الحمراء وتقف بجانبه سيارة ضخمة يكسو زجاجها تظليلة سوداء قاتمة، وكأن صاحبها يشمئز من أعين الناس. ففي ديارنا فقط لا تُحترم مشاعر الإنسان وتويته، لأننا دوماً نغطي النظرات بأغلفة مهترئة، ونحاول أن نستر أخطاءنا، ونحن نفترض الخطيئة منه. إن بلداً لا يحترم الخطيئة في داخل النفس البشرية، هو في الحقيقة لا يحترم مقدار الطهر فيها

أبداً. لذا عندما أضاءت الإشارة الخضراء، تحرك صالح وهو غاضّ طرفه عن صاحب تلك السيارة، وتاركاً سخافات هذه المدينة خلف ظهره، وآخذاً في جر عبارة الدكتور "أسعد" الأستاذ المشارك في الأدب الحديث بجامعة الملك سعود، "اقرأ هذه الرواية فهي أمة تتحدث، لأنها تعيد تصدير الأفكار إلينا باحتراف".

هكذا قال له الدكتور أسعد وهو يناوله هذه الرواية. عند ذلك تساءل صالح لماذا أصرّ الدكتور أسعد على قراءة هذا النص بالذات؟! وهل هو فعلاً نص كوني حتى أتراه لأجد فيه عنواناً لرسالتي؟! وكيف يستطيع دارس الدكتوراه أن يقدم رسالته في رواية واحدة في بلد لا يعترف بالنتاج كسمة إبداعية خالصة؟! لأن التعليم في بلادنا يهتمّ بالتحوية ولا يلقي للنتاج بالاً، فهو قاصر إزاء النتاج. فالتجارب دائماً تأشيرة مرور للدارسين. لكن الدكتور أسعد أصر على هذه الرواية، ربما أجد فيها ضالتي، قال صالح في نفسه ثم أردف: لأن القامعين دون رتوش هم أكثر إبداعاً ممن زخرفتهم فوشاة الحياة. ربما كان يحاول أن يمتحن صبره، أو كان يحاول أن يتصالح مع تجربة قذف فيها رغماً عنه. لم يخرج صالح من تساؤلاته المعتمة تلك إلا عندما أوقف سيارته عند باب شقته، تلك الشقة التي تعب كثيراً في الحصول عليها دون دفتر عائلة، لأن الرياض مدينة لا يحق لمن لا يملك هذا الصك أن يجول فيها بطمأنينة، فبطاقة إثبات العائلة جواز سفر لك في مدينة لا تعترف إلا بالأوراق الرسمية!. سحب ذلك الكيس الأبيض من المقعد المجاور بهدوء، وأحكم إغلاق سيارته، كي لا تكون سلعة رخيصة على يد أحدهم، وانسلّ إلى المنزل. وحينما دخل، رمى بالكيس الأبيض على الأريكة، ودخل غرفته كي يبدل ملابسه. "ما أجمل أن تقرأ وأنت

تتخفّف من أكثر عدد من الخيوط عن جسدك"! هكذا كان يفكر وهو يخلع ملابسه، ثم عاد وأخرج الرواية من ذلك الكيس الأبيض، وقرأ على غلافها "علوان السهيمي/الأرض لا تحابي أحداً/رواية".

عاد إلى تساؤلاته بعدما أنجز هذه الكلمات، يا ترى هل من الممكن أن يساعدني هذا النص لأصل إلى شاطئ دراستي.؟! لأن الدراسة أشبه بالسباحة، بقدر ما تحمله من المتعة، تحمل الخوف والتعب أيضاً. تسامق معه خياله كثيراً، حتى بدأ ينسج أوهام المناقشة والتخرج، وكيف أن الدكتور أسعد بقي طوال المناقشة مبتسماً وكأنه قائد في جيش مغولي أحرز نصراً مؤزّراً، عاد وركن الكتاب جانباً وذهب إلى المطبخ ليعدّ له بزّاداً من الشاي قبل أن يقرأ، لأنه كان كثيراً ما يستهلك الشاي والسجائر أثناء القراءة.

دلف إلى المطبخ، وهو يتذكر صديقه ناصر حينما قال له ذات يوم:

- ستموت وأنت تقرأ، وتتعب نفسك بالدراسة، صدقني لا فائدة منها في زمن يكون الريال عربون وصول.

- ناصر، القراءة في حياتي كالوقود للسيارات، لا أستطيع أن أتخلى عنها، أما الدراسة، فمحاولة مني لتحسين الدخل.

- تحسين الدخل أم تحسين النسل؟! يا غبيّ، سيأتي يوم تجد نفسك فيه تقرأ ترهات كاتب أو شاعر ما بحجة الدراسة، وسيقولون لك إن هذا الرجل مبدع، ويستحق أن تُقدَّم فيه البحوث والدراسات، لأنه ظاهرة استثنائية، وحينما تقرأ له ستجده إما أنه يعاني اضطرابات نفسية، وإما يسبّ الذات الإلهية بغية الشهرة، أو تجده صاحب كيف!

- غير معقول يا ناصر.

- أتعلم أنه في بعض الدول ثمة تخصصات يكون فيها تقديم رسالة الدكتوراه أو الماجستير من خلال منجز أدبي وليس كما تفعل أنت طوال دراستك ملاحقاً هؤلاء الكتّاب؟!

- وشلون.

- بمعنى إذا أنجز الطالب ساعات دراسته المنهجية، وكان مبدعاً، فإنه يستطيع أن يكتب نصاً روائياً أو ديواناً من الشعر أو مجموعة قصصية بدلاً من تقديم رسالة علمية.

- لم أفهم.

- ببساطة، لنضرب مثلاً بك أنت، فأنت الآن تحضّر الدكتوراه، صحيح؟

- نعم.

- لو كنت روائياً أو شاعراً أو قاصاً، فإنك تستطيع بدلاً من أن تقدّم رسالة دكتوراه تقديم نص للجامعة سواء أكان رواية أو ديوان شعر أو مجموعة قصصية.

وكمن وُخز، وتنبه لوجود شيء ما يضايقه من بعيد، تذكر صالح حديث صديقه الذي غاب عنه مدة طويلة. هل هذا الكاتب يعاني فعلاً اضطرابات نفسية؟! أم أنه يسبّ الذات الإلهية؟! هذه لا أعتقد أنه فعلها، لأنه لو كان قد فعلها لكان وجبة دسمة في شدق أحد الأصوليين ذلك الذي يحسب أنه يملك الحقيقة المطلقة للدين، ويزايد بقناعاته من أجل السلطة، وأيضاً لما أصر عليه الدكتور أسعد، لأن الأكاديميين في بلادنا، متسولو الشهرة وشحاذوها! أما أن يكون صاحب كيف ومزاج، فهذا يعود إليه، لأنني سأقرأ مادته الإبداعية كمادة خام، ولا علي في كاتبها أبداً، وحتى لو كان يمارس هذه الطقوس، فلن ينقص ذلك من إبداعه شيئاً، لأن الإبداع يؤخذ بعيداً عن الشخصنة، والمسائل الأخلاقية أمور شخصية بالدرجة الأولى، لا يحق لنا أن نمسها إذا لم تكن لنا صلة بصاحبها. أما فكرة أن أقدّم نصاً إبداعياً بدلاً من رسالة فهذا أمر جميل، لكنني لست بشاعر ولا روائي ولا قاص. لذا حتى لو كان هذا

الأمر موجوداً في تعليمنا لما استغدت منه البتة، سأبقى دارساً أقرأ الأشياء، ولا أحاول أن أقدم مثلها أبداً، لأنني أتصور أن الكتابة شيء يهبه الله لنا، وليس لنا الحق في اختياره البتة.

حمل البرّاد من على النار، وعاد إلى أريكه وروايته، التي هي أمة تتداخل أصواتها وتتكلم. والتي تعيد تصدير الأفكار إلينا باحتراف خرّاف ماهر كما وصفها الدكتور أسعد، فتح الكتاب، وقرأ الإهداء، وقال كمن يخاطب نفسه:

- الإهداء هو التعبير الحقيقي عما يلوكه الكاتب في نفسه.

قلب الصفحة، وبدأ يقرأ بتأمل...

منتديات الكوكب العاشر

العكّاز

الحلم وحده ما يجعلنا نفكر أكثر.

كفيف هندي

منتديات الكوكب العاشر

منتديات الكوكب العاشر

السنة الثامنة بعد حمدة

- أهلاً بك يا قصاص. أنا المدير هنا اسمي "خلف" وأكنّى بأبي زاهر.

- عاشت الأسامي.

- ليس لدي ما أقوله لكن اذهب إلى مكتبك، زملاؤك لن يقصّروا في توضيح العمل لك، وأتمنى أن ترتاح في هذا العمل.

ثم صاح في مستخدمه الكهل:

- يا عمّ علي ودي قصاص لشؤون الموظفين.

سبقني الكهل في سيره المتهالك. سار أمامي بهدوء السنين الكثيفة التي تتدافع من أجل البقاء، تلك السنين التي لا يعرف مقدار ثقلها سوى الكهول، وبينما أنا أسير وراءه تساءلت: لماذا أنا هنا الآن؟ هل أنا فعلاً صغير على العمل؟ أم أن الحياة أكبر من مواجهة إنسان قد بلغ العشرين من عمره؟ ولماذا تركت دراستي فعلاً واتجهت إلى العمل في هذه السن المبكرة؟!

تقاذفت الحياة ذاكرتي بقوة، ها أنا موظف لديّ دخل مادي محترم، وها هي سنين عمري تسير ببطء أمام عيني ذاكرتي ابتداء من معجب ونمر والمنطقة الشرقية، وها هو غول المدينة يداهم أحلامي الصغيرة ويروعها، ويسرّب الخوف بين تفاصيلها، ونقطة التحول في حياتي لحظة البتر، وأول يوم لي في القرية، والخضرة تتمدد أمامي دون رادع، ورحمة وهي تضحك بغنج القرى مثل الأرض حين تبتسم للغيوم كرشوة منها للمطر، والعجوز مراحم وهي تصرخ "يا ولدي لا تعلم أحد"، وعمي النتاري وسنينه المائة تقف على ظهره، وحكاياته المستمدة من

زبيد عن العثمانيين، وهل ثمة شخص يدعى 'زبيد' فعلاً أم أن عمي النتاري اختلقه ليمرر جملة من أفكاره عن قوم حكموا القرى بطريقة ربما لم يكن يستوعبها؟ وعبارة حماد تدوخني "العمل صك براءة من جرم التطفل على الآخرين!"، وعمي صلاح وإبرته في يمينه يشكّ بها زوجاته لينجبن الأطفال، وعمي أبو نضال وهو يقول "أنا عمك أبو نضال ما عرفتني؟!"، وهدوؤه الذي يقيس حجم ثرثرة الأرض، وحمدة التي تعطي حياتي أوامرها سكوتاً، حمدة القدر، حمدة الكائن الأنثوي السلطوي، تلك التي تأتي متأخرة خلف قراراتي وتهزّها كأنها فرعون.

في الواقع لم أكن أملك عصا أهشّ بها على ضعفي، ولم أكن أملك ساقاً تخرج من غمدها الأبدي وتسند انكساري، ما زلت أذكر عطية بن مجهول سكران، وهو يضرب على إسته ويصرخ، وطقوس الولاة في سكر جدي، وتوماس حينما قال "في القرى كل شيء مستباح..."!، ونضال وهو يرشق نفسه عالياً في زواج غرم الله ابن عمي صلاح، وأمي التي تمضغ وجعها لتكون سعداء، فالأمهات آية الله في الأرض، لهن طقوس المكرمات، وأبي، أين أبي من ذاكرتي، إنه سارية العدل، وراية السؤدد دائماً.لم أخرج من غيهب الذاكرة إلا على صوت العم علي وهو يقول:

- يا أبو خالد، هذا قصاص موظف جديد.

- مرحباً به.

تناول الرجل الأوراق من يد هذا الكهل، وأمره بالانصراف بأسلوب مؤدب. رحل الكهل وتركني، تركني أواجه همّ صغري إزاء عمل لا يتقنه إلا الكبار في بلاد: العمر فيها يشبه الحكم، لكن القرار جاء رحيماً بشدة؛ لأن القرارات التي تأتي خلفاً للكهول، قرارات تمتلئ رحمة عادة. قلّب الرجل الأوراق بين يديه قليلاً وقال لي:

- الفحص الطبي الذي بين يدي يبين لي أنك فاقد ساقك.

- أجل، ساقي مبتورة.

فتح فمه وحشاه بتساؤل وهو مملوء دهشة:

- كيف، يعني أنت بدون ساق؟

- نعم، وبكل بساطة ساقي اليمنى مبتورة من عند الركبة، وأسير على طرف صناعي.

نظر إليّ تلك النظرة التي أمقتها، تلك النظرة التي تغرسني في الضعف، وتُعيدني معاقاً يجب أن يهتم به ذووه، وقال ورأسه معلق في الأوراق:

- كنا نحتاج إلى موظف يعمل ميدانياً، لكن سأحيلك إلى العمل المكتبي فهو يناسب قدراتك.

أنجزت أوراق عملي الجديد بسرعة، خشية أن تهرب مني فرصة تيقّن، تعاملت مع واقعي الجديد بريبة لأنني لم أكن أعلم بأن تيقن ذاتي يعني أن أملك مالاً في كل الأحوال. عندما انتهيت منها اتجهت إلى المنزل محشوراً بين سعادتي، تلك السعادة التي تجعلك تتقادم مع حلمك، تلك التي تشبه الاقتراب من المصارف الضخمة، فبالقدر الذي نحمله من البهجة، تأخذك الرهبة والتحفز. عندما خرجت من باب الدائرة، ووصلت إلى سيارتي، قمت بحركتي التي لا أستغني عنها في كل أفراحي، تلك الحركة التي تشعرني بنشوة غريبة، فعندما أقوم بها أشعر بأنني أحلق. وقفت متوازناً على قدمي، ثم رفعت يدي حتى تساوت بجانبي، مددتها كأنني أريد أن أطير، ورفعت رأسي إلى الأعلى، وأخذت أنظر إلى السماء، أغمضت عيني، ثم رفعت ساقي الصناعية، وبقيت على ساقي الحقيقية، وأخذت أستنشق الهواء رويداً رويداً، وفجأة وكما هي عادتي في طقوس هذه الحركة أخذت أضرب بساقي الصناعية الأرض بقوة، أخذت أضرب بها، أضرب بها، إلى أن سقط طرفي الصناعي، عندها تنفست الصعداء فرحاً، حدقتُ في هذه الخردة أمام ناظري، حدقت فيها ملياً، فتبسمتُ في داخلي، وفتحت

باب السيارة، وجلست في مقعد السائق، ومددت يدي إلى طرفي على الأرض وأخذت أشد وثاقه من جديد.

***

وُجّهت للعمل المكتبي، وبقيت أستند إلى قلم، وكأن حياتي دفع جزية للأوراق، بدأ حلمي بقلم، وتخاذلت أمامه بقلم، وها أنا أكتبه الخذلان بقلم أيضاً، وأنا أعرف أن الكتابة رفيق ممل، تقضم أظفار سعادتي حتى ينزّ منها الدم. فمنذ أن أدركت معاناتي وأنا أتكئ على قلم غير مبري، لا يؤدي من وظائف سوى الصدام والتصبّر، فثمة أقلام دموية لا تثير سوى المصائب، وعندما يستحيل القلم أداة حرب، فالكاتب في النهاية مجرم ورق. هذه هي جريمتي، رواية أتربّص بها لتفاصيل حياتي لأدونها، وأنا لست آسفاً على ذلك.

صدقاً إنني لا أشعر بالخوف تجاه عريي في هذا النص، إنما ينتابني شعور بالذل إزاء خزي حياتي التي راكمت فيها الأحلام وأنا يتيم الأعضاء. فالمعاقون مثل السجناء، يعزفون دوماً على أوتار مواجعهم وهم في نظر الناس مدانون! وأن تكون مداناً بسبب نقص عضو، فهل بمكنك أن تحلم؟ بيعٌ كساد، عندما تتعرى أمام الناس وتنتظر أن ينعتك أحدهم بالشجاعة، والشجاعة وأنت ناقص الأعضاء أن تتغابى أمام المشفقين عليك فقط ؛ لأن الشجاعة لا تعني المجابهة دائماً.

بعد مضي مدة غير طويلة من توظيفي، سرّحت شعر أحلامي وذهبت إلى أبي، وقلت له بأدب:

- أريد أن أتزوج.

- ومن هي سعيدة الحظ؟

- حمدة ابنة عمي صلاح.

نظر إليّ بابتسامة الأب حين يريد ردّ طفله، قال وهو يتناول فنجان قهوته العصرية التي كان البخار يتدفق منها بغزارة:

- لكن محمداً أخوك وهو أكبر منك وأحقّ بالزواج.

- أخشى أن أنتظره وتتزوج حمدة.

- لا عليك بالنسبة إلى حمدة فهي لك، لكن انتظر لأنك مازلت صغيراً على الزواج يا بني.

خرجت من عنده وأنا مثل المريض الذي يتناول دواءه وهو يشعر بالتقيؤ. قالها لي "بالنسبة إلى حمدة فهي لك"، كيف لو تطفل أحدهم وخطبها؟ ماذا سأفعل؟ وكيف سيتصرف أبي في تلك الحالة؟ لكن الآباء أوفياء تجاه عهودهم التي يبرمونها مع أبنائهم. شعرت بالملل والقرف، وأنا أنتظر مجيء يوم أغدو فيه كبيراً، وكأن الزواج في حياتنا مسألة موسم فقط. بدأت الدقائق تستحيل في مخيلتي مجموعة من العجائز لا هم لهن سوى الثرثرة. وفي نهاية الأسبوع ذهبت إلى خالي توماس، وقضيت عنده عطلة نهاية الأسبوع برمتها، تخففاً من عناء التفكير في هذا الموضوع، وقال لي من جملة ما قاله:

- قصاص أكثر ما يؤلم المرء خيانة وعد له.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن تفترض أسوأ الاحتمالات، أن تتزوج حمدة من غيرك أو تموت.

- لا أستطيع أن أفترض، فلو ماتت أو تزوجت غيري فلن أتزوج مطلقاً.

في تلك الليلة سكرت مع خالي لأنه يستطيع أن يغرز الأخطاء في جسدي بحرفية عالية، فلم أسكر لأنني أمثّل دور العاشق المنحرف حين يجد الأبواب الموصدة أمامه تجاه نيل حبيبته، إنما لأن خالي توماس كان قوي الحجة حيث قال وفي يده كأسه:

- خير لك من أن تتعب في تقليب أوراق لعبة الزواج هذه، اشرب معي لأن عقولنا تضمحل عندما نعطيها أبعاداً تفكيرية أخرى.

- لم أعتد الشرب.

- كل من يُقْدِم على الأشياء الجديدة في حياته لم يعتدها، لكنه بطرق أبوابها في لحظة تماسك.

سكرت بغزارة في تلك الليلة حتى نمت.

... نمت ولم أستيقظ إلا عندما غربت شمس اليوم التالي، ولم أناقش خالي توماس في سكري هذا، وكأنني أعطيته شيكاً على بياض بسحبه من رصيد تحفظي. كررت سكري في اليوم التالي مع بعض الزيادات من قيان جلبهن خالي لإكمال مسيرة الخطيئة، وهكذا أدمنت الشرب وأدمنت الفراغ. صرت كل نهاية أسبوع أنهب إليه وأستبيح قدامة عقلي، لشيء واحد أن تمر السنين بسرعة لأقترن بحمدة أو لأموت، فليس أفضل من الوصول إلى الأحلام إلا الموت دونها.

***

قال لي حماد قبل بضع سنوات، وبعد أن حدث ما حدث:

- أنت رجل انهزامي، كنت تحاول تبرير أفعالك بإجابات مقرفة.

- لكني صدقاً يا حماد لم أدمن المسكر إلا بسببها.

- وهل كل من يحب فتاة وتذهب إلى المجهول يغدو مدمناً؟ صدقني نحن أمة عاطفية، فلو فعل كل شخص منا ما فعلته لأدمن الجميع بدءاً برؤساء الدول.

ضحكت بصوت مرتفع وقلت:

- إنني أتخيل الآن أمة كلها سكرى!

***

مرّت سنتان وأنا أتدحرج على رمل حياتي الجديدة مع توماس، أصحو مبكراً وأذهب إلى عملي وحين أعود تقودني سيارتي إلى بيت جدي حيث توماس، أتناول غدائي وأنام، لأستيقظ بعد صلاة العصر، وأتفنن في حشو نفسي تبغاً، وعندما يأتي الليل يبدأ احتفال الخطيئة، لأذهب في اليوم التالي إلى العمل، والسكر ما زال يجوس في رأسي. والصداع ممسك بعيني ليجعلها أكثر حمرة، وعبارة مدوية تصرخ في داخلي "حينما نعقد موعداً ثابتاً مع الخطيئة، كيف يمكن أن تنفصل من إمضاءاتنا؟". زاد هوسي بهذه الحياة، حتى صرت أتغيّب عن المنزل كثيراً.

في إحدى المرات وأثناء تجرعنا كأس الخطيئة جاءتني "غيثة" وهي تترنح، هذه العبدة التي تعرف جيداً كيف يمكن أن تُخرج الرجل من جبروت سكوته، فالسكوت شيء أشبه بالتتار إذا كثر صار مارداً، كانت تترنح وكأس العرق في يدها يأخذ شكل أكياس المغذي في المصحات، وكأنها ممرضة تحقن العهر فيّ دون وجل، سحبتي من يدي وهي تقول:

- تعال يا عبدي!

وقعت هذه الكلمة عليّ كأنها تسونامي الحكي. وماردٍ في داخلي يصرخ "إن أسوأ ما يمر على الأحرار تمرد الرعاع"، لطمتها على وجهها وقلت:

- أنتِ العبدة يا بنت الكلب.

سرطنتها الدهشة، حتى غدت تصرفاتها أوراماً لا مهنة لها سوى الوجع، ضربتْ بنفسها في الأرض وهي تصيح، وتلعن وتسب الحظ الذي أوقعها في حياة كهذه، وأخذت تحاكم القدر بأنها خلقت عبدة، وكيف أن العبودية طريق سهل للخطيئة؟ . وعلى وقع هذا الهدير الأنثوي الصادم جاء توماس، ونظر إليها بسخط، ودون أن يسأل ركلها برجله وقال: "لا تنسي أنكِ عبدة!". في تلك الليلة نمت، بعدما تنامتْ هذه الحادثة في مخيلتي، وتضخمت كثيراً، وسؤال يتلاطم في عقلي: وماذا

بعد ذلك؟! وعندما استيقظت عصر اليوم التالي ذهبت إلى أبي وقلت دون مقدمات:

- أريد أن أتزوج حمدة.

كانت هذه اللحظة بالنسبة إلى أبي هي الفرصة المناسبة لاقتناص خيبتي. لم يفضّل التأخر البتة لأن قراراً بالتأخر سيعيدني إلى أكل الخطيئة عشباً أصفر. وبعد صلاة المغرب، وكأن معاناتي تحالفت مع العتمة، فالأشياء التي تأتي ليلاً تجيء بوجه مريب دائماً، ذهب إلى عمي صلاح ولم يأت إلا في وقت متأخر من الليل، في وقت متأخر من البوح، في وقت متأخر من الشك، ونام دون أن يخبرني بما حصل.

السنة الحادية والعشرون بعد حمدة

صديقي قصاص...

إنني أكتب هذه الرسالة لك وأنا أعرف أنني سأقسو عليك كثيراً، لكن ما سيأتي في هذه الرسالة هو شيء لابد أن تتقبله بصدر رحب، لأنه يمثّل جزءاً من الحقيقة...

أعرف يا صديقي أن ألمك غامض جداً، لأن بعض الآلام تحتاج إلى ظواهر كونية لاستيعابها! كهذه القرية النائمة، وكحكايتك النائمة في أعماقك، تغطيها كل يوم، وتغدق عليها بكل دفئك وحنانك، لأنك تحتاج إلى مزيد من القوة في إخراجها، تعلمتَ مذ كنتَ صغيراً أو هكذا علمتك أعضاؤك، ألا تبوح بوجع إلا إذا كان أكبر من سكوتك، لأن بعض الأوجاع جمالها في التكتم. فغدا كل شيء في حياتك مجرد استئصال بسيط لما تؤمن به.

تفرض علينا أعضاؤنا أحياناً قناعات راسخة، لأنها أبلغ المعلمين، فيتم الأعضاء مدرسة بلا أطر - أعرف ذلك -، وأعضاؤك هي الانتماء القوي إليك أنت دون أحد غيرك. لذا لم تكن زوجتك وساقك وأطفالك كأعضاء وكفى. كانت زوجتكَ حالة استثنائية جداً، وما زالت حالة استثنائية، لأنها تفرز كل الحالات الإنسانية من مجرد نظرة أو حركة بسيطة، تحلب من داخلك مشاعر الكره والحب، والحقد والغثيان والتقزز، إنها ثورة، وقضية، إنها حياة وموت، إنها ولا أبالغ كونٌ آخر، لأنها تنجب حيوات كثيرة. فأن تتعلق حياتك بكل تفاصيلها بامرأة، فحتماً هذه المرأة ظاهرة غير عادية.. وأطفالك الذين يلتفون حولك كأطر اجتماعية وعادات وتقاليد موروثة لهم حق اللجوء إلى قلمي الآن، لأنهم

وبتأكيد أقرب إلى اليقين بذرة حسرة تنمو في داخلك والأيام. فأبناؤك إذا غدوا أشياء تحيط بك كسلاسل تقيدك وتقذف بك بين فكي زمن مر، فهم أشبه أولاً وأخيراً بعبارات بذيئة جدًا على شفتي متدين مبتدئ!

إنك وإن كنت تكتب الآن - وأنا أعرف أنك صرفت جُلّ وقتك على روايتك تلك - وتحاول سرد حياة كانت وما زالت تحكم عليك بقسوتها فلأنها حياة ليست على مقربة من الضعف بقدر ما تمتلئ بالحقارة، تجاه الحكايات النائمة، وكل القرى النائمة على وجه الأرض. لأن القرى النائمة دائماً تستحدث الحكايات ولا تنفيها! فحياتك - يا قصاص - متاهة عظيمة، وستبقى متاهة، لأنك لا تشعر إلا بالدوران والضياع، ذلك الوهم الذي لم تصل معه إلى نقطة التقاء، فبقاؤك كان أجوف بين حياة وأخرى. لأن في حياة كل منا حياتين، واحدة على بعد كلمات من التخيل والأمنية، والأخرى تقبع تحت الأقدام، لها بعد الواقعية.

هل قلت أقدام؟

صدقاً إنني لا أنكر ذلك الخيط الرفيع، الذي يربطك بعقدة النقص المهولة التي تعانيها، (أعذرني على قسوتي) والتي أعيتك حتى الشوق لرؤية حياة أخرى، حياة تفترض فيها الكل بلا نقاء، وبلا صفاء...

أكتب هذه الأحرف اليتيمة لأنني أثق بارتباط اليتم وتماسكه وغيرته المطلقة على التنافي، واستيعاب الحمى التي تغزو اليتامى في جنح الخلوة، وتعرية الجراح! فأنت تعيش في خليط عظيم من المتناقضات، كأي إنسان غدا حالة من العطالة، لأن المنبوذين من الحياة هم من يقذفون لها الشتائم في أوج زهوها! لذا كان الكون مرهوناً للحظة ضعف في ذات الفرد منا يخزها، ثم يتوارى ويتوارى ليبقى الناس يمضغون الحسرة منها طوال حياتهم. قلتها لك ذات شمس خلّت، قلت عبارتي تلك فدوّت في داخلك وأنا أعرف جيداً أنها لم تتركك في سكون كما هي العبارات الأخرى التي افترضتَها في شعب هذه القرية النائمة، أو

الغائمة كذباً، كان لنوم هذه القرية تأثير بالغ في رؤى أهلها فأسبغت عليهم نوماً سرمدياً، فأنت تعتقد أنك هنا نارٍ تضطرم، في نظر من يهاجر من أهلها فقط لأنك حيث تكون دوي لا يسمع...

مكثتَ تنظر إلى سيجارتك، وتحاول تبديد وطأة السأم الذي طغى وتجبر على حياتك، ناقشتَني فيما مضى، وأنا أدرك جيداً أنني لم أكن إلا أداة تصب في داخلك الكره لكل الأشجار والأحجار والبيوت الطينية وروث الأغنام وعلفها، والمسنين العجّز الذين تسيّرهم الحياة في وتيرة حمقاء لعينة كما كنتَ تدّعي...

قلت: أنت يا قصاص خليط من المتناقضات!

وتركتك...

تركتك معلقاً بشكواك إزاء الحياة، والقدر، والعاهة، والحب، والنبل! فهل كنت صادقاً حينما قلت لك بأنك خليط من التناقضات؟ . أعترف لك الآن بأنني على قسوتي تلك معك، كنتُ كاذباً، ولم أقل ما قلته إلا لأنني أردتُ أن تعود إلى وعيك، وترجع إلى منطق الحياة، لكنك لم تسترسل معي في هذه النقطة، لأنك تعرف جيداً بأن حكماء التاريخ ينظرون إلى الأشياء نظرة واحدة ويمضون، لكنها احترقت في جوفك محدثة جرحاً لم تنقطع دماؤه وأنت لا تدري هل كان ثمة من حكمة لما عشته؟!

في الحقيقة، إن منطق الحِكَم لم يوجد إلا لتسير الحياة في رؤية أولئك الذين يعانون حدة المعاناة في أفئدتهم وأجسادهم، أولئك الذين يجيئون متأخرين خلف المأساة، ويكتبون عناوينها.

كنت تقول لي بأن أباك كان يحكي لك في ما مضى قصصاً عن البطولات وعن أيام الجوع التي استوطنت هذه القرية، وكنتَ تأتي وتحكيها لي وأنت لا تعرف لماذا لم تكن مقتنعاً بكل تلك البطولات وكل تلك الأكاذيب التي يطلقها المسنون على حياتهم، لأن ثمة قناعة نبتت في ذهنك مقدماً أن الكلمة ذات البريق الجذاب لم تستحدث إلا

لمحاكاة غير الحقيقة، في محاولة رديئة لردم الشرخ الذي تعيشه الشعوب في ذل، ودائماً الرؤى المهترئة تولد من خلق كاذيب ترسم لنا الحياة بريشة متزلف مرتزق... أجبني، فقد سألتك كثيراً ولم أصل إلى نتيجة مقنعة: لماذا تصر على كتابة حياتك وأنت تؤمن بأن الحكايات دائماً لا تعرف منطق المُثُل؟

... ما يحيرني هل كان أبوك يعلم بأنك لا تصدقه! ولو كان يعلم ما الذي كان بوسعه عمله؟! ولماذا لم تكن كغيرك من أبناء جيلنا ممن كانوا يترنمون بهذه الأكاذيب! من هنا أيقنتُ أنك مختلف، وأيقنتَ أنت كذلك أن من الحكمة أن تكون لك نظرة تختلف عن نظرات الآخرين، فالحياة مجرد منظار كبير جداً، والناس لا يخطفون فيها إلا من خلال نظراتهم عبره، فمن كان متسلحاً بنظراته أكثر، كان أكثر علواً وزهواً في آن.

فضلاً عن تفردك بالعاهة فإنك لم تكن تطيق أن تشترك مع أحدهم في الفكرة نفسها، أو في القناعة ذاتها. أما المبادئ فلم يكن لأهل قريتك كما كنت تدّعي سوى مبدأ واحد هو جوع الفكرة!، كنتَ متطرفاً ببشاعة، ولا أكذب إن قلت إن لأعضائك نصيباً من اختلافك، ولن أخاتل أحداً لو قلت بأن الأشياء الصغيرة في الحياة من حولك غدت والأيام مبادئ عظمى في رؤيتك لكل القيم الضحلة التي جرت في حياة قومنا بلا تلكؤ... إلا تلك الأسطورة التي يرويها كبار القرية ومسنّوها، عن نسب أمك وأهلها، تلك الحكاية التي كنت تسردها لي ونحن ندخّن سجائرنا قرب صخرة عبر، عندما قلت "سأقول لك حكاية وأرجو ألا تضحك"... فأهل القرية كانوا يفترضون في أهلك تلك العين التي لا تخطئ الإصابة، فبدأت تسرد "يقولون بأن جدي لأمي كان إنساناً طيباً، ورجلاً يحمل من النبل الشيء الكثير، وفي ليلة من ليال الجوع السامق وصل إلى عشته - المنزوية في ركن بعيد عن ألسن الناس - مجموعة من المسافرين، كانوا ستة أشخاص، هم أربعة رجال وامرأتان، لم تكن

الحياة آنذاك إلا لفظاً للجوع، ولم يكن مع جدي وقتئذ إلا ما يسد به أفواه أبنائه فقط، استضافوه فرحب بهم، لم يجد ما يقدمه لضيوفه هؤلاء إلا تلك الشاة التي تدر عليه ذلك اللبن الذي يسارع إلى بيعه في سوق "سانغ" كل خميس ويتزود بثمنه طوال أسبوع من الجوع المتدفق، كانت حياته فوضى وأمنية لا تنقطع، فقدم تلك الشاة لهم فلاكوا لحمها وهو ينظر إليها بحسرة، وعتابها عليه حار في التخلي عن حيوان كان وفياً له حتى في روحه، فأحياناً تكون الحيوانات أبلغ وفاء من الإنسان عندما يشعر بأن الإنسان فرض عدمية فقط بعدما تعشوا، وحين يسيطر الشبع، تبدأ النفس في الثوران، كان جدي دقيق الملامح حد الوسامة الطاغية، فلم يكن من إحدى المرأتين إلا أن قدمت نفسها وعرضتها تحت ظرف شبع ورغبة، يقال أن جدي استعصم، بدءاً لم تلج هذه الحكاية عقلي، لأن النفس حين ترتاح للحكايات تكون أقرب للكذب، لم أقتنع بسهولة من جراء هذه الأسطورة، فالإنسان رغبة كبيرة جداً، بعدها استوطنت قناعة بأن ثمة تلفيقاً بذيئاً في هذه الحكاية، ويقال بأن جدي قام بطرد تلك الفتاة ومن معها، وذهب حزنه على شاته حسرة امتدت بأن وجدوا تلك المرأة متفحمة في اليوم التالي على إحدى التلال القريبة من القرية، وهذا ما مدّد فكرة أننا نسب تشوبه قوة العين التي لا تخطئ..."

استمرت معكم هذه الأسطورة إلى هذه الأيام فمن كان لا يقبل لكم أية مطالب فإنه يقع رهن إشارة تلك العين الخفية التي لا تموت، لأن العين: شيطان الحياة الخفي والمميت!

ربما تستطيع أن تستفد كل أدوات الاستفهام حين تقول: هل الغباء وليد الشعوب الجاهلة فقط؟ وهل القرى فعلاً أسهل طريق لمرور الأساطير؟ لكن حين نكون آلات صدئة تمرر الأقاويل ولا تقبل فكرة أن نبقى تحت وطأة التفكير فنحن أقرب للهلوسة، فالإنسان قالب تفكيري دائم، ديمومته تضفي شساعة أكبر بين تفنيد الأقوال، وفرزها في مصنفات أخرى، فعندما يصبح القول - أياً كان - مسلّمة فثمة بعد خفي

أعرج في حياتنا! لكني لا أدري لماذا لم يكن لهذه الأسطورة وقع على قضية حياتك؟ هل لأنك مختلف عمن حولك؟ أم لأن الناس يعلمون بأنك لا تؤمن بالأسطورة جملة وتفصيلاً؟ أم أن هناك أشياء تجد نفسها صامدة حتى أمام القدر؟ ولماذا لم تصب تلك العين من كانوا سبباً في شقائك كما تدّعي؟ .

أتذكر أنك أثناء عربدتك لم تكن تطيق ممارسة هذه العربدة في ظرف يماثلك فيه غيرك من الأسوياء، نظرية البعد أعطتك تصوراً بأن المعاق إنسان مختلف لا يجدر به التماهي مع غيره، لأنك كنتَ تتخيل بأن عضوك الهارب ذاك لم يكن يفضّل أن يبقى في ظل ما تعيشه أعضاؤك الآن. وتعترف لي دائماً بأن ذلك العضو يحمل من النبل الشيء الكثير، إذ كان يترفع أن يعيش حياة يكون فيها مجرد وسيلة!

في قرارة نفسك لا تنكر أنك كنت وما زلت موضع سخرية، واستصغار في أعين الصغار قبل الكبار... لكنك ترفض أن يجاهر أحدهم برؤية كهذه، وربما يترجم رفضك هذا أحياناً عبثاً في تصرفاتك، فالإنسان يضيع دائماً في لحظة غضب. هذا المنطق ولّد في داخلك سلاطة لا مثيل لها، فالعاهة أكسبتك أشياء لا يماريك فيها أحد، منها لسانك الآخذ في القبح أحياناً، ونظراتك التي يشهد عليها عمك "النتاري" حينما قال لك مرة بعد أن نظرت إليه متقززاً من بعض حكاياته :

- يا ولدي، لا تحاول أن تنظر إلى الناس هكذا، لأن النظرات هي التي تعجن العداوات كثيراً!

لكن، ما أقبح أن يعيش الإنسان تحت سادية لسان ونظرة!

ربما يكون ضعفاً أن ترسم حياتك في هذه الرواية التي تكتبها، فأنت تحاول أن تنتصر لنفسك في ذلك العمل، وتصنع لنفسك بطولة ليست لك، أو ربما لا تستحقها، بيد أنك مؤمن بأن ثمة من تريدهم أن يقرأوا سيقرأون ذلك الأنين، ليعرفوا مؤخراً بأن ثمة إنساناً لا يموت في

داخل كل مماق! وأن أكثر ما يعانيه الإنسان انتظار مجيء حياته على متن طائرة أحدهم! أنت الذي بقيت منتظراً أن تنفرج أسارير وجه حياتك، كأي طفل ينتظر هديته نهار العيد، لكن الزمن توقف عند ذيل رمضان كثيراً!

***

فائضٌ بؤسك هذا. فائضٌ بكثافة.

لا تغضب من كلماتي هذه يا صديقي، فأنت تعرف بأنني أحبك، لكن دعني أعبّر عما في داخلي لاسيما أنك ستجازف بنشر هذه الحياة التي لا يعرفها ملياً إلا أنا، حياتك هذه التي كنت تشعر بأن الناس تقاسموها وهي ليست لهم، فقد فضلتَ أن تعيش كأي إنسان، لكن الناس لا يتركون الذمم، يصبون عليها تبريرات من كلامهم المقرف!. وفي داخلك لا تنكر أنك أصبحت تنظر إلى الأسوياء بشيء من الكره وتضفي عليهم أشياء لا تليق، حتى يغدو الواحد منهم جرثومة والسبب يعود إلى ساقك! ذلك العضو الذي تحمّل أن يبقى معلقاً بركبتك ثماني سنوات، بعدها ضاق من معيشته ففضل الانسحاب. وأنت لا تعلم أننا حين نقامر بأعضائنا، ونحمّلها بؤسنا، فإنها ستولى أمر نفسها، وتهاجر، لأن النبل فيها يترفع عن المقامرات البذيئة وعندها تنسحب بصمت دائماً!. لكنك لا تحتمل كونك نشازاً بين هذه المترادفات، إنك تحب أن تبقى كما أنت إلا من شيء خفي يوهمك بأنك أكبر وأعظم!. فلا جدوى أن تُهامِس أعضاءك يا صديقي، لأنها بجانب نبلها تحمل خيانة دقيقة الملامح، فهي لم تبق بالكلية ولم تهاجر بالكلية أيضاً. وضعَتك بين حدي بقاء، وحشرتك بين شقي هجرة، فهكذا هي الخيانة عندما تأتي، تأتي بهدوء وألم!

أعرف بأن أعضاءك لم تكن هي فقط السبب الوجيه في تقنين

ألمك، إنما أطفالك أيضاً كان لهم دور، هؤلاء الذين يحملون من الظلم أطناناً، كيف لك أن تتخيّل هذا العذاب المتبختر في هذا البيت؟ تعيش بين كل هذه العذابات كقط يائس، مناورات قدرية معدة لك باحتراف، ربما هو القدر وربما هي المؤامرة، فأنا أعرف أنك لا تدري، ولا تريد أن تدري، فأحياناً تحس بأن حياتك مؤامرة كبرى، طرفها أنت، والطرف الآخر أشبه بالظل، ومن الظلم دوماً أن تدخل في مناورة لا تدرك حيّز خصمك فيها! ثمة أشياء تنظر إلينا ببلاهة، لأننا لا نعي المسافة الفاصلة بين تصديقها وتكذيبها، نقف أمامها حائرين ومستّرين وراء الصمت فهذا هو الحل الوحيد، فقدرة عقولنا لا تستوعب المقدار الناشئ لها من الأساس، فأطفالك كذلك يشبهون الظل كثيراً!

هكذا كانت حياتك محيّرة حتى الدهشة..

أن يكون أطفالك وامرأتك ومنزلك، وسيارتك، وثيابك، دفتراً عليه مكتوب شرف عاهتك بالخط العريض فظلم كبير جداً. يالله... فكم تحتاج من أطنان النبل لتغفر لعالمك! وكم أحتاج أنا إلى السعي وراء التصديق بأن ثمة تماهياً بهذا الشكل! وهل تتصالح مع عالم لا يخلق إلا الخسة؟ ولو فكرت في التصالح فهل جدير بأن تتصالح مع أناس لا يتصالحون مع أنفسهم أصلاً؟

وأخيراً... يا صديقي أن موقن بأنه ربما يأتي من يقول إنك حقير وسوداوي، تحمل دناءتك وحقدك وكراهيتك وتدللها، وربما تقول بأنني لا أعرف ما تعانيه، أو تعتقد بأنني أتناسى كل ذلك الكم من الفجائع التي تسلّطت عليك من القدر والزمن والأقربين، لكن ثق بأنني أعرف جيداً أن ثمة مواقف في الحياة لا يدرك جورها إلا من يضعون أنوفهم في منفذ رائحتها، أولئك الذين تسري في دواخلهم حرقتها حتى اليأس. لكن ما أغباك، كنت دودة تقتات الإنسانية في زمن كانت فيه الإنسانية عطر عاهرة رخيصاً! وما أجهلك قرأتَ كتباً ملأى بكلمات النبل وأردتَ

أن تشيعه في شعب بسيط لا يعرف إلا المرعى وتربية الماشية. لكنك تعرف بشدة أيضاً أن شعور النقص مؤلم دائماً.

حماد 12/5/1423 هـ

***

عندما قرأت هذه الرسالة التي جاءتني من حماد، ذهبت إليه في بيته وعندما دخلت مجلسه، وحينما أراد أن يذهب إلى زوجته لتصنع لنا شاياً، قلت له:

- لم آتِ لأشرب الشاي يا حماد، أنت تعرف بأنني قرأت رسالتك، فأنا لست مستاء منك، ولا من قسوتك أبداً، لكن لي رجاء عندك أن تكتب أكثر من رسالة، لأنك الوحيد القادر على قول الحقيقة، فأنا وإن كنت أكتب هذا العمل، فواثق بأنني سأكون منحازاً لنفسي، وأحاول أن أنتصر لها، وأنت الوحيد الذي يرى الأحداث من زاوية لا أراها أنا.

نظر إلي حماد وقال:

- ولماذا؟

- لأنني أريد نشر رسائلك في هذا العمل.

- قد أكون قاسياً كثيراً يا قصاص، أتمنى أن تعذرني.

- لن أعذرك يا حماد، واكتبْ كلّ ما تريده، أقسُ علي كما تشاء، فلن تكون قسوتك أفظع من قسوة الحياة ذاتها عليّ.

لم يطل الحديث بيننا كثيراً حتى بدأت دموعي تتساقط على مرأى من حماد، وهو لا ينظر إليّ أبداً، فقد أخذ يحدّق في زاوية الحجرة من الأعلى والدموع تندلق من عينيه.

السنة السادسة قبل حمدة

حين بدأت أعي مت، لأولد من جديد ؛ لأن الحياة ليست العمر دائماً، إنما هي التجارب التي يمرّ بها الإنسان منا، وترحل عنه ليتعلم من غيابها.

ربع قرن تحمل في جوفها المهانة، ربع قرن حبلى بالاستصغار، لم أكن أدرك أن يكون لك عمر آخر لكنه زائف، عمر تقضيه كأنك بندول ساعة، تدور دون أن تدرك قيمة نفسك الحقيقية. ثمة أشياء في الحياة نسير بوتيرة واحدة لكن في لحظة ما يكون لها جرْس مختلف، نغم منه نعي معناه الحقيقي، ووجهه غير المزيفة.

عندما كنت صغيراً، لم أتوقع أن تكون العاهة بهذا الحجم من العذاب، وحين كبرتُ نعي عاهتي أيقنت أي معنى لتلك الدمعة التي انسكبت من عيني أبي لحظة البتر الأولى، فالعذابات مراحل متأخرة دوماً، وتبقى الأيام تخبئ في جوفها وقائع تذكرك بخطيئتك المتقدمة، فبعد أن بترت أصابع قدم والدي مؤخراً بكيت، وحينما دخلت عليه حجرته في مستشفى الملك فهد العسكري في جدة، ووجدته مستلقياً على سريره الأبيض، وقد غطت الممرضة قدميه جيداً، نظر إلي نظرة ملؤها الحسرة، فسألته عن سبب هذه النظرة فقال لي إنهم بتروا أصابع قدمه اليسرى، فرفعت غطاء السرير عن قدميه فوجدت قدمه اليسرى بلا أصابع، أخذت أنظر إليها ولا أتكلم، ولم أشعر إلا بحرارة دمعة تنساب على خدي الأيمن، تركته كيلا أراكم عليه همّ البتر، وهمّ النقص، وخرجت من الحجرة، ولم أتمالك نفسي فانهرت في الممر، ليقوم ويسندني نضال بيديه، وهو يقول "هذا قضاء الله وقدره. اصبر وادعُ له

بالشفاء". بكيت ذلك اليوم بحرقة لأقوم بسداد ديون أحزاني، وأقدم له هذه الدموع قرباناً أسترضي به دموعه المنسكبة في عيد رأس حزني، لأنه من أسوأ ما يقابل المرء دموع تماثيل حياته التي لا يدخلها الإلحاد عندما تنسكب بلا تردد... فالآباء ملاذات مقدسة، نؤمن بهم، ولا بداخلنا الكفر بهم حتى لو صبوا فوق رؤوسنا قذارة الأرض!

أحار الآن كيف تجرأت يوم بتر ساقي ونطقت بسؤالي العادي إلا من طفولتي، لكني لا أبرر لطفولتي فالطفولة غباء فطري وهبه الله لنا كي لا نُعاقَب على ما نقترفه صغاراً من أخطاء، إن الله عندما وضع الطفل بعيداً عن عين المحاسبة، فإنه إذ يفعل ذلك فلكي يكدس غباء الطفل في ذاته، ويجعله يقترف الأوهام دونما وجل.

لا أعرف الآن لماذا قلت بمنطق الجهلة والأطفال بعدما أصبحت بلا ساق، وبدا يُتم ساقي الأخرى واضحاً بشكل محزن ومقزز... (يبه أبي رجلي وين راحت)؟ وأسكتُ، منتظراً إجابة! والإجابة لا تأتي! فقمة الذل أن تجتمع فيك هيئة الحزن والتقزز!

في الواقع كنت أحمل من الغباء ما أسكتَ أبي وألجمه عن خوض غمار إجابة حمقاء كتلك، لأن بعض الأجوبة تغدو حمقاً من فرط دمامتها!. أنا العاشق لعار الأسئلة، أندم على وضع سؤال لم يحترم حتى تفاصيل اليتم ومنطق العاهات، ولم يقدس دموع رجل يبكي وقد بلغ أشده. إن حزن الآباء على أبنائهم حزن صامت دائماً، لكن من المخيف أن يقف أبي أمام الحياة فارداً دمعة على حدود اليأس، فكيف يمكن أن نتصور آباءنا يبكون بحسرة؟ والأسوأ ألا يُحترَم حزنهم فاك ويجعلهم بنهارون أمام أبنائهم... هكذا وبكل بساطة مت، فالموت أن تتخلى عن حياة لتدخل في أخرى، بعثت من جديد لكني لم أتجرع مرارة سؤال منكر ونكير، بل كان موتي صحوة، وصحوة الموت ازدواجية عظمى!

أعترف بأني لم أقدّر الجهد الحقيقي الفاصل بين حياة عشتها بمنطق الأسوياء، وحياة سأعيشها وأنا ناقص، والنقصان شعور الخزي أحياناً،

ربما كان شعور النقص في داخلي من النياشين التي استبقيتها حتى زمن الثورة بعد ربع قرن من المهانة. كان نقص أعضائي وليد قدر ساخر! وتتهتك أفكاري حين أفكر في تلك اللحظة التي سمّرتني بين عالمين، وكأني لوح خشبي مهترئ، في تلك النقطة التي تحولت بعدها الأشياء في حياتي لسرادق نقص طويل، طوله ربع قرن. لأني حينما كنت سوياً لم يخطر ببالي أن ثمة "قداراً تحط من قدر الإنسان إلى هذا المستوى، وأن هناك أنواعاً قذرة من الأحزان على هذا النحو.

كان فرحي غراً، وكنت ألعب في شارع لا يخلو من شيطنة أطفال، كان أخي والشارع وبضعة أطفال وكرة قدم وحفرة هي كل ما في جعبتي لمواجهة هذا القدر العاتي، فماذا يمكن أن يقدم طفل يواجه حزنه بكرة قدم أو حفنة من الصبية؟ كنا نلعب في الشارع ولم يحصل لي بعد أن أنتمي إلى تنظيم القرى، ولم أغط بعد في نوم القرى وقرى النوم، بعد هذا العمر الممتد هباء، عرفت لماذا اقتطع أبي جزءاً من حياته بعيداً عن القرية، مسافته خمسة عشر عاماً من العزلة؟ إنها قرية لا تُنبت إلا الحقد، إنها تربي في أهلها اقتيات الشؤم والخسة وحفنات التراب، كعشاء قروي رديء ومتكرر. وبينما كنا نلعب، كانت تلك الحفرة التي خلفتها إحدى شركات الطرق كدليل قاطع بأن شركات الطرق دائماً تستنبت إدانتها من فرط ما تخلف وراءها من الحفر. الآن أستطيع أن أسأل: لماذا كنت أنا بالذات من حاول أن يأتي بالكرة في ذلك اليوم؟ لماذا لم يكن أحد غيري؟ لأنه وفي غور المأساة يتخلى الإنسان عن انتمائه وحبه كيوم القيامة، لأن المآسي قيامات متكررة، فهل كان ذلك المسمار المتواطئ والصدئ يحضّر نفسه ليحتل أحلام طفل غبي فرّ من نفاهة طفولته للعب؟ أتخيّل أحياناً أن الجمادات تسير إلى الإنسان للتنكيل به، لأنها دائماً في درجة منحطة من تقسيم الطبيعة!

تماماً وكأي مخطط سياسي محبوك سارت اللحظات بدقة آنذاك، لا أذكر بالضبط من كان رامي الكرة في الحفرة وقتئذ، وبعدما نما حزني

سُجّلت عاهتي لفعل مبني للمجهول، وحتى لو كنت أعلم من هو: لِمَ لم أقل وقتئذ " من أسقطها هو المتكفل الوحيد بإحضارها"؟ لو كنت أعلم بأن ثمة حياة أخرى في نحر تلك الحفرة، لتسابقت أمام وقاحتي وقلت تلك العبارة، لكن الإنسان كائن غافل إلا من مأساته! سقطت الكرة بكل بساطة، ولكل إنسان الحق في أن يتخيل بساطة هذا المشهد، بيد أن جبن قدري في الإطاحة بساقي كان متأخراً ومخبأ في جوف حفرة، جبن الأقدار عن المواجهة دستور نظامي ومقنن! ركضت خلفها، وقفزت وراءها، وكما سقطتُ بكل بساطة سقطت أنا بكل بساطة أيضاً، ولأن القارئ لا يؤمن أبداً بالبعد الأعمق في تقمص أي شخصية، فإنني لا ألوم من يحاول أن يقول بأني أبالغ في وصف هذا المشهد، كحالة فتازيا مهولة، لكن هذا الإحساس هو ما يقشعرّ منه جسدي بالفعل. لأن بين الموت والحياة لحظة تجبّر عظيمة!

عندما قفزت في بطن الحفرة بسهولة طاغية لم تقع قدمي إلا على ذلك المسمار الصدئ النتيء وكأنه يسعى لتحقيق انتصاره لفقده مكانه في أي حائط أو لوح بالإيغال في قدم طفل لا يحب حتى الشركات، أو أنه لم يكن يعي وقتها معنى أن ثمة شركات تسرق أموال الناس وفرحتهم وتدع فيهم الحزن معلباً ومختوماً...

هل كان محتماً أن ينغرس المسمار في قدمي ذلك اليوم؟ بدءاً شعرت بثقب في قدمي، ورأيت الدم ينتشر على الأرض بحمرة دكناء أقرب إلى السواد، بكيت ألماً، ولم أكن أعلم أن السنوات الثماني أو التسع التي قضيتها كسوي بدأت تنذلق على الأرض مع ذلك الدم. الآن وبكل بساطة أستطيع أن أختزل حياتي بأنها راحت ضحية مسمار صدئ، ولو كنت أعلم عن ولادة حزني في ذلك اليوم لجمعت كل الدم المنتشر في قنينة أتصبر بها على جبروت ربع قرن من العاهة، لكي يأتي اليوم الذي أقدم هذا الدم للناس وأصيح بصوت عال "هذا دليل براءتي من العاهة، هذا الدم حياة الأسوياء في عالمي"! أما الآن وبعد كل تلك

السنين الآخذة في الحمق أكثر، أصبحت أرى الأسوياء قذارة الطرقات، فالإنسان السويّ شيطان الشارع المدلل! فكم تمنيت وأنا أبكي يُتم ساقي أن كل من يراني يشاركني في العاهة، لأن العرجة التي بدت في مشيتي جعلتني أعيش أقصى حالات التآمر، فقد تآمر علي مسمار وقدر، وهل من الممكن تحديهما؟ وكيف يمكن أن أتحدى الكائنات الصماء والمتخفّية؟

ولأننا عندما نبكي نتبرأ من أحاسيسنا علناً! بكيت يومها لمجرد أن رأيت دمي يسيل، رؤيتي لذاتي تنساب أمامي أفقدتني شعور التوازن، فالمرء حينما يرى ذاته متجسدة أمامه فليس له إلا البكاء والدوخة، هنالك بكيت لأن الذهول لم يكن ليتاب صبياً في الثامنة أو التاسعة من عمره غبياً بالفطرة! حملني أحد جيراننا بين ذراعيه، لتبدأ سلاسل الزمن تطوقني ولتنشأ حالة وجد عظيمة بيني وبين الحمل! فضعف لا مثيل له أن يحملك الناس بين أيديهم لمجرد ثقب في قدمك. عندما وصلت إلى المنزل لم تكترث أمي آنذاك إذ رأتني أنزف، عفواً لا أريد منكم فهم أمي خطأ، إنها لم تكترث بالقدر الذي يصوّر لها بأن ثمة معاقاً ينمو في بيتها، وسيبقى معها طوال العمر. ففي دواخلنا دائماً مشاعر تتمزق حين تكون نتائج الأشياء عكس ما كنا نتخيل، هكذا تمزّق بيتنا يوم البتر!

متعبٌ أنا حتى الهرم...

أن تتخيل الماضي وتقع في أسره ثواني قليلة، فشعور أرعن يحمل من الهرم الشيء الكثير. قلت لحماد يوماً "إن الكلمة لا يمكن أن تصور عذابات الإنسان وفجائعه، لأن جفافها يفقد العذاب عنفوانه وجبروته. عندما نتعذب فإننا لا نريد أن يفقد هذا العذاب قدسيته من خلال كلمة، لذا نلاحظ أن كثيراً من العذابات التي تستحق أن تُكتب لا يكتبها أصحابها، فعجز الكلمة عن التقمص للعذاب عجزٌ يولّد الحسرة في نفوس المعذبين، فينكفئون على أنفسهم ويقتاتون عذابهم وفجائعهم وتقتاتهم بدورها ويموتون صمتاً"! هكذا أؤمن حتى لو كنت أكتب الآن

إلا أن الكلمات تخونني أحياناً ولا توفي العذاب والفجيعة حقهما، ولا يمكن أن أتخيل عذاب ربع قرن في ثلاث كلمات، أو حتى مجرد منجز روائي.

دخلتُ يومها المنزل على الأكتاف، وبعدها اعتدت أن أحمل على الأكتاف، في تواطؤ باهت ومثير للاشمئزاز، إلى أن جاء وابل الفرج بحمل مأساة أخرى. كانت أمي في المطبخ تحضّر عشاء فراخها، وكان أبي مستلقياً على عتبات النوم. سألته في ما بعد، بعد أن تزين حزني في أربع سنوات:

- أبي أين كنت تلك الليلة؟

- يا بنيّ إن الدم واللحم لفي ترابط عنيف، في قبلولتي وقبل أن أراك رأيت وأنا نائم شهاباً قادماً من الفضاء ليفجر بيتي محدثاً شرخاً عظيماً لم أتخيل في يوم أني أستطيع ترميمه وخرجت لا يبعثني إلا ذلك الحلم!

عذراً إنني أتعب كثيراً حينما أصف ما حدث بصيغة الماضي، لأنه يسكنني منذ ربع قرن، يتجدد كل يوم، ويشبّ، وأنا الذي أوّثث ذاكرتي به، لكن اللغة عاجزة حتى عن وصف نفسها، في مقارنة إزاء الكون!

ولأن الطفولة غباء فطري كما أنا موقن، فقد كان غبائي سبباً في إهمال قدمي. بعد أن غسلت قدمي مراراً، لم أكن قادراً على غسل عار الإعاقة، مكثت في المنزل أياماً عدة، اعتدت بعدها المكوث في البيت لأن العاهة كفيلة بإحراز خسارة إنسانية فادحة، ولأن الاستصغار وليد رؤية جوفاء، لم يعد لي رغبة في الخروج إلى الشارع. أرغمتني العاهة على البقاء في المنزل كالنساء. مرت أيام وقدمي ملتصقة بي، وألمها يتضاعف كل يوم، ونفسي تنهار، ونحن عندما تضعف نفوسنا نكون على أبواب ألم جديد. لم أكن أعرف أن الأطباء يحملون في أنفسهم يأساً

بوهم الإنسانية بأسرها، إلا عندما دخلت المستشفى. كانت المستشفيات قديماً عبارة عن مبانٍ تحمل اللمعان فقط، كوهي الآن للأطباء كوه مبطن بالحقد، فكيف يمكنني التصالح مع جنس يبتر منا أعضاءنا دون أن يغمض له جفن؟ حتى أن أبا رحال ذلك الطبيب الذي كنت أعدّه طبيباً لأسرتي، كنت أكرهه بحيث أنني أحياناً أدخن أمامه بشراهة، لأرسم حياته في سيجارة عاهرة تداس بالأقدام بعد الانتهاء منها.

سمعت أبي يقول:

- لا يمكن. ألا يوجد طريقة أخرى؟

- عفواً، لا يمكننا أن نفعل غير ذلك وبسرعة كي لا تنتشر "الغرغرينا" في باقي جسده!

ولأن الأسماء الغريبة دائماً مثار اختبار لذوائقنا، كانت تلك أول مرة أسمع فيها هذه الكلمة "الغرغرينا"، وعرفت فيما بعد بأن حياتي الجديدة تعلقت على أستار لفظة. وأن تتعلق حياتي - كل حياتك - بلفظة واحدة فحتماً ثمة فجيعة بقيت أياماً على ذلك السرير الأبيض، ورائحة المحاليل تبعث على الاستفراغ، والعاملون كذلك، كلهم لا يعدون كونهم محاليل صحية فاخرة، وفي كل يوم أسمع ذلك الحوار لا يزيد كلمة أخرى...

أبي يقول:

- لا يمكن. ألا يوجد طريقة أخرى؟

وصوت أجشّ يقول بهدوء الموت:

- عفواً، لا يمكننا أن نفعل غير ذلك وبسرعة كي لا تنتشر "الغرغرينا" في باقي جسده!

ما أوجع أن تنتظر الإشارة وتُقصّ ذاتك! أشعر الآن بأني كنت كمن ينتظر حكماً بالإعدام، لأنه لا أسوأ من الموت إلا أن تتزين له وتنتظره على عتبات رأي. أما في تلك الأيام فكانت الممرضات يفرحنني

بهداياهن كثيراً مثل تلك الممرضة الشقراء التي كانت تأتيني كل صباح وتقدم لي قطعة من بسكويت فاخر، بالتزامن مع قبلة تطبعها على خدي الأيسر دائماً. كانوا ينادونها "كاتي"، ولم يحصل أن ناديتها يوماً؛ لأنها كانت تأتيني كل صباح فقط وتقدم لي تلك القطعة وقبلة وتمضي ولا أراها بعد ذلك.

صدقاً.. إن كل من يطبع قبلة على خدي الأيسر الآن يعيد بعث قبلات " كاتي " لأنها أول من علمني منطق القبلات الحارة التي تسكن الخدود وتبقى مسيطرة عليه حتى الموت، لا أعلم الآن هل ما زالت حية أم ماتت؟ لكني مونن أنها ماتت، لأن الموت لا يأخذ إلا الأنقياء دوماً.

بعد مضي مدة على تنويمي، جاء يوم غامض بتفاصيله، لأن بداية المآسي هلامية دوماً، زاد أبي على كلماته المعتادة مع ذلك الصوت الأجش جملة واحدة فقط قال "إنا لله وإنا إليه راجعون، توكلوا على الله"...

وبُترت ساقي...

عندما صحوت، صحوت على دموع أبي ووجه رجل لأول مرة أراه في حياتي. استيقظت من المخدّر فوجدت أبي يبكي، وفي داخلي شعور لا مثيل له فأن تجد رموز القوة في حياتك في حالة ضعف وانصهار فهل لك أن تتصالح مع ضعفك، تقدم مني الرجل الذي كان برفقة أبي، رجل ذو لحية كثة فاحمة السواد ووجه ذي تقاسيم دقيقة وحادة أقرب إلى السمرة، له أنف مستقيم وحاد يقرب من الطول أكثر، وعينان تبرقان رغم جهده في رسم الابتسام على محياه، أخذ ينظر بابتسامة تحتلها الشفقة التي طالما كرهتها، وكأنه لا يقدّر قدسية بكاء أبي قال لي:

- حبيبي قصاص، عرفتني؟

وعندما لم يسمع مني جواباً أردف:

- أنا عمك أبو نضال ما عرفتني؟ ...

لم أجب، لكن عندما وعيت وجدت عمي أبا نضال وكأول وجه قابلني في دنياي الجديدة يقف معي في هذه الحياة بإصرار قاطع، كان كالعكاز الذي أتوكأ عليه، ما أبهجني فعلاً أنني كنت ذا حظوة في حضوره، هو الباتر السامق الذي لا يشق له رأي، تعلمت منه كيف أصمت وكيف أنظر؟ فالصمت والنظر هما أصعب لغات الجسد كافة... لكنه علمنيها. في ذلك الصباح الشاهق الحزن، عندما وجدت الدموع تسرق أبي من لحظات حزني المتدفق، وعندما انتهى عمي أبو نضال من تقديم نفسه، صرخت في أبي وأنا أنظر إلى نصف ساق تتدلى من جانبي الأيمن بكل غباء. (يه أبي رجلي وين راحت)؟!

ويسكت، ويبكي، ويسكت...

ولا يأتي الجواب أبداً...

السنة الخامسة قبل حمدة

أهدي إليّ طرف صناعي، وخيبةٌ أخرى...

من المؤلم أن تكون الهدايا نصالاً تدمي الذاكرة، وأمصالاً تغذي النقص في حاضر الإنسان لتجعله مريض الحزن دائماً. وابل الفرج كان أعمق من المأساة نفسها، لأن المرء ربما ينسى مأساته في لحظة ترف، لكنه لا ينسى هدية تطرق أبواب ذاكرة الألم في داخله، وتكنس شوارع الحزن بدقة. لأن الإنسان مدفوع للأشياء المادية فطرة. فحين تتبدى المادة في فضاءات الإنسان فإنه يؤجّل كل الطَرَقات الخفيضة التي تدقّ دفوف مشاعره، فجبروت المادة حالة أشبه بالسجن، والإنسان مسجون المادة دوماً.

طبعاً، لم أفرح بهذه الهدية، لكني تشكلت وفق حياتي الجديدة بكل ألم، بكل حزن، بكل انصياع، فعندما يجتمع الحزن والانصياع والألم في إناء واحد فالعربدة ذات طابع آخر، حسرة ممتدة للبعيد، للبعيد جداً. لم يكن ذلك الطرف الصناعي الذي أهداه إليّ أبي من النوع الفاخر، مثل الذي أهداه إليّ حماد ذات مساء، في مرحلة متأخرة من العاهة، أتذكر أننا وقفنا أمام أحد المحال المتخصصة في بيع أدوات العاهة مغلفة وفاخرة، ما كان يؤرقني تلك الليلة أن ذلك المحل كان بجانب محل لبيع الملابس النسائية الفاخرة، فكيف للحياة أن تجتمع بكل تناقضها أمام مرأى رجل معاق يبصقه الرصيف، وتسكنه العاهة والحزن، لكن هي "جدة" مدينة تمتهن التناقض دوماً. دلفنا إلى المحل، كانت أضواؤه تنشر البغي في أطرافنا وأعضائنا، وجدنا طرفاً صناعياً

أنيقاً، كان غالياً، كلفته تحتاج إلى طبقة سخملية من الألم، قال لي حماد:

- إخال بأن هذا الطرف الصناعي مريح جداً لك.

نظرت إليه بحقد، لأنني كنت ومازلت أبغض أولئك الذين يبتزون ضعفي، ويذكرونني بأوسمة عاهتي علناً.

قلت له:

- الراحة يا حماد أن تجعل من ذاتك موطناً آخر بعيداً عن المأساة ذاتها، أنا مسكون بحب العاهة!

خرجت من المحل غاضباً، ولكنه في خلسة مني ابتاعه وقدمه لي كهدية. ولأن ثمة هدايا تحتاج منا إلى صك تصالح، وعكس كل من يفرح بالهدايا بكيت، فعلى أضواء جدة الدارية وأرصفتها الممتدة وقعت دمعة حارة، لم تكن دمعة شفقة وضعف، إنما هي دموع الغبن الحارة التي تنسكب حين لا يفهمك أقرب الناس لك. منذ ذلك الحين وأنا لا أتورع أبداً عن سكب دموعي أمام حماد، حماد فقط. قلت له وغصة مرّة متعلقة بحلقي كمشنوق:

- من يعش بهالة ألمية عظمى، فلن يقبل الأشياء بمنطقها الحسن، له قاموسه الذي يحلب منه نظرته إزاء الحياة، فالشفقة توحي لي أنني غير قادر على السير في هذا الكون.

وأردفت بعد أن تجرأت على بلع تلك الآهة والغصة معاً:

- إذا أردت أن أرتاح عضوياً، وأتآكل من الداخل، فلك أن تُلحّ علي في قبول هذه الهدية. يا حماد للحزن قدسية الموت لأنه لا يأتي إلا فرداً.

ثم قلت له في همس كمتهم:

- أحياناً لا نستطيع قياس المساحة الخالية بين الألم والفرح، لذا تموت الأشياء فينا وتتكسر بعشوائية!

ذهب حماد يحرّ هديته وحسرته وألمه، ويلقي بها في سلة النفايات.

فكم كنت أحتاج منذ بدأت أعي عاهتي، إلى سلة نفايات تستوعب حزني وإعاقتي وألمي! لكن مع مرور الأيام بدأت أقدس ضعفي بالثوران على كل من يحاول المسّ بنقصي، لأنه ملكية خاصة جداً، يكفي أنني الوحيد في كل تلك القرى من يطلق عليه لقب "معاق"! تميزت في لفظة كانت رحلتي الأبدية في سياحة الوهم. والوهم سائل لا نستطيع أن ندركه بكليته مطلقاً.

من بعد هدية أبي لي في بداية عاهتي، أصبحت لا أرى إلا ومضات تنبئ بالخذلان، فثمة مواقف لا تشير إلا إلى الخذلان كسمة جودة، وعندما تحين لذة الخذلان فلن يكون للمصداقية مكان البتة. في طفولتي وطفولة عاهتي كنت أسكن مدينة "الدمام" شرقيّ السعودية، وكانت وسامتي الملحوظة مغناطيس القذارة، وأنا لا أتورع عن قول أنني كنت مثار الدهشة في عيون أولئك الكلاب عندما كنت طفلاً، ولولا عاهتي لكانت بكارة رجولتي المبطنة بالطفولة ممزقة إلى أشلاء وستغدو دمامل حينما أكبر. كنت مترجّحاً بين حالتي الوسامة والعاهة! فليست المدنيّة إلا قيماً مجمّعة في قنينة قذرة ومقززة، وإلا أين ما يمكن أن نفخر به شعوب الصحراء من قيم نبيلة؟ هل العهر والانحلال قيمة ذات مدلول إيجابي؟ لا أفترض أن يكون الجواب بنعم مطلقاً، لكن أن تحيا وأنت تتعلّم قيماً مثلى من البيت والمدرسة، وتجد الشارع يمارس عكسها بوقاحة غبية فكيف يمكن أن تتصالح مع عقلك؟ لذلك عندما رحلت إلى القرية لم تتغير الأحوال كثيراً، فالمدينة كانت صورة متطورة عن وضع القرى، والقرية بؤرة انطلاق للمدينة، فالمدن عهرٌ متطوّر.

كان لنا جار في تلك المدينة يدعى "معجب". كانت علاقتي به علاقة طفولة المدن، تلك العلاقة الوقتية التي تنتهي حين يصل الآباء فيها إلى مرحلة متقدمة من العمل فيتقاعدون، وكانت حكايته التي رحل وتركها بين يديّ هي أكثر الأشياء التي أخذت في التنظير لي بأن المدن شيء مثل الجحيم. ففي حكايته تلك كان يقول لي الأشياء بتصرف،

ويرسّخ في داخلي كل هذه الأفكار عن المدينة والحياة، أيقنت فيما بعد بأنه ليس إنساناً عادياً فهو مختلف جداً لأنه أول من علمني هذه الأشياء في تصوير عملي بحت. لم يكن بشعاً بالقدر الذي أقترفه أنا الآن في التنظير إنما كان يمارس حياته لأتعلم دروساً رغم صغر سنه. فهو أول من قدم إليّ سيجارة، وأول من أهدى لي مجلة "ماجد" كان بذرة التغير في حياتي. وهم الأحرار كذلك حينما يأتون، يأتون كالليل باردين وينسحبون في صمت. لا أدري أين معجب الآن؟ لكن ما أثق به أنه كان خطوة تقدّم خطوتها في حياتي بساقي اليسرى، تلك السليمة إلا من يُتم.

في أول لقاء لي وإياه كنا صغيرين بقدر الأشياء الصغيرة والضعيفة والمستهانة، الزمن قذفه جاراً لنا صدفة. كان عدم خروجي من المنزل في الأيام الأولى من حزني سبباً في تأخر معرفتي به، لأن الحزانى مثل المرضى، يهرب الناس منهم خشية العدوى. عرفته فيما بعد، لأنه سكن بجانبنا إبان بتر ساقي، كان صغيراً دقيق الملامح، ذا وسامة طفولية لا ينغصها جهد الحياة وجبروتها، كانت إحدى ثنياه الأمامية مكسورة من طرفها، لتشكّل سنّه الأمامية مثلثاً حاداً، هو الابن الوحيد لأبويه، كنا ننزوي هرباً من المدرسة ونتعاطى مع دهشة الشارع بأسلوب صبياني مضحك مثل تدخين لفافات التبغ آنذاك. قدم لي سيجارة ذات يوم وقال:

- دخّن أنت رجال!

بدايةً لم أستوعب معنى أن تتقلد الرجولة في لفافة تبغ، ومع الأيام تبدت لي قناعة بأن الأشياء الدقيقة هي ذاتها الأشياء العظيمة، لكن الناس هم من يُدهَشون بها. دخنت تلك السيجارة وأنا أتساءل، هل حياة البدو من الغباء بأن توسم رجولتهم بعار التدخين؟ وهل التدخين رجولة أم متنفس؟ ولماذا نحن من يسيّس تصرفاتنا بحمق؟ لم تكن تساؤلاتي بهذا الشكل إلا لفرط ما تعجّبت من تصنيف الحياة وفقاً لرذائلها. لم أكن أدخن من باب لفافة التبغ إكليل الرجولة، إنما لأنني أهوى التدخين إلى هذه اللحظة، علمني معجب أن التدخين طقس لابد من ممارسته حد

اللوعة. وإن طقوس حياتنا مسارات تدوزن هذه الحياة، ولو حدنا عن أي مسار منها لأصبحنا بعرجة، ولغدت الحياة إعاقة بوجه آخر!

قدم لي معجب يوماً مجلة "ماجد" كعربون طفولة، وهكذا امتزجت مع القراءة. صحيح بأن القراءة تزامنت مع عاهتي، ولم أكن أقرأ قبلها، وصحيح بأن الإعاقة كانت فرضاً نبيلاً لأنها علمتني أن أقرأ بنهم، لكني ألعنها لأنها لم تجعلني أمارس طقوس الأسوياء، وجعلتني منبوذاً حتى من أقرب الناس لي. فبعدد الأيام الكثيرة جداً التي هدتني فيها الإعاقة إلى البيت، بدأت أقرأ، وبالقدر الذي تؤلمني العاهة، كنت أقرأ بقوة، كنا في تناسب طردي نزق، فهي تتمادى في جعلي أتآكل، وأنا أقتنص هذا العذاب في القراءة، لذا أعترف الآن وبكل وضوح أن الإعاقة هي التي دلتني على عقلي، وجعلتني أقرأ بكثرة والآن وبعد ما جرى على وقع الحياة من تعثر، وبعد أن أدركت بأن الأعمال العظيمة تبدأ بنقطة ضعف، أود أن أقبّل رأس ذاك المعجب كعربون وفاء، لأنه من المستحيل أن تنشأ البديهيات في ظل الخوارق.

لم أكن أقرأ فحسب. فبرغم أن الإعاقة أدخلتني سرداب القراءة فهي أيضاً جعلتني أدمن الهرب من المدرسة، ولم أكن أهوب من المدرسة لأنني كسول، إنما كنت فائق التحصيل الدراسي، لكن غباء الطفولة وهمّ العاهة أحياناً يكونان أكبر من حجم الجلوس قبالة معلم مرحلة دراسية، ولن يأتي اليوم الذي يندم فيه الأطفال على أشياء اقترفوها إلا حين يرى كل منهم أطفاله وهم يوغلون في ذات النبرة الموسيقية المتفقة في الأخطاء، ودائماً نخطئ حينما نريد تسييس الطفل وفق ما نؤمن به، لأن الطفولة داء فطري له أعراضه التي لابد من حدوثها.

كنا نهرب ولا يجرؤ أحدهم على الإشارة إلى أنه يود الهرب معنا، وكنت يومياً حين نصل إلى ظل ذلك الجدار البائس أقف متوازناً على قدمي، ثم أرفع يدي حتى تتساوى بجانبي، وأمدها كأنني أريد أن أطير،

وأرفع رأسي إلى الأعلى، وأنظر عالياً إلى السماء، فأغمض عيني، ثم أرفع ساقي الصناعية، وأبقى على ساق واحدة، هي ساقي الطبيعية الحية، ثم أستنشق الهواء رويداً رويداً، وفجأة وكما هي عادتي في طقوس هذه الحركة أبدأ بالضرب بساقي الصناعية في الأرض بقوة، أضرب بها، أضرب بها، إلى أن يسقط طرفي الصناعي. وعندما أخلص من هذه الحركة ألتفت إلى معجب دائماً فأراه يضحك بشدة. لقد كنا فعلاً متطرفين تجاه قناعاتنا، وفي آرائنا تجاه متعة الخمس ساعات التي تقضيها خلف أسوار المدرسة إلى أن جاء "خميس" يوماً يطلب مشاطرته لنا هذه المتعة، قبلنا أن نصحبه معنا على مضض، في فضول لمحاولة أن نعرف أين يقع خميس من قناعاتنا. صحيح أن خميساً لم يكن سيئاً بالقدر الذي يجعلنا ننفر منه، لكنه كان منحرفاً، فهو من أطلعني في أحد الأيام على أعضائي التناسلية. فلم أكن أعرف أن تناسلنا وليد عمليات متكررة يتفق عليها كل البشر إلا في ذلك اليوم، هربنا أنا وخميس فقط، لأن معجباً كان مريضاً ذلك اليوم، فتقلصت المسافة بينه وبين هربه بأن فضّلت أمه أن يبقى في المنزل. ومن المبهج أن تسير إلى متعتك برضى من حولك.

بدءاً ومثل أي شيء مرتب له بدقة هربنا، انزوينا خلف أحد الجدران ندخن سجائرنا بلذة، ولم أقم بحركتي المشهورة، لأن خميساً لم يكن يملك من قلبي أي شيء، ولم يكن يستحق أن أجازف بنشر أشيائي الحميمة أمامه. وعندما دفنّا سجائرنا في تراب أحب أن يستكين وراء الحيطان، ولأن الإنسان إذا قضى لذة أبدع أخرى، حاول خميس أن يستدرجني بحكايات من نسج صباه الذي تعدى العاشرة عن الأعضاء التناسلية، فالأعضاء التناسلية حلم الأطفال والكهول في آن! فدائماً كنت أتمنى أن تتوتر أعضائي، لأشعر بأني شهم تجاهها، ومن الظلم دوماً أن نقامر بأعضائك في لحظة طيش ومراهقة. فأن تحاول دفع رجولتك غصباً، فظلم إزاء الرجولة نفسها.

قال لي:

- ما تدري يا قصاص إنّا نولد من ذا؟!

أشار إلى عضوه فضحكت بخجل، لم أحاول بتر محاولة الشيطان إغواءه فقلت:

- كيف؟!

- هذا لمن نكبر بصير ينزل منه حاجة تسيل كل الناس ينولدون منها.

- وش دراك؟!

- اعرف...

- طيب أنت ينزل منك شي؟

- إيوه تبيني أوريك؟

- لا...

تركته هو والشيطان ومعهما بوادر خطيئة لم تكتمل بعد، ورحلت. في اليوم التالي قابلت معجباً وقصصت عليه ما حدث، كان أقرب إلى الذهول وهو يقول:

- إذا باقي بتمشي مع هالحيوان، لا تعرفني ولا أعرفك.

منذ ذلك اليوم قطعت دابر علاقتي بخميس، وتركته ضحية شهوة وخطيئة وبلوغ لم يكتمل!

***

لا أكذب إن قلت إنني أشعر بالخيانة وأنا أسرد تاريخ أطفال مارسوا مدنيتهم باحتراف أطفال المدن فقط، لأن المدن هكذا تربي أطفالها على العهر والخطيئة، وأشياء أخرى لا قيمة لها البتة. لم أتعرض لمثل هذا الموقف فيما بعد إلا حين رحل معجب إلى المجهول حيث لا أحد، هنالك حين تنعدم المحسوسات، ويبقى الإنسان ظاهرة مائية فقط.

ما يبكيني الآن أن معجباً علمني عادتين بقيت ربع قرن أو يزيد قليلاً مستغرقاً في أعمالي السحيقة، القراءة والتدخين. إنني حين أدخن الآن أزفر حب معجب مع الدخان السابح في الهواء، إن حبه جزء من ذاتي وطقس من حياتي لا يتغير مطلقاً، أريد أن أقول دائماً إن ثمة إنساناً أو طفلاً لا فرق، له وقع التطرف في داخلي، فإذا كانت الحياة انحيازاً في المجمل، فإنني منحاز لذلك الطفل بكل أشيائي وأحزاني وحبي وأعضائي، وحتى ساقي المبتورة. والآلام القوية تأتي حين تعرف بعد زمن طويل أنك كنت ضحية لقدر ساخر!

***

ولأن من يقرأ بشراهة يدخن بشراهة دائماً. كنت أقرأ في سنين حياتي الأولى سد ثلاثة ثقوب، ثقب شقاوة الطفولة التي لم أحظ بشرف ممارستها البتة، لأني وأنا أحمل عاهتي فوق كتفي عار على الشقاوة أصلاً، وثقب عقدة النقص المهولة التي فصّلت كرهي للأسوياء ملابس أعبثها بدقة عالية، وثقب أنني كنت أجلس في البيت كالنساء بالأيام الطوال، بالقراءة كنت أريد الوصول إلى ما لم يصل إليه الأسوياء، تعلمت أن أكتب احتراقَ حزن، وحينما يطفو فوق سطح تفكيري أني كاتب أتذكر رسالتي الوحيدة لمعجب يوم سفره، حينما كتبتها وهي تتماهى مع دمع طفل معاق. ومع الإعاقة تولّدت لدي قناعة، بأن ليس هناك معاقون البتة، نحن نوهم أنفسنا إجحافاً بتصنيف البشر، لكن ماذا نفعل إذا كانت الحياة لا تؤمن إلا بالتصنيف والطبقية كمبدأ؟

كتبت لمعجب بالحرف الواحد...

"صديقي، أدري أنك بتسافر، لكن لا تنساني لأني بجد حبيتك، أنت أحسن صديق شفته في حياتي، أمانة لا تساني وإنك تتصل فيني وتعلمني وين بيتكم في الخميس، سلّم لي على أبيك وأخوانك وأمك

وأهلك كلهم، أنا ما أقدر أقبلك لأن أبوي منعني من الخروج من البيت، مع السلامة، أحبك

قصاص*

لا أعلم هل بقيت هذه الرسالة مع معجب إلى الآن؟ مع أني على يقين مطلق بأنه يحفظها عن ظهر حب، ولا أدري هل كان انحيازي إلى معجب بكل هذا الانجراف ثقة أم جهلاً؟ لكنه هو من أوقف الحياة على قدميّ، أنا الناقص الذي يحتاج إلى ربع قرن لتسوية فوضاه. فإن كان الخير في الحياة يشك فينا بالإبر، فالشر هو الإبرة التي تشكنا بتكرار يومي مقرف، لتولد القناعات في عالمنا مبطنة بشر مستطير. إلى هذه اللحظة وبعد أن رحل معجب، ومات أبي، لا أعرف السبب الحقيقي وراء منعي من الخروج ذلك اليوم لوداع معجب، أنا الواقف بين حلّين في معادلة معقدة، معجب وأبي. لكن هكذا هم العظماء حين يرحلون بتركون في الذات آثارهم التي لا تُمحى البتة.

رحل معجب بكل ما كان يملكه، وأعلم بأنه ليس له اختيار في هذه التجربة أو التفرقة، لأننا تعودنا كثيراً أن نقف أمام اختياراتنا ببلاهة، لا نجرؤ على اتخاذ القرار أو الفرار، أو الانتفاء من حقيقة المثول أمامهما. فنحن الأطفال ككل القطع الجامدة، ليس لنا اختيار في حق ملكية أمكنتنا، وليس لنا القدرة على تشكيل وقوفنا في أي مكان لأن الناس جمادات حركية البنية!

بقي الأثر في ذاتي محفوراً، لكن معجباً غدا طيفاً هلامياً عالقاً في الذاكرة...

يرفرف من بعيد،

يرفرف بلا فائدة.

السنة الأولى قبل حمدة

رحل معجب، وبقيت ذكراه ناقوساً يدق...

كان معجب أشبه بجدار حماية لي، لأني لم أتعرض لموقف كموقف خميس إلا بعد أن غادر دون رجعة، أحياناً نخال بأن هنالك أشخاصاً يحرسوننا من فرط قربهم منا، وفي لحظة موتهم تنتفي الثقة ولا يكون ثمة إلا الخوف. دمع أول أيام رحيل معجب كنت ضائعاً إلا من حلم... حلم أن يعود لأنه هو من قال لي يوماً بأسلوب الأطفال:

- قصاص ترى الحياة صغيرة مثل فنجان القهوة ويمكن نتلاقى بعدين.

لكننا لم نتلاقَ البتة. ربما يستغرب أحد ما أنّ طفلاً بهذه الرؤية، لكن ليس البشر إلا عوامل فكرية مبعثرة، وهذا ما كان يقوله معجب صدقاً. لم يكن معجب في نظري معلّماً وكفى، بل كان حالة فنتازيا عظيمة في حياتي. أتذكر أننا كنا نلتقي عصراً ندخن حد الامتزاج، كنا في غالب الأحيان نتشارك في سيجارة واحدة، وهذا ما أظنه السبب وراء تعلقه بأستار ذاكرتي. فأن يشاركك شخص ما في أنفاسك، فهو أنت في قالب مختلف. كان بين فترة وأخرى يطلب مني أن أقوم بحركتي المشهورة تلك، ويوغل في رجائي، فإذا تحدثنا كثيراً، وانتهى الحديث بيننا يقول لي "قصاص تكفى سوي حركتك هذيك". كنت أعرف بأنه يريد أن يضحك فقط، ولأنه كان مثل روحي كنت أقف متوازناً على قدمي، ثم أرفع يديّ حتى تتساويا بجانبي، وأمدهما كأنني أريد أن أطير، وأرفع رأسي إلى الأعلى، وأنظر عالياً إلى السماء، فأغمض عيني، ثم أرفع ساقي الصناعية، وبوادر ضحكة مغلوبة أحاول أن

أكتمها، وأبقى على ساق واحدة، ثم أستنشق الهواء رويداً رويداً، وبسرعة أبدأ بالضرب بساقي الصناعية في الأرض بقوة، أضرب بها، أضرب بها، إلى أن يسقط طرفي الصناعي، عندما أنتهي من هذه الحركة وألتفت إليه أجده يضحك بشكل هستيري.

لا.. لن أقول بأننا أحببنا ابنة جارنا، وكل منا يحاول أن يخفي حبه، ويتطهر أمام محبوبته، كي يكسب نظرة أو ورقة، أو حتى أن يكون حكاية على لسانها في مجلس الصبايا، لأن النساء هن من يرفعن أسهم الرجل حين يدلقن حكاياته على مستثمرات الحب من النسوة، ولن أقول بأن فتاة سيطرت علينا كباقي روايات العالم، لكن كنا نقف على أطلال طفولتنا بنضج الكبار. إن معجباً بكل بساطته وصباه، وأحلامه الصغيرة، غيّر نظرتي إلى الحياة ؛ لأنه علمني التدخين و أهدى إليّ مجلة.

صحيح أنني لم أنتبه لوجود المرأة في هذا الكون إلا متأخراً، وصحيح أن ما تأخر من حياتي لعنة مجتمع وامرأة، لكني مؤمن بأن الإنسان عقيدة للتفكير، والمرأة حالة نفسية موقتة، والمجتمع لحاف لابد أن يقينا برد العزلة. كنت بادئ الأمر أشعر بأني مختلف، وهذا خليط التناقض الذي عشته كما قال حماد مؤخراً. وأن يختزل إنسان ما حياتك في عبارة، فكيف يمكن أن تسير دون ارتباك؟

في يوم من الأيام وأثناء جولة السجائر في أحشائي مع معجب، كنا نتابع مباراة لكرة القدم أقيمت في ملعب حارتنا، كنت أنظر إلى معجب وهو بجانبي، فخطر ببالي أن شعوره وهو يشاركني في جلستي تلك بجانب الملعب نتابع هذه المباراة شعور المجاملة الكريه، أحسست حينها أنه لم يترك متعة المشاركة في اللعب إلا بدافع إنسانيّ يجنبني به الإحساس بالضعف إزاء نقصي. فالإنسانية إحساس خفي يدفع الإنسان إلى ممارسة الحياة بنقاء وطيب خاطر، إنها عندما تتملكنا ننظر إلى الأشياء بصفاء لا يشوبه أي شيء، فالإنسانيون كائنات تحتّم عليها وهي تتربع راحة فكرية ونفسية طاغية أن تدفع حياتها حوالة نبل. لكن... ما

أقسى أن تعيش حياة الخذلان وأنت تدرك قيمة الحياة الحقيقية! إنني حينما أنتقد كل ما عشته، فذلك لأنني عرفت معنى أن تحيا بإنسانية، فرؤية حياة الأناس الحقيقيين تجعلك صارخاً وصاخباً في وجه الحيوات الأخرى.

هكذا كنت أشعر حتى خرجت الكرة من الملعب متجهة نحونا. لم تكن قريبة بنظرة معاق يائس، ولم تكن بعيدة بنظرة سوي، كانت في منتصف المسافة التي يراها الأسوياء والمعاقون نقطة تحرك، وبدافع طفل حاولت أن أعيدها إلى الملعب، نهضت بعد أن استندت إلى طرفي الصناعي من جهة، وإلى كتف معجب من جهة أخرى، لأكون ضحية طرفين لا ينتميان إليّ مطلقاً، فكيف يستطيع الإنسان أن يعتمد على الآخرين في إنجاز حياته؟ عندما مددت قامتي، جاهدت في الوصول إلى الكرة بسرعة مملوءة حذراً، وحين وقفت أمامها عادت بي الذاكرة إلى أشياء لا يعرفها إلا المعاقون، وانتابني إحساس بالتآمر، وبكل قوة أردت أن أسحق هذا الإحساس، لأن الإنسان الذي ينظر إلى متعته دون أن يستطيع الوصول إليها إنسان عاجز مع سبق الضعف والتمسكن. حاولت ركل الكرة بقوة لأشتت هذا الشعور القميء، اعتمدت على طرفي الصناعي ورفعت قدمي اليسرى، وفجأة أحسست بأن الأرض تمور بي، فشعرت بالدوخة، وأخذت الأشياء تتماهى أمامي، وأصبح كل ما هو في حيز نظري أسود، وكمن يصحو من كابوس مفجع سقطت بجانب الكرة، لتكون أول سقطة لي في دنيا العجز، ولتستمر مشاهد السقطات، كبرهان بأن المعاق ظاهرة سقوط متكرر.

بكاء موحش، حينما تجد نفسك أمام الحياة خصماً لنفسك، لم أتعوّد أن أبكي أمام أحدهم، ولم أكن لأبين للناس بأن ذلك الطرف الصناعي الخائن عقدة لبس في مخيلتي، حاولت مراراً قبل هذه الحادثة أن أتعايش مع الحياة ببربرية الأسوياء لكن القدر كان أقوى من كل التصورات، وكل التصوفات.. إن ما يؤلمني على امتداد عاهتي، أنني لم

أخنع يوماً بطيب نفس مني، لكنه القدر السادي الذي يريد مني أن أظهر للناس بقناع الخنوع. دائماً كنت ألعب مع القدر لعبة التخفي لإطاحة أحدنا الآخر. صحيح أن الحرب أن تعلم أن خصمك قادر عليك في أي لحظة، لكنك تدرك بأنك تستطيع إطاحته أيضاً، أما أنا فكنت الخاسر دوماً، لذا كنت أسمي ما أحياه لعبة، لأن الألعاب لا تؤخذ بمنطق الجدية إلا نادراً!

بكيت ذلك اليوم، ليس لألم سرى في جسدي، إنما لأن الألم كان يتدفق من نفسي بعد أن عبأها. وأن تجد جزءاً منك يقبع جانبك في لحظة ضعف، فكيف نصف مشاعرك في تلك اللحظة؟ وجدت ذاك الطرف الخائن الذي لم يقو على تحملي للحظة، أنا الذي تحملته ربع قرن متخماً عجزاً، ربع قرن في بلاهة تصل إلى حدود البكاء.

كنت مثار دهشة وذهول فعلاً. وبينما كنت مستلقياً على الأرض، انطلق إليّ كل من كان في الملعب حينها ليس لمساعدتي، إنما لأكون وجبة فاخرة تلوكها أفواههم حين يعودون إلى منازلهم ويمضغون عشاءهم بلذة، وأخذوا يضحكون. آه كم كنت إنساناً بملأ المنازل بحكايات الدهشة والتندر والشفقة! وصلوا إليّ وأخذوا ينظرون إلى ساق بجانب صاحبها والضحك يملأ أشداقهم، كأول مشهد يرونه في حياتهم تجاه الخيانات الجسدية، لذا أعترف بأن جسدي كان منفى للأعضاء الصناعية. لم يجرؤ أحدهم على مساعدتي، اجتلبت الذهول والضحك على وجوههم وكفى، هذا ما كنت بارعاً فيه طوال حياتي. وبينما أنا كذلك لم أشعر إلا بيد معجب وهي تسندني من خلفي وتساعدني على لملمة أشيائي وأشلائي، وعندما رأى الجميع ينظرون إليّ بشفقة واستغراب وضحك صاح بهم:

- يا عيال الكلب هذا اللي تضحكون عليه أرجل منكم كلكم!

استغربت هياجه ذاك، لأنه لم يكن ثمة رد على هذه العبارة، فوحوش الحارة كانوا يملؤون المكان لعباً وخطيئة وتجبراً، لم أعرف

حتى تلك اللحظة ما كان يحاك خلفي بسخرية. ساعدني على تجميع نفسي وتركيب طرفي الصناعي، وساعدني أيضاً على تحمل أعباء التفكير في ضعف إنساني محض، وقدّم لي سيجارة. وقبل المغيب عدنا إلى بيوتنا، ومازال عالقاً بذهني سؤال ساخر، كيف لم يجرؤ أحدهم على الرد على معجب ولو بكلمة واحدة؟ وهل هم يخافونه لدرجة الإلجام؟ أم أن معجباً مارد مثلهم يهابونه بهذا الشكل اللافت؟ طافت بذهني أخيلة ردينة، بأن معجباً مثلهم يريد أن يحكم قبضته عليّ لقطف بكارة رجولتي في أي وقت لكن برضاي. طردت هذا التفكير اللعين لأنني كنت أثق به جيداً، وسألته:

- معجب أبسألك سؤال وتجاوبني بكل صدق، ليش ما أحد رد عليك في الملعب لمن سيتهم وأنت شايف إن نمر وعبدالمحسن كانوا موجودين؟

نظر إليّ وفي نظرته لمحت بأنه لا يود البوح بشيء خفي، صمتَ برهةً وسارعتُ في تأكيد سؤالي:

- أسألك بالله قول الصدق...

- باقولك ليش بس مو الحين..

- متى؟

- بعدين أعلمك...

بعد مضي فترة من الزمن، تناقل زملائي في المدرسة خبر رحيل معجب عن المدينة، ذهبت إليه مشغولاً بحزني عليه، وسألته عن صدق ذلك الخبر فرد عليّ قائلاً:

- ايوه بنتقل، أبوي جاه نقل لخميس مشيط.

وكالزجاج حينما يتكسر جاءتني ابتسامته مهشمة وقال:

- وراح تعرف ليش الشباب ما ردوا علي هذاك اليوم لمن سيتهم.

اختلط في داخلي الحزن والفرح، لم أعد أميز ما أنا فيه من مشاعر، هل هي بهجة أم حزن؟ بهجة أن أعرف شيئاً خفياً من حياته،

وحزن فراقه الذي يأكلني رويداً رويداً، حتى غدا تفكيري من الازدواجية شيئاً متعفناً. وشيء في داخلي يتقافز لماذا لم ينسَ معجب سؤالي ذاك رغم مرور زمن طويل على دلقه؟

***

إني وإن كنت قد قطعت عهداً لسره بألا أبوح به منذ ربع قرن تقريباً، إلا أن الأدب من الظلم أن نتعرى أمام قرائنا لتكتمل دورة الكتابة وننجب أعمالاً خرافية. لا أشعر بالخيانة بمسماها الحقيقي وشعورها الغائر في تأنيب الضمير وتقرير المصير، بل أشعر بالضعف تجاه أشياء نقية في حياتي حشرتها في قالب واحد مع أشياء دميمة مما يسمى عملاً أدبياً، أو نصاً روائياً.

***

بعد أن رحل بيومين، وبعد أن استوطنتُ حجرتي كفتاة في مجتمع محافظ تنسج أخيلة لفارس أحلامها، حتى أنني لم أودعه، لأنه كان فارس أحلامي وآلامي، طرقت أمي علي باب حجرتي ودلفت. كان في نظرتها شيء طفيف من البسمة قالت:

- وش فيه الحلو زعلان؟

- .....

- الظاهر إن معجب أخذك منا.

- .....

- لو عرفت أن معجب ترك لك رسالة وش تقول؟

وكمن انتبه لوجود خبر سار مخبأ في لوح القدر بعناية، بقي طويلاً هناك دون أن ينبشه أحد من الملائكة، وفي لحظة تمطى أمامه بتكاسل.

قفزت عليها متناسياً تلك الخشبة المعلقة برجلي اليمنى، وهي المرة الأولى التي أشعر فيها بأني سوي. فالإعاقة شعور نفسي ظالم في داخل كل معاق لا يتبدد إلا بوقع الأشياء الكبيرة كبر السماء.

- دخيلك عطيني إياها.

هكذا قلت من هول الفرحة، فاندهشت لتصرفي ذاك، وبينما الاندهاش يذرو على سحاها تماسيح جسة أخرجت أمي من جيب كرتتها ورقة مطوية بعناية ومدتها لي وهي تقول:

- لها يومان معي، أعطاني إياها معجب وقال "يا خالة تكفين لا بقراها إلا قصاص".

سلمتني إياها، كمن يسلم قدره في يد طبيب، وهي تحذرني من مغبة البقاء سجين الذكريات والماضي، وأنا أتساءل على وقع كلماتها، هل للإنسان من سجن سوى الماضي والذكريات؟ كل الناس حين يريدون الوقوع في شرك العذاب يتناولون الماضي وذكرياتهم ويقتاتونها بتلذذ. دائماً عندما يمضغ الإنسان منا ذكرياته يدخل في حالة من الذوبان، والتوهان، تذوب ذكرياتنا فينا ونذوب فيها، ونتوه في معمعة غياهبها، ونتلاشى إلى أن يصبح تلاشينا عذاباً رسمياً. كنت وأنا أقرأ رسالته القصيرة تلك وأبكي وفاء إنسان عاش نهماً، وحين رحل ترك كل أشيائه الثمينة بين يديّ ليبدأ حياة أخرى، فمنذ تلك اللحظة وأنا أشعر بأن معجباً ترك لي ماضيه لأذوب في عذابه، وتبرأ منه رسالة ومخاتلة، كدرس حياتي رديء لا يليق به أن يأخذه معه إلى حياته الأخرى. فثمة مواقف تبقى في ذاكرتنا طويلاً ليس لأنها دروس نفيد منها، بل لأن لها وقع الغباء والعرجة بين المواقف السليمة والمعافاة في الذاكرة، نشازها أبقاها عبارة عن مواقف ليس للمرء فيها حرية أن يتذكرها إلا بندم وحسرة. إن كل شيء يدفعك إلى الندم بقوة لا يستحق أن يبقى في الذاكرة طويلاً، لأنه سيغدو عفناً فيما بعد تنهرأ منه المواقف

الجميلة، إنه لابد أن يُمحى بسماحة القدر التي دائماً ومن خلال سلطتها تمحو ما تريد وتستأنف عملها دون أدنى معارضة، ودون أن يحق لنا اختيار ما نريد مسحه البتة.

عندما قرأت رسالته تلك تساءلت طويلاً، كم في حياتنا من الأنقياء أو الأتقياء كان الدنس فرضية لازمة في حياتهم؟ وكم هي ظالمة تلك اللحظة النجسة التي تجبرنا على ملاصقة الحيوانات؟ أليس الإنسان في المجمل إلا عمارة يسكنها التناقض البحت؟ فضحايا الحياة أكثر من سرد حادثة في منجز أدبي، وإنه لظلم أن تكون الكتابة بوصفها جوهر اللغة قادرة على نقد الجرائم ووصف الأحداث وتبيان الضحايا، فالحياة أكبر من شخطة قلم في يد إنسان يحب التدخين وشرب الشاي. أليس الكتّاب بجميع أصنافهم ظلمة وجبابرة؟ فكيف يصنع كاتب ما وهو تحت جهاز التكييف أو قرب المدفأة عذابات أناس عاشوا في هجير الشمس أو صقيع البرد وتعذبوا كثيراً؟ لا أكذب إن قلت إن كرهي للأدب في بعض الأحيان نابع من تفكيري العميق في الأدباء، أولئك الذين يصنعون الأحداث بهالة كبرى تُضحِك القارئ أو تُبكيه. لكن أكثر ما كان يؤرقني في حيرة الكتابة أن أُبكِي أحداً ما في أي بلد في هذا الكون لمجرد سطر كتبته أو كلمات رصفتها، لأن الكتابة كتمهيد الطرق تحتاج إلى رصف قبل نشرها، والكلمة من العهر بأن تقلب أمزجة القراء والمتلقين.

عندما خرجت أمي أغلقت الباب وراءها بإحكام، وتناولت رسالة معجب وبدأت أقرأها بدقة.. كتب بالحرف الواحد:

" سامحني يا قصاص، لأني خبيت عنك الحقيقة اللي كنت أخاف إنك تكتشفها في أي يوم، سؤالك هذاك اليوم بكاني، لأني صرت وسخ وأنا أمشي معك كل يوم وأنت ما تدري عن حقيقتي، السبب اللي ما خلا شباب الحارة يردون علي هذاك اليوم أنهم بخافون إني أزعل منهم، وما عاد أطاوعهم في اللي يبونه، لأني كنت أنبطح لهم كل يوم،

وصدقني إني حبيتك مثل أي واحد من أخواتي، علشان كذا علمتك بالحقيقة، قصاص لا تزعل مني لأن الشيء هذا والله كان غصبا عني...

أخوك: معجب*

***

بعد زمن طويل جداً، وبعدما صارت حياتي لعنة امرأة، وبعدما أيقنت بأن الأوفياء قلة جداً، تذكرت معجباً، نسحبت أقصوصة ورق، وكتبت عليها بقلم الرصاص: ما هي الحقيقة؟ أليست الحقيقة هي الجانب الخفي من حياة كل شخص منا، ومن حياة الأشياء - أي الأشياء - فهي تلك العتمة التي لا يحبذ أي شخص أن يصل إليها الضوء؟! والباحثون عنها أليسوا مخلوقات خرافية المبدأ؟! لكن لماذا خبأ معجب عني قصته مع شباب حارتنا؟! هل كان يفترض أنني أكره التصالح مع الأشياء الدميمة؟! أم أنه لا يريد أن يكون همزة وصل لذلك العالم الذي خذلني بكليته ليصبح الكون بأسره في ناظري موطناً للخذلان؟!

***

كل ذلك النبل كان يحمله طفل لم يبلغ سن الذكورة بعد! إن لم يكن نبلاً فماذا يمكن تسمية أن يتكتم شخص ما على معاناته وامتهانه في جسده عن صديق له، وحينما يرحل يضع ذاكرته الملأى بالألم والحزن بين يدي صديقه وفاءً؟! ألم يستطع أن يرحل بصمت كما عاش معاناته بصمت؟! فكم نحن ظالمون لأجسادنا حين نجمع فيها الأضداد باحتراف من نبل ونجاسة! بقيتْ معي هذه الرسالة ربع قرن من الزمان، وبقيت

لهذا السر قدسية في نفسي إلى أن جاء الأدب وبدد كل القدسيات، ولم يعد حزن معجب سراً أبداً. فما أقواني وأنا أبعثر حزن هذا الإنسان على دفتر أحمر فاخر، وأصوغه باحتراف كاتب! وهل يستطيع الكتّاب - أياً كانوا - أن يسردوا معاناة الشخوص كوقوعها حينما يكتبونها على الورق؟!

حرقتني تلك الرسالة كثيراً فحكيت لأخي محمود ما يساورني تجاه "نمر" و"عبدالمحسن" وطغيان عهرهما الذي تفشى في حياة حارتنا ولم أذكر له ما صدر منهما تجاه معجب، لأنني كنت وقتئذ وفياً جداً، فقال "هذول كلاب لا تحاول تقرب منهم!" لكني أصررت على أن أغامر بمعرفة الحقيقة كاملة، وحاولت التقرب من نمر كثيراً، صرت أمشي معه وأنا لا أعرف بالتحديد من انتهك جسد معجب، أول الأمر لم يصدق أنني أحاول التقرب منه، لذا فقد قطع شوطاً كبيراً عليّ حينما تقدم لي، فقي غضون أيام أصبحنا صديقين حميمين!

لا أكذب إن قلت بأنني كنت أقشّر اليقين المطلق بأن نمراً كان يتقرب مني بغية أن يطأ جسدي بقذارته، ولأنه بلغ الحلم، كان يريد إثبات جدارة بلوغه، على حساب أحلام طفل يبحث عن نصف الحقيقة! إننا لا نستطيع أن نخرج من عتمة الحقيقة إلا ونحن فاقدون جزءاً من أعمارنا! لمّح لي كثيراً، لكني كنت أتجاهل تلميحاته بأسلوب صبي متغابٍ خشية أن أخسره، ويضيع نصف الحقيقة فاك، إلى أن جاء اليوم الذي صرح فيه برغبته علناً!!

صدقاً تركته خشية أن أكون ضحية بحث، ولأنه كان أسطورة في حياتنا، هربت ولم أعد أماشيه قطّ، وبعد مرور فترة من الزمن، ولأنه كان يتباهى بمصاحبتي بين رفقائه، غدا تشرقنا نقطة ضعف له بين رفاقه، وأصبحتُ نبزة يُعيَّر به إذا اجتمعوا، كان إذا التقاني يهددني بأسلوب رخيص بأنه سيغتصبني، لأنني لا أستطيع أن أقدم شيئاً إزاء نفسي، كل ما سيفعله سيركل طرفي الصناعي لأسقط ويأخذ أغلى ما أملك، وأفضل

ما كان يؤمّل. فعندما لم يجد نمر مني إلا البعد، حاول كثيراً التودد بطريقة الطغاة، بتلك الآلية التي يمتهنها علية القوم، حينما يجدون أنفسهم محاصرين لكنهم يراوغون بطريقة صماء توحي بجبروتهم، إلى أن جئته يوماً وقامرته في صداقتي:

- تبي نرجع أصحاب مثل أول قول لي سالفة معجب!

- أي سالفة؟

- سالفة معجب أنت تعرفها!

قامرته لأنني على ثقة بأنه يعرف القصة، فإن لم يكن هو الفاعل، فسيأتيه الخبر من رفاقه لأنهم سادة الحارة. في الحقيقة حكى لي نمر القصة رغبة منه في اجتذابي، حاول تطهير نفسه أمامي ليظهر كائناً ملائكياً طهرانياً، ولم أناجأ لأن هول المفاجأة كان أكبر عندما قرأتها على لسان معجب، فاضمحلت المفاجأة ليحل محلها التقزز والنفور. فكل الصدمات في حياتنا تبدأ لتنطفئ، إلا صدمة أن تكون فا بعد ناقص، فهذه الصدمة طويلة الأجل، لا تمحى البتة. كان يحكي لي القصة بأسلوب الضعف الكامن في أحشاء الإنسان، فالمرء حينما يجد نفسه فريسة شهوة يضعف حد البكاء والمسكنة. فحين تكون على طرفي نقيض، ضعفاً وقوة، وتحاول تبديد من حولك فحتماً أنت طاغية! وعندما نرتهن للطغاة فليس لنا إلا الركوع وتقبيل الركب. لأن في حياة كل منا طاغية أخرق!

***

هو يوم واحد فقط لم أهرب معه...

في هذا اليوم قدحت الشرارة الأولى للخطيئة، فالشيطان يتظر لحظة تلاشٍ ليغافلنا بسمومه، ويمضي تاركاً خلفه إنساناً أشبه بالفلاة تحمل في جوفها كل قبائح الدنيا وغرائبها، لأننا في تعاملنا مع الشيطان نكون

عنياناً. هرب معجب، وهربت معه كرامته، كان يجلس خلف سور المدرسة كعسّة يدخن بلذة ويتفقد أحوال ضياعه، عندما تقدم إليه "عبد المحسن" الذي كان يملك قامة الثيران والفيلة، كان أقرب إلى حاويات النفايات الكبيرة، فوقف على رأسه متسائلاً في تهكم:

- وين خويك المعزق؟!

سكت معجب ولم يرد، كان أشبه بمجموعة خالية من العناصر، إلا الغضب، رد عليه عبد المحسن بنبرة صدامية قارصة:

- الظاهر إنك زعلت على هالمعوق، شف والله لو مهوب معوق كان ركبته!

عندما سمع معجب هذا الكلام قفز في وجه عبد المحسن كالممثلين السينمائيين، وعلى محياه رسم القدر غضباً لا يُجارى وقال:

- بدري عليك، وعن الغلط.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يقذف فيها معجب رداً على هذا الثور، منذ وعينا ونحن نركن إلى التلاشي في حضوره، فنحن من أعطاه حق اللجوء إلى أجسادنا إن كنا قد أسأنا إليه أو لم نُسئ، نحن السبب في كونه في حياتنا حالة أشبه بالموت. فالجبابرة، والطغاة رسوم أحادية الأشكال على مر السنين! أمسك عبد المحسن بمعجب من طرف ثوبه، وصاح به وهو رافع حاجبيه إلى الأعلى دلالة الاستغراب، نطق أحرفه بسخرية مرّة:

- يا ورع، أنت ترد على أسيادك؟!

وكمن تذكر شيئاً مهماً أردف:

- أنت الظاهر تبي من يركبك!

جره من ثوبه، كشاهد له من أهله، فلم يق من معجب آنذاك إلا صوته ودقائق شرف. رحلت سنوات الكرامة، و كالعمر خرج معجب يومها فاقداً شيئاً عزيزاً من نفسه، شيئاً لا يمكن أن يعود أبداً. من بعد تلك الحادثة، اعتاد أسياد، أو أوغاد حارتنا أن يكون معجب متنزهاً للذة

بكلمة واحدة "تعال وإلا راح نعلم قصاص"! وأن تزايد بكرامتك وشرفك في سبيل ألا نخسر صديقاً، وفاء لا مثيل له! هكذا انتهت حكاية معجب، وهكذا ويكل فظاظة رحلت كرامة في ظرف وفاء إنساني ونبل، لكن ما يجعلني أغرق بكاء، أنني كنت حلقة وصل بين معجب وغرماه، وهذا ما يؤلمني إلى هذه اللحظة.

شعور خفي ليس له نعت، أن تكون سبباً في تكسر حياة أحد ما. فعلى بساطة هذه القصة ورداءتها أيضاً، كنت أنا المتألم منها بشدة، أنا الذي لم يخسر شيئاً مما حدث ولم يكن يعرف عن أي شيء، لكن الكتابة فعلاً قصور حي في إدراك الحس الآخر من أي مشهد؟! كيف يمكن قياس عذابات إنسان في أحرف ربما لم تشترك فيها حروف العربية كلها؟! منذ أن انذلقت آخر كلمة لقصة معجب من فم نمر، قررت اعتزال الحارة، أدخن وأقرأ فقط، وها أنا من لخيانة أحاول أن أنتصر لنبيل عاش ولا أدري هل مات أم لا بكتابة منجز أدبي! وبقيت معتزلاً العالم من حولي، أربت ظهر حزني بلطف، إلى أن هاجرنا من تلك المدينة...

ستة حمدة

وصلنا إلى القرية...

كان الطريق إليها وعراً، بالقدر الذي بيّن لي مدى وعورة عقول أهلها، بقعة منزوية في جنوب وطن، تلوك حيانها وكأنها تعيش بمعزل عن الناس، هذه القرية التي تحب أن تخالف منطق البشرية بانزوائها، بعيدة كنجم هارب، وقبيحة كالنيازك حين تخرج عن مداراتها، بعد أن عشت فيها فهمت لماذا حالة تأخر القرى في كل شيء، إنها عبارة عن مسالك صعبة الوصول، ومنظومة مستعصية على الفهم، لأن القرى تُراكِم فيك الغباء والجهل والزلل.

الآن وبعدما وصلت بعض الخدمات من إسفلت وهاتف وبُعثت الإنسانية من قبرها، أتذكر كيف وصلنا؟ لم أكن أعتقد - وقد كنت متغابياً مهووساً بحب القرى - أن هنا أناساً يعيشون، كانت القرى قطعة من الجحيم، لم أتصور بأن الجبال ستكون موطناً للإنس، كانت الجبال منذ صغري مأوى الوحوش والذئاب والسباع، والمخلوقات الفائضة عن الحياة، لكن مع مرور الوقت أيقنت بأن الحياة في فرضيتها اللازمة تعطي الناس في معيشتهم جانباً أقرب للوثوق به من تصنيف البشر عامة. هل كنت جاهلاً بالدرجة التي تجعلني أحب قرية لم أطأها بعد؟ أم أن غباء الطفولة المبكر ودافع التغيير وحمى الحرج تجاه معجب أبقتني في فضاءات أخرى من التعلق؟ إنني حينما أفترض حبي لقريتي قديماً، أعزوه لمرحلة ما قبل الوعي للأرض والتضاريس، لأن الإنسان مسكون بحالة من حب التغيير على امتداد عمره. مبررات عدة غلفت بها قرار أبي هجرته القرية التي طالت خمسة عشر عاماً. خمس عشرة سنة لم تكن

لتعطيني درساً إلا بعد أن مات أبي، فلم أكن أفهم معنى أن يهاجر الإنسان ويترك وطنه للأوغاد مدة عقد ونصف العقد، إلا حين واريت أبي تحت التراب.

لكنها هي الحياة، تعطينا رؤى مختلفة تجاه حياة الناس حينما يموتون! كنت أتساءل دوماً، لماذا لا نفكر في حياة أي شخص منا إلا بعد موته؟! هل للموت قدسية تضفي على الحياة رؤى أخرى؟! أم أن الموت بحد ذاته درس؟! وهل الفقد معلم حقاً؟ وإذا كنا نؤمن بالموت كمبدأ فلماذا لا نفكر فيه أثناء دوران عجلة الحياة؟! ولمَ لا تكون الحياة التي تفصلنا عن الموت حالة تفكر مستديم؟! لا أدري، ولا أريد أن أرهق أحداً بكثرة الأسئلة، لكن الحياة من مبدئها الأزلي سؤال كبير ولغز محير.

لم تكن أسرتنا كبيرة كباقي الأسر في عائلتنا، نحن الأسرة الأقل عدداً بين أعمام أكثروا الأبناء، إن عائلتنا تشبهني إلى حد كبير، تحمل من التناقض حجماً أكبر، ولها صبغة على أبنائها، فهم متناقضون من فرط تجمعهم. أن تحمل في شخصيتك ازدواجية التشابه والتناقض، فأنت ظاهرة قدرية. هذا التناقض نشأ داخلي منذ أول يوم عرفت فيه قريتي، وأعمامي، كان لأبي شقيقان، وابن عم هو عمي أبو نضال، كنت أسمع بهم كأطياف وخيال وكنى، إلا عمي أبو نضال فقد رأيته في أول يوم لي في حياة النقص، وعندما سألت أبي عنه فيما بعد قال "هذا ابن عمي، وهو يعيش مع أسرته في القريات"، وبعدما كبرت وعرفت القريات، أيقنت أنه متعرف لأن من كان موطنه الأصلي جنوباً، فهجره ليبقى شمالاً، هو كائن لا يعرف الوسط أبداً، فعندما رأيت أشقاء أبي على الطبيعة في أول يوم لي في القرية، أيقنت أن الحكايات دائماً تشوه الطبيعة، وتلون الحقيقة، أحد أعمامي أنجب الكثير من الأبناء، بينما الآخر بقي عزباً ولم يتزوج مطلقاً!

كنت وأنا أنظر إلى تلك الجبال ونحن نعبرها ببطء أرسم لقريتي لوحات جميلة، فبقدر ما كانت الطبيعة تسحرني، كنت مأخوذاً بعاطفة

عظيمة هي السبب في انهياري وانهزامي، نعم لقد كنت في الحياة عاطفياً أسير في الحياة بساق واحدة على أخيلة أرسمها بنغم. البيوت الطينية والطرق الممتلئة بالأحجار هي أول من قابلني من بوادر البشر، لأن الأمكنة دائماً تفصيل إنساني مرتب، والمنازل ذاقة بشرية، عندما وصلنا كانت الساعة الثالثة عصراً، وكان المنظر أكثر جمالية، كان توقيت أبي لوصولنا محكماً، لأن الأوقات أرزاق مقسمة بين الناس، اختار هذا الوقت كي يكون حضور البهجة في الاستقبال أكثر. توقفت السيارة عند مدخل بيت طيني، كانت أمامه ساحة واسعة وممهدة، وكان أمام هذه الساحة مطل على جرف له من ازدواجية النظرة بين الجمال والقبح بقدر ما لذوي ذلك البيت من التناقض، عرفت فيما بعد أن هذه الساحة أمام هذا البيت تستحيل منتجعاً للرقص إذا تزوجت إحدى بنات ذلك البيت الذي معظم ساكنيه نسوة.

كنا نحمل أغراضاً عتيقة وصغيرة وأحلاماً أصغر، وفرحاً طفولياً بائساً وحميمية لقاء، نحن الذين اقتطعوا من عمرهم آلاف الكيلو مترات في البحث عن وصل رحم، ولا أكذب إن قلت بأنني كنت ضحية وصل! فعندما تراهن على نفسك بأن تكون ضحية، فالأجدر بك ألا تلوم على الحياة لأنك لا تستحقها! لأننا حين نتكسر، نؤرّل الأحداث من دافع انكساري دائماً!

استقبلنا أمام ذلك البيت الطيني رجل له وقار العمر، لأن طول المكوث في الحياة يسم الشخص بالوقار، وكأن الزمن فرشاة تزخرف معالمنا، كان رجلاً أشبه بخرافة في نظري، كنت أسمع به، وأسمع حكايات تحكى عن هيبة ورهبة عم لي، عم لفظته الحياة في جنوبها، حيث القرى والعدم. وأن تسمع بالأشياء أو الأشخاص، ثم تجد نفسك أمامها أو أمامهم مباشرة في لحظة ما فحتماً ستكون في المسافة الفاصلة بين الحلم والحقيقة! حقاً باهر أن تحظى بالوقوف أمام الحكايات مجسّدة، لكن أن تموت كل شخصيات تلك الحكايات مع الزمن فستدرك فيما بعد بأن كل ما كان يحكى مجرد كلمات تقال وقت الفراغ، لإضفاء

هالة على الفراغ ذاته! فلم أكن أتخيّل قط أن يتكسر ذلك التمثال، ويفتت.

كان له من العمر ستون عاماً، له لحية متدلية من أسفل ذقنه بدون أن تتقادم وتكتمل على صدغيه، كان متوسط الطول وذا سمرة دكناء، له أنف ذو طرف مدبب، تعانق أبي وإياه كثيراً، كما خذله ذلك اليوم كثيراً إزاء تلك القصة رغم أنها كانت مرة واحدة فقط، لأن بعض الخذلان يكون له وقع الأكثرية على النفس. فما أحوجني إلى لغة غير هذه لأصور فكرة أن تُخذل في حياتك مرة واحدة، تكون بمقدار حياتك نفسها! إنني لا أرفض فكرة تداور الحياة، لكنني أرفض أن يحوّر الإنسان مبدأه ليصبح قناعة مهترئة! فكل المبادئ في هذا الكون علامات فارقة، لا تتغير إلا إذا مات الإنسان، أو ارتد عن عقيدته!

سلّم علينا ببسمته الساخرة تلك، كنا نقبّل يده بلهفة الوقوف أمام التماثيل في متحف أثري، لثمنا يده بحب، وأقبلنا عليه بعشق، وبقيت أنا منزوياً أنتظر طي قيد حزني لكنه لم يأتِ. فعندما وقفت أمامه وعرّفني أبي إليه، نظر إليّ بإشفاق، بعدما تفحص طرفي الصناعي بعين ذابلة ونظرة متسارعة وقال "هلا بقصاص، فعلا أنت قصاص..."... ترك مسافة عظيمة بحجم ألمي، ثم وضع آخر هذه المسافة إمضاء شفقته ورحل. قال "الله يحييكم"!

لا أحب أن أكون غبار شفقة، فبمقدار ما ولّدت الدهشة في هذه القرية النائمة إلا أنني كنت موطناً للشفقة. أعطاني ظهره بحضور، فتألمت كثيراً بغياب، وكأنه يحكم على حزني غيابياً بأني ناقص، وضعيف! دخلنا إلى المنزل، والكلمات تسبقنا:

- يا ولد: عمك وأهله جاؤوا، تعالوا سلموا عليهم.

لم يكن عمي "مصلح" هذا بحجم الدم الذي كان يخيل إليّ، وكأن دمه مسرطن، وقدسية الترابط لديه متخثرة، فالدم رباط إنساني بحت، لا تبدده المواقف. دخلنا ذلك البيت الطيني. كانت باحته كبيرة وواسعة، مملوءة تراباً وحصى، وكأن أهله عقدوا اتفاقاً ضمنياً مع

الأرض، وعدم إدخال امتداد إلى مستوطنات التراب، انقسم البيت إلى قسمين بينهما جدار طيني فاصل، وكأن كلاً منهما بمعزل عن الآخر، في كل قسم عدد من الغرف ودورات المياه، ومطبخ. عرفت فيما بعد بأن هذا الجدار كان بمثابة حدود سياسية مرسومة بعناية. إذ كان فاصلاً خطيراً بحجم التغير الذي طرأ على أهل عمي، وكأنهم لا يمت بعضهم إلى بعضهم بصلة، حين وضع هذا الفيصل فصل الأنفس، والقناعات، والتفكير، والانتماء كإخوة.

كان عمي متزوجاً امرأتين، إحداهما تسكن الشق اليميني مع أبنائها، والأخرى تقطن الشق اليساري مع أبنائها أيضاً. والأشياء التي لا نحيا إلا بحميمية القرب وحين تتفرق تَؤول فيما بعد أشياء بالية لها مفهوم الخردة. كانت صورة ذلك البيت قبل أن أراه تتنامى في مخيلتي كثيراً، وعندما رأيته بدأ ينهار ولكن بالمقدار الذي بدأ ينهار في داخلي، أعيد بناؤه بنظرة فتاة! فحين تنظر تلك الفتاة أو تبتسم، تغدو مرجعيات الأشياء أكثر نقاء.

وكما عشت آنذاك خمسة أعوام على طرف إعاقة، عندما رأيتها سكنتْ في إعاقة الطرف! بعد لحظات بدأ يخرج من حجر بيت عمي مصلح أشباح ناس، نفضوا النوم عنهم كشهوة، لاعنين في دواخلهم الزيارات التي تكسر الشهوات، تقدموا إلينا كجراء رأت أمها بعد رحلة قصيرة بحثاً عن قوت، انتشروا حولنا مكونين دائرة، منهم من يسلم ومنهم من يبتسم بحب، ومنهم من أوغل في النوم وأخذ يلعننا بنظراته، لأننا وبكل بساطة أو وقاحة قطعنا حبل نومه السري، فالإنسان لا يستطيع أن يعاقب من يحترمه إلا بالنظرات فقط. ما أوجعني يومها أن نظرات أبناء عمي اتفقت على الدهشة في حضوري، كنت أرى الاستفهامات على شفاههم في صمت. كنت أرى الكثير من الأسئلة تقلع من نظراتهم وتحلق أمامي، وأنا لا أستطيع إزاءها إلا الصمت، ودائماً الإجابات التي تخفي منطقية السؤال، إجابات بذيئة! بالبراعة ذاتها في تواطؤ القدر على بتر ساقي، كانوا بارعين في الاقتطاع من جسد الشفقة

قطعة ومضغها أمامي. حين انتهت مراسم الاستقبال، سحبني ابن عمي الأكبر من يدي وهو يقول:

- قصاص تعال أوريك الديرة.

لم أكن مغفلاً لحد أنني افترضت فيه الطهر، بل كنت على حدود اليقين بأن ذلك العضو سيكون وحده وجبتهم الكلامية هذه الليلة، وسأكون مسمعة لسؤالهم مدة طويلة. خرجت من باب البيت أدفع أمامي ذهول المرحلة والوعي، وأجر خلفي إجاباتي الاستباقية عن أسئلة تعودت وجودها أمامي في أي مجتمع لا يعرفني، وكأنها عيد يزاولون استظهاهم أمام أسيادهم بآلية صرفة.

بالرغم أن الجو كان رائقاً كعادة الطبيعة في فرض هيبتها الجميلة في القرى، إلا أني شعرت بالاختناق، لأن الإنسان حين يجد نفسه في موضع استجواب، يتقلص الكون في نظره إلى أن يغدو زنزانة قذرة. ولا أنكر أن حياتي مذ غادرتني ساقي وانسحبت بهدوء صارت أشبه بالزنازين المعتمة، إلا حين كنت في نقاهة حبي. ذلك الحب الذي بدأ بنظرة وانتهى بنظرة، لأصير فيما بعد كائن العتمات المحدبة! وما أقسى أن يعيش المرء حياته على نظرات دون اشتراك حواسه الأخرى!

بدا لي ابن عمي ذلك اليوم مدعياً بدائياً لا يحسن عقد ربطة عنقه، خرجنا، وتسلقنا ربوة بجانب بيتهم، بجهد بذلته مضاعفاً كي لا أكون موضع تندر إزاء خفتهم في الصعود، كانت هذه التجربة أول رحلة للصعود في حياة القرية، لأكتفي فيما بعد بالطرق المستوية والمعبدة، لأن من هم مثلي أقل بكثير من اختبار قدرتهم على مجاراة الجبال والتلال والمرتفعات البسيطة. كانت ساقي آنذاك حجر الزاوية في تعثري وتبعثري، وتأخري، وانهيار ذاتي. وكأول سؤال اعتدته سألني ابن عمي:

- قصاص كيف انقطعت رجلك؟

صدقاً، لم أكن أحتاج لمن يذكرني بوجود جعبة لنقصي أحملها

معي دائماً، ولم أكن في درجة كبرى من التماسك إزاء ذلك السؤال. أحياناً تكون الأسئلة مثل الحجارة، تُقذف علينا ونحن لا نستطيع تفاديها إلا بجرح غائر، ودائماً يفقد الإنسان توازنه أمام الأسئلة الحادة. أليست الحياة سؤالاً عظيماً، والإنسان لغزاً، والكون أحجية الله؟! كنت أقف إزاء هذا السؤال ببلادة حتى اعتدت دلق الأسئلة.

***

اذكر حماداً حين قال لي:

- لماذا تبالغ في تربية حقدك على هذا المجتمع؟!

بعد برهة نظرت إليه، كان شفافاً في طرح سؤاله هذا، ما أتعبني يومها أنني كنت أمام الإجابة أقف متخاذلاً، إما أن أجيب بصدق، وإما أنْ لا أجيب. ودائماً أقف تجاه الصدق موقف الأخرس، لأن النظر إلى مجتمع عاهر امتحان صعب للإجابات!

قلت له:

- إذا كان أحدهم يستر أهله، ويتمنى عري كل نساء العالم من حوله فماذا يمكن أن نسمي ذلك؟!

لم أكن أنتظر منه إجابة مطلقاً، لأن بعض الأسئلة هي أجوبة في حد ذاتها، وأحياناً يكون السكوت عن السؤال، وتركه بلا جواب، أفضل من رتوش إجابات لا قيمة لها.

أكملت:

- نحن مجتمع دلل عهره كثيراً، حتى تسامق العهر في دواخلنا ولم نعد قادرين على الوثوق بطهرنا إزاءه فطاوعناه، والإنسان الذي لا يحترم عهره لا يستحق الطهر كقناعة، وإذا كنت عاهراً فيجب أن تنتمي إلى العهر كقناعة كبيرة تمارسها بفضيلة الرذائل، لكننا لم نستطع أن نكلف نفسنا عناء التطرف إزاء قناعاتنا، نحن شتات، لذا كان مجتمعنا يكدس

عهره في داخله ليلاً، وحين يأتي الصبح تتطهر أمام الناس وتتشدق بالطهر كفضيلة إنسانية عظمى.

كنت أعرف أنه استغرب كلامي يومها، لكني استطردت:

- إذا كان الرجل يدعي الطهر وحين يدخل الليل يحرس ردفي زوجة جاره أو أخيه، فكيف يمكن أن يخرج أبناؤه؟! وإن كنت أصاحب أحداً ما كي أدخل معه إلى بيته لسبب أني أطمح لرؤية أخته فهل يمكن أن أنتمي إلى الصداقة أصلاً؟! إننا عار على المثل يا صديقي، إن كنتَ ممارساً حقيقياً للعهر، فلا داعي أن تتملص منه على حدود شهوة، إن شهواتنا يا صاحبي التقاء بين الغباء والضعف، فيها تتحور الأشياء - كل الأشياء - إلى شيء باهت ورمادي، لأننا نقتات المثل صباحاً لنستفرغها ليلاً قيئاً قذراً ومقززاً.

***

لم أنعم منذ دخولي إلى القرية بلحظة صدق حرة. كانت عاهتي سبباً في رؤيتي لأشياء لم أكن لأراها لو كنت سوياً، لأن المعاق في نظر الناس ليس رجلاً، إن عاهته تسبغ عليه قاموس المخنث، والعنّين، لكني احترمت هذه العامة ولذت بالصمت. وكأي متهم بريء من تهمته تجرعت مرارة محكوميتي وحلقي ينزّ دم قهره.

عندما تداركتُ سؤال ابن عمي غرم الله ذلك اليوم، هجمت عليه بوابل من الكلمات بقدر ما كانت تحمل من الحيادية، كانت قارصة كزمهرير شتاء يوم شمالي، وقفت لحظتئذ موقفاً متوازياً مع إثبات وجودي، تلك النقطة الدقيقة جداً من التصرف كانت مبرراً لأن أكون فيما بعد قصاص المتمرد والمتمردون هم دوماً أبناء المعصية.

ما أوقحني ذلك اليوم فعلاً! كنت أبلل فظاظتي في مستنقع تلك

القرية القذر، عندما سألني كان يخيّل إلي بأنه يلزمني جهد مضاعف من التبرير واختلاق الأعذار، شعرت يومها بأن الساعة التي عشتها لحظة البتر تعود، لتغدو الأشياء من حولي مائية الرؤية، لأن ذكريات الألم في النفس لها رنة لا تتغير، توقظنا من سبات تناسينا. فثمة لحظات من الألم يكون التروي فيها مبتذلاً حد الاستفراغ! كنت لحظتها صدامياً جداً، وبعد تلك الحادثة لم يجرؤ أحدهم على فتق رتق ألمي، إلا حين يخلو بنفسه بعيداً عني، حين يتداخل مع الخيانة. فحين تكون الخيانة والضعف على مستوى واحد من الدقة، فالأشياء عندها تصبح أعمق من الجبن بمراحل! نظرت إليه، إلى أن انعدم من أمامي وأصبح الفناء مسيطراً على الصورة وقلت:

- يا غرم الله ما أبي أكون معك قليل حيا، لكن لا تفتح معي هالسيرة مرة ثانية!

هل ثمة ألفاظ في أبجديتنا هي فعلاً من الحدة بأن تُميت؟! أم أن الإنسان من الضعف يموت بفعل كلمة؟! لا أدري لكن هذه الجملة على صغرها كانت مبيدة، كالحشرات كانت تساؤلات غرم الله آنئذ، بدأت تتنافر في داخله هرباً، وأبيدت في نفسه ولم يقلها فيما بعد قط. أصبح غرم الله بعد هذه الحادثة صديقي الودود.. أصبحنا نعيش معاً، واستحال مع الأيام ساقي المبتورة، التي أتكئ عليها وأهنّ بها على نقصي، وفي درجة عميقة من التناسي تخيلت أنّ الله زرعه تحت ركبتي ساقاً حية. لكن الأيام تدور دائماً، ومع دورانها جاء حماد كالمطر، ليبعثره من مخيلتي كطفل يعبث بمكعباته. بقي غرم الله أخيراً، تتفاً تلتقطها الذاكرة، بصور مشوشة، حينما أتخيل الخطيئة! فالخطيئة ليست إنساناً، إنها شيء يُدخِل في النفس الحسرة والندم دائماً. هكذا عاش يافعاً بعهر، وعندما وصل إلى الخمسين من عمره غداً خمسينياً بفجور. وأن تكبر وينمو الفجور في داخلك فأنت في الحقيقة صومعة للرذيلة...

ستة حمدة

بعدما سمع غرم الله صداميتي إزاء سؤاله الوقح الذي قاله لي، سكت وحاول كثيراً أن يتحايل على الحديث بطرقه لمواضيع أخرى...

مكثنا فوق تلك الربوة مدة، نسترجع الغياب بأحاديث مراهقين، كان الماضي آنذاك عمود الحديث، وكل القصص والعبر والحكايات نسردها ونحن نعجن أحيلتنا باحتراف الفرّانين، فما أسهل أن نصبغ الأحداث بكلمات لا واقع لها، إننا حين نردي الكم الأكبر من الحوادث، نقتل عظمة تلك الحوادث، ولا نحسن تقطيعها برحمة. إن كل شيء نشأ عظيماً ينبغي أن يموت عظيماً حتى المآسي، فالمآسي حينما نذكرها لابد أن نسمها بميسم العظمة، لأنها عندما أتت بعثرتنا، فمن الظلم أن تتقزم مآسينا عندما نذكرها في مرحلة متأخرة من التذكر، لأن وقع الأشياء دلالة على ذاتها. وكذا الحزن، إن من لا يقدر حزنه، فهو في الحقيقة لن يقدر ساعات الفرح في حياته إطلاقاً!

كنا جالسين متقاربين، والأحاديث تتربع مجلسنا ذاك، حتى أقبل علينا "يحي" ابن عمي الأصغر، كانت نظرته مسمرة على ساقي المغلفة بقطعة بلاستيكية، فهل ثمة أماكن وأزمان وأشخاص، ودواب، وجمادات لا تعرف معنى المأساة فعلاً؟! وهل هناك أناس لم يتذوقوا مرارة المصيبة؟! وهل من الممكن إيجاد كائن بشري خال من فوضى الحياة؟!

اقترب مني يحي، ونظرته معلقة بذلك الجزء الواهن من جسدي، صحيح أنه لم يقل شيئاً يدفع التقزز من ذاتي، ويرغمه على الخروج كلاماً بذيئاً، لكن نظرته تلك شلّت نفسيتي، وقذفتني في عراء التفكير حجراً صلداً! بدأ توافد أبناء عمي عليّ فوق تلك الربوة وكأنني حدث

كوني خارق، كنت فعلاً أداة لهدم المسلمات في حياتهم، وجالباً لكل الغرائب على طبق من السير والعري. كان باب بيت عمي قبالتنا، لا يفصلنا عنه إلا مسافة الارتفاع فوق تلك الربوة، وكأننا نترصده مثل جواسيس. ربما لم يكن في حسبان عمي أن يجعل ذلك الباب أمام تلك الربوة، وربما لم يكن بملك بعداً استخباراتياً ليكون الباب أمام تلك التلة مباشرة، إلا أنني أيقنت بأن مواضع الأشياء أياً كانت لا تأتي مجاناً ومصادفة أبداً، في تلك اللحظات ونحن غارقون في همّ أحاديثنا وحكاياتنا رأيت شبحاً خلف الباب من بعيد. لا أدري لماذا خيل إليّ بأن ذلك الشبح يسارقني النظر، أحكمت إغلاق تصرفاتي وبدوت أكثر اتزاناً، وشيء في داخلي يتكسر ليخرج سؤال كبير: لماذا إذا كنا في مرمى عين شخص ما نسارع في تشذيب تصرفاتنا كمزارعين بؤساء؟! كان "يحي" وقتها يهذي بحكايات وقصص غريبة، غرابة منطقتها، فالقصص غير المقبولة منطقياً لا تقبل القسمة على اثنين، تخيلها وعشْ لحظتها! نظرت إلى غرم الله بينما يحي يهذي بحكاياته وسألته سؤالاً من الغباء بحيث أجريت مقارنة بين يومين من حياتي تختلف جذرياً، يوم المدينة، ويوم القرية، قلت:

- غرم الله ليش الحريم هنا ما يتغطون؟! ليش يكشفون قدّام الرجال؟!

كانت القرية آنذاك تمارس بدائية بحتة، فلم يكن النساء في قريتي يضعن حجاب الوجه بعد، رد علي غرم الله يومها:

- ليش تبغاهم يغطون وجيههم خلنا نكحّل!

جمعنا وقتها ضحك دقائق، لتنبت في داخلي قناعة مهولة، بأن الفضائل لا تتقيد بمنطق الشكليات، إن الفضيلة غرس ربانيّ في النفس، لا ينمو إلا بري حقيقي ترشه الإنسانية ماءً!، فالإنسان محكوم بلحظة نقاء حرة، لا تقبل فلسفة بمنظار الشكل. إننا ون كنا ندّعي الطهر، إلا أننا نئن من تراكم عادات وقحة أبقاها التحجر وشماً لا نملك الجرأة

على استئصاله. فالفاضل، يعيش فاضلاً، ويموت فاضلاً، حتى لو بقي على شفا جرف من الرذيلة. هكذا بدأت أعي فلسفة قريتي، وهكذا نما الشعور الآخر في ذاتي، دق قوي ومدوٍّ على أبواب القناعات السابقة، وبدأت رحلة عربي المقرف. لم أكن قد بلغت وقتئذ سناً تخولني أن أمارس رجولتي بكل محاذيرها، كان عمري آنذاك ثلاثة عشر عاماً ونصف العام، سنة ونصف فقط تحت سلّم البلوغ الفعلي والمعهود، أحياناً يكون العمر من الظلم بأن يجعلك لا تحسن مرافقة من هم في سنك. وأن تعيش عمراً لا تنتسب إليه إلا زمناً، فنار مستعرة تصرفاتك!

كان عبدالله يكبرني بأربع سنين، أما ناصر ويحي فكانا أصغر مني سناً، كنت أفترض فيهما الجهل، ومازلت في هذا الافتراض حتى شمل كل القرى. مضحك أن يجتمع الإنسان والمخلوقات الأخرى في نعت واحد كان علي أن أتنصل من ذاكرتي لأحاكي القرية بكل ما فيها، ولكن التقزز صبغ جدار مخيلتي برؤية أخرى للقرى. فكم هي قاسية طقوس السجون في حق ذاتك. عندما جاء الغروب جاء مؤتزراً بإزار أحمر يسير بهدوء معانقاً سماء تلك القرية، وما زلنا على تلك الربوة نحبك القصص، والكذب، والأباطيل، فلم أنزل يومها إلا وأنا محمّل ذنوباً إزاء أحاديثي وكلماتي، بالإضافة إلى عقد صفقة موعد غرامي مع غرم الله، حين يجيء الليل، والستر.

نزلتُ كما صعدت. جهد، وتكسر، وأشلاء، ونتف من ذاتي تتطاير، بعد جهد كثيف إثر النزول، دخلت إلى منزل عمي. كان الغروب يبعث فيّ جرأة لا تقاوم، لا أدري لماذا لازمني هذا الشعور كثيراً، وهو يلازمني إلى الآن، فحين تغرب الشمس أصبح أكثر جرأة على أشياء النهار المقدسة؟! هل هو حب للظلمة؟! أم هو طقس لمجوسيّ أميّ؟! دخلت منزل عمي مصلح. ظهرها كان يأتيني بهدوء، كان في مرمى نظري حوش واسع، يمشط الرمل والحصى أرجاءه، كانت تقف بعيداً في

الزاوية المقابلة لنظرتي، بدأت لقيانا ممثلة في مسائل هندسية معقدة، لم أفقه يومها أن البدايات غرس النهايات، كنت أحتاج إلى عقل آخر لأفسر معنى لقيا الزوايا في الحب. كانت تقف في زاوية، وكنت أقف في زاوية، وقُطر حبنا خمسة لقاءات فقط!

يحتاج الإنسان إلى قوة خارقة حين يجد الإنسانية في تشابك مع العلوم التطبيقية، لأن الإنسانية حالة تشبه إلى حد كبير حالة السُكر، لا شيء فيها ثابت. اقتربت منها، ولم يكن يفصلني عنها إلا حوش بطوله، كان يخيل إلي بأن الحوش مسافة نصف قرن من اللذة. فنحن نيأس في اللحظة التي نبكي فيها، فالبكاء يأس عملي، وغدر للقوى الإنسانية، لذا بكيت في داخلي كثيراً وقتذاك لأننا دائماً نقف أمام الجمال باكين. مكثت في وسط ذلك الحوش مبعثراً، أنتظر من يأتي ليجمعني فقط، كلمة تعيد نظرتها إليّ لأراها.. وعندما ننتظر من أحد أن يفرج عنا همّ لحظة فنحن أسرى لا نستحق سوى التقييد! وفي جو البعثرة ذاك صاحت بي عمتي " سحابة " التي خرجت من غرفة قبعت في نحر البيت، وكأنها تستفز فيّ رجولتي، ظننت في بادئ الأمر أنها تحبني، لكني فيما بعد اكتشفت بأن الإعاقة مدرة للمعلف والضعف. واختبار للشباتة. هكذا نربّى في داخلي الحقد، ونما فيّ ليستحيل في الأخير شيئاً عظيماً، أكبر من قدرتي على تبديده، فالحزن يورانيوم طاقة كُرهِنا، إنه يزود الحقد طاقة إضافية حتى يغدو حقدنا سلاحاً نووياً. لا أبرر إن قلت: إن الناس الذين لا يحترمون الأقدار التي تأتي رغماً عنا، لا يحتاجون إلى أوراق نكتب فيها صفحنا وغفراننا عنهم مطلقاً. كان قدري متجبراً حد الاكتساح. حين صاحت بي عمتي، أرسلت عيناً في طلبها والعين الأخرى تحرس حركة تلك الفاتنة التي تمركزت في زاوية نظري، وقفت في لحظة بين نظرتين برجل واحدة لأقع في جبن نظرة، نظرة فقط! فكم يحتاج الإنسان منا إلى القوة للانتفاء من حالة حب وقع فيها مرغماً بتجبر نظرة؟!

قالت:

- قصاص روح تروّش علشان اليوم عندنا عشاء.

لا أدري هل كانت تريد إخبار من هم حولي بوساختي؟! أم أنها أرادت تنبيه حمدة لمدى ما أنا فيه من القذارة؟! وهل كان كلامها ذاك مماثلة لحقيقة عضو منسخ أصلاً؟! وكيف يمكن أن أتنصل من حالة الوسخ هذه بمجرد ماء أدلقه على جسدي؟! أم أنها قالت هذه العبارة بطيب نفس منها ومشاعر الأمومة تتدفق من كلماتها؟ وكمن لكزني بقوة في خاصرتي استوعبت جملة الاتساخ هذه، حاولت كثيراً التجني على منطق النيات الحسنة وقلت:

- اللي مثلي ما يحتاج يتروش يا عمة.

هذه العبارة جعلت كل من كان حولي ينظر إليّ نساءً ورجالاً وأطفالاً وحجارةً فقد كان الحوش محتشداً بالناس من أبي وأخواني وبنات عمي وأطفالهن، وعماتي. أكملت:

- أنا نظيف من يوم الله خلقني!

لا أعرف يومها عندما تركت عمتي خلف ظهر إجابتي مبهوتة من رد صبي وقف أمام ذاته في مقامرة قذرة، هل كنت أسخر من القدر؟! وهل بدأت ألعب لعبة ليس لي القدرة على الفوز بها؟! فأحياناً تكون من الغباء بحيث تأتي للأقدار القوية من جانب ضعيف سخرية منك بالقدرة على المواجهة معها.

نظرت حمدة إليّ بابتسامة، وأي لغة يمكن أن تصف معنى أن يبتسم الكون بأسره في ثانية؟! آه. من الصعوبة أن نتحكم في الأشياء غير القابلة للإمساك أصلاً، كنت أنظر يومها من زاوية دهشة، وهي تنظر من زاوية فتنة، لنكوّن قطعة هندسية من الحب! لم أستطع أن أخرج من دنيا الهندسة لأصير أكثر عقلانية من ملاعبة حب هندسي، لأن الحب أشبه بالكون. فيه الناس - كل الناس - يتبارون للفوز بلحظة نقاء صافية!

قالت لي:

- قصاص كيف حالك؟!

كنت أشبه بأرجوحة تترجّح بين قيمتين، تصديق وتكذيب، كنت على مشارف رغبة شديدة في أن أرتج لأصحو من وقع اللحظات بين المتضادات، لم أستوعب معنى أن أجيب بآلية، لكن لساني انذلق بثلاث كلمات فقط.

قلت:

- الحمد لله بخير.

هل الكلمات من العجز بأن تصف سعادة إنسان في ثلاث كلمات فقط؟! وهل كنت فعلاً بخير حتى قلت هذه الكلمات البسيطة بآلية رهيبة؟! وكيف يمكن تصديق إنسان معاق برجل واحدة يقول إنه بخير؟! فألفاظنا الدارجة جائرة حد الاستهلاك، لأنها وببساطتها ودرجاتها المعهودة تقلب الحقيقة، من نقطة إلى نقطة مضادة لها في ظرف حروف فقط. فما أمتع أن تجيب بصدق في تلك اللحظة التي تحتاج فيها إلى الصدق كسمة إنسانية! كررت تساؤلها الآخر، ولا أدري هل كانت تستفزّ عقلي؟! أم عاطفتي؟! أم ضعفي؟! كنت رهن ياءاتي الملكية وهي رهن أحرف تنساب من شفتيها في جو لم أر فيه غير الهلام.

تصبح الأشياء على درجة واحدة من التساوي عندما يكون الإنسان في حالة متقدمة جداً من الذوبان!، ذبت ذلك اليوم كماء ريق في رمل وغاب تحت صفحة وجهه، وصار في دنيا الغياب.

قالت:

- كيف الديرة عساها حلوة؟!

* من المألوف جداً أن تستغرب وقع الأشياء الجديدة على نفسك، لكن اللا مألوف أن تتصالح مع الأشياء الجديدة بحميمية مفرطة، وأنت وجه جديد للحضور! *

قد يستغرب المرء أن يقال هذا الرد لفتاة صغيرة جداً على الفلسفة،

لكنها تمخضت في داخلي كجنين قادم من أحشائي بقوة، قررت أن ألد هذه العبارة، لكني قلت لها بمنطق الصبيّة:

- إيه حلوة.

خرجت من عندها أترنح سعادة، ووعدت نفسي أن أضع حداً لعقلي وذائقتي وعاطفتي، لكني لم أستطع، لأن الإنسان يبكي أمام عاطفته كثيراً، وكأنه في صالة سينما، وهو يتربع آخر العرض و ينتحب بغزارة مطر المناطق الاستوائية، وكنت من هول الفرحة غائباً عن الوعي لدرجة أنني لم أسألها عن حالها.

ستة حمدة

عاش حياته على لعنة اسم أو إثم، كلاهما حق...

ما أبسط الحياة حين تغدو لعنة اسم . فالأسماء من سخف بساطتها تحصر الإنسان في لحظة تفكير بسيطة من الأب يلقي بابنه في بطن اسم يتعلق به إلى أن يموت! عندما جن الليل وجنّ معه الغباء، كنا جالسين متقاربين في جو من الحنو العائلي ننتظر عشاء قروياً لأناس أغراب، كنا أغراباً بالفعل، لأن الغربة أن تترك ثقافة، وحضارة، وعادة، وحياة، ووطناً. تركنا ثقافة المدينة، وحضارة الإسمنت والإسفلت، وعادة المدنيّة، وحياة الأضواء وأنوار الشوارع، ووطن التمدن. وقدمنا إلى القرية.

كلّف عمي مصلح نفسه عناء عشاء هو واجبنا تجاه ثقافة الكرم التي تنتشر في شعوب الصحراء، وجلسنا ننتظر هذه الثقافة التي لا أدري من أين أتت؟، نقلب صفحات الأحاديث عن الماضي، والمدن، وحكايات الأضواء والإسفلت، وتجارب أبي السابقة في عمله، وعلاقته مع الوجوه المتمايزة، تلك الوجوه التي لا نراها إلا في المدن فقط، وبينما نحن جلوس أقبل من بعيد، 'قبل ليفرقنا بهرمه، ودمامته، واسمه المائل إلى الخرافة، وقرن من الزمان، فيما بعد كنت حين أفكر فيه يُشلّ تفكيري في إنسان يحمل قرناً من الزمان على ظهره، كيف له أن يتحمل مسيرته وهو مكتظ بحوادث قرن من الزمن؟! كان عمي "النتاري" خرافة من فرط الحكايات التي تندلق من لسانه. وأن تتحول إلى طائر فينيق فينبغي أن تغفر للناس تكذيبهم لك! كنت أسمع به كحلم، وحين رأيته لأول مرة أصبحت في منتصف الطريق بين الحلم واليقظة! لم أكن متيقناً من

صدق جسده المادي أملي، وأن هذا الكهل يحمل في ذاكرته قرناً من العمر، جلس بعد أن قبّلنا يده ككاهن، وأخذ يتحدث مع أبي بحميمية اللقيا، ما أثارني يومها أنه كان يحب الشاي بسكر زائد بشكل غير عادي! كان قصيراً ونحيلاً بشكل افتراضي، والتجاعيد تكسو وجهه بعشوائية، وذ أنف طويل جداً، وعينين نصف محمرتين، وما إن جلس حتى بدأ يتلقف كؤوس الشاي بصبيانية أقرب إلى الفوضى، عندها آمنت بأن الكهل طفل المخبر دوماً، فالإنسان عندما يصل إلى مرحلة موغلة في العمر يعود كما بدأ. وعندما يصبح الكهول والأطفال في مستوى متقارب من التصرفات، تغدو القرارات وليدة حكم فاشل! كنا نجلس وهو يحكي بعدما دلق كل ما لديه من رسميات إزاء لقاء المغتربين. كان يقول "كنت فيما مضى حيّاً يوجه إنسان، لم أكن أخاف من تلك الكائنات النارية، أخاطبهم دون أن يرف لي جفن، وفي أحد الأيام وبينما أنا أسير في ظل جوع جاب القرى، وقذف بالناس قطعاً متخشبة في الطرق، تتمنى ولو جيفة كي تأكلها، كان الوقت منتصف الليل، وكنت أرافق عصاي التي أتحسس بها جسد الأرض، فغلبني النعاس، فأردت أن أنام، فانزويت بالقرب من شجرة سدر عملاقة، كان ثمة هدوء يبعث الخوف من قبره غولاً ضخماً، كنت أشعر بوخزات الخوف الباردة تتحسس جسدي، وتثير فيّ حكة التنبه والتيقظ، بيد أن الحياة في ذلك الوقت لا تعترف بالخوف كأسلوب إنساني، منذ وعينا ونحن لا نصدق بأن الإنسان في لحظة خوف ينهار، تشربنا مبدأ الوقوف أمام الحياة ببسالة المحاربين النبلاء".

كان عمي يقول هذا الكلام وهو يشير إلينا بطرف حكيه، بغية استمطار التأييد والابتسام من أفواهنا بأسلوب الكهول الردي. أكمل "كنا قديماً نبيت اليوم واليومين والثلاثة، دون زاد، فهل أحد منكم يستطيع أن ينام دون أن يأكل؟!" وأخذ يشير إلينا وفكه اليتيم من الأسنان يلوّح بضحكة ساخرة، كانت ومضة اللا تصديق تنتفخ في

مخيلتي، لا يبددها إلا أنني وجه جديد للحضور، شيء كان يفتر في داخلي إزاء المواجهة، كنت أبغض أن تكون في مواجهة لا تستطيع معها إلا التبسّم! فالكذب قوت الشعوب القروية، منه تلون حياتها بألوان كانت تنقصها في محاولة يائسة لرد جيوش الذوّاقة. كانت قريتي تحتاج إلى تحديد موقف فقط.. إما أن تكون قرية تقتات الجوع بكليته، وإما الانغماس في مدينة تمضغ الإنسانية نثاً قيمة قذرة!

لم يجد منا أي جواب، ولم يكن ينتظر أن يردي أحدهم جواباً أمامه، لأنه في درجة يدرك فيها أبعاد الأجوبة... فالأجوبة الجاهزة والمعدة سلفاً، إنما هي لكنة مغايرة للغة الأجوبة والأسئلة، فكل الأسئلة محاولة لخلق صراعات إنسانية لا تتقيد بالنظام، فالسؤال شيء ترتبه الفوضى! والإجابة ركاكة الحياة دوماً!

استطرد " وبينما أنا كذلك، أضع خدي على يدي أستجلب النوم، سمعت صوت حجارة تقع بجانب قدمي، بدءًا لم أعرها أي انتباه، لأن الإنسان في الظلمة فريسة وسواس جبان، لكن الحجارة سارعت في وقوعها مراراً، أيقنت حينها أن أحدهم يتسلل من ورائي، بغية الإطاحة بي".

لم أكن أتخيل يومها بأن هذا "النتاري" في صف آخر للعداوات، لأنه لا يملك الميزة التي تؤهله بأن يعجن كرهاً أو حقداً في قلب أحدهم.. هو باعث الرحمة والشفقة دوماً، فثمة بعض الناس من فرط دمامتهم لا يحتاجون إلى تأشيرة دخول لذواتنا فهم يعبرون أجسادنا ويوغلون في ذواتنا، لأن النفس تقف أمام الدمامة دوماً موقف المشفق. فهل كان بحديثه هذا يختبر مدى تفكيري! أم أنه صراع بين أن يقف شامخاً في خيالي في أول لقاء أو ينحدر؟! وكيف لي أن أثق بقدرة إنسان على التماسك وهو يسير بقرن من الزمان على ظهره...؟!

أكمل "عندما كثرت الحجارة، صحت في مصدرها" ثم فإن الشياطين لا تنام" بعد برهة قصيرة ازداد وقع الحجارة علي فقلت بصوت

حاولت كثيراً أن أقاربه للتذمر "ألا تنام لعنة الله عليك"، تبدد الصوت قليلاً، وبدا السكون شبحاً يحلق في الفضاء، عندما سمعت صوتاً قريباً من صوت الإناث يقول "يا النتاري قم فقد أزعجتنا، وأبنائي لم يناموا بسببك" كنت على ثقة بأنها جنية، ولكن لم أكن لأبين لها مدى رعبي فتماسكت قليلاً وقلت "ليس أمامك إلا النتاري، اذهبي بأطفالك فإني لن أبرح مكاني أبداً"، عندما بدأ يتغير صوت الجنية الآخذ في الضعف، وبدأ يزداد صراخها وقالت "يا النتاري دع عنك عنادك واذهب"، دبّ الرعب في أحشائي من جراء هذا التهديد المبطن، فحاولت أن أرخي حبل المواجهة، دون أن تشعر، فنحن في بعض الأحيان نقف أمام المواجهات بخبث الجن، قلت لها "سأذهب، لكن اعلمي بأن أطفالك هم الدافع وراء ذهابي". فسكت والحضور كله ينظرون إليه باندهاش...

عندما كنت طفلاً، كنت أرى في سلالة الجن مخلوقات خرافية، وكبرتُ وكبرت معي هذه القناعة، فأتى عمي النتاري ليربي في داخلي الارتجاج، فكيف لإنسان بهذا الضعف أن يواجه جنيّة؟! هل عقولنا من الصغر بأن نضع إنساناً بكل ما له من نقاط ضعف في مواجهة كائن خفي؟ أليس الجن من الجبروت بأنهم يعيشون متسترين في العتمة؟! لم أكن أعلم يومها، بأن بعض الحكايات هي أدوات لتمرير الوقت في زمن يكون الوقت جهداً إضافياً على كاهل الإنسان؟! نكزت غرم الله بيدي، فقد كان يتابع الحادثة باستمتاع، تمالكت حقدي يومها، وجررت جسدي وطرفي الصناعي، وذهبت إلى ركن منزو من ذلك الحوش أريد أن أدخن وسؤال عملاق متعلق برقبتي يخنقني حد الدهشة، هل الكذب في سرد الروايات يضفي على الرواية روعة أم تكلفاً وركاكة؟!

أسندت ظهري إلى الجدار، واللهب يحرق رأس سيجارتي، كنت أدخن بلذة، لن أنسى هذا الموقف أبداً، لأنها 'ول سيجارة لي في تلك القرية، وقد أصبحت على علاقة وطيدة مع الأشياء. أن تحجز لنفسك

مرتبة مع أشيائك، وتغدو من فرط علاقتك بها شيئاً منك، فالأمر أكبر من كون هذه الأشياء لحظات مجانية، إنها حياة! شعور مخجل بالفعل أن ترى الوفاء في سيجارة، لكن أن تنتظر الوفاء من الجماد، فحياة بجانب الحياة نفسها. إني وإن كنت على أبعاد الخذلان أنتظر وفاء، إلا أنني حين أبحث عن الوفاء في سيجارة، فلأنني سئمت إتيانه من أحد، وصرت بلا أمل في قدومه من غير خسة التقادم. فالإنسان عندما يمتزج بالحياة يكون أقرب إلى البشاعة، منه إلى الجمال، لأن الحياة في تكرارها تقلب الجمال إلى شيء غير مفهوم الطابع.

حين أجهزتُ على سيجارتي، بدا لي من خلف العتمة شبح يسير، تقدم نحوي، وعادت إلي حكاية عمي التتاري قبل قليل، وبدأ الرعب يدب في داخلي، وعندما شاهد تلعثم تصرفاتي ضحك وقال " أنا غرم الله يا خوّاف " لسبب أجهله، ومبرر لا أجده إلى الآن، لا أدري ما السبب وراء انزواء المدخنين حين يجترون مرارة تدخينهم؟! هل ثمة خشية؟! أم أن التدخين كهنوت له قدسية لا يطيب للمرء ممارسته إلا في الخفاء؟! أم أن هنالك سبباً آخر يجعل من المدخن أداة تخفٍّ؟! أحياناً أشعر بأن المدخن حين يدخن خفيةً، فإنه إذ يفعل ذلك يحاول تقديم روحه للموت في قاع مظلم، لأن الإنسان عندما يقوم بالأشياء العظيمة لا يجب أن يقدم عليها جهاراً! وقفت بجانبه، وأنا لا أعرف من يقف بجانب من، كنت في حالة من اللاوعي، أفتقد التركيز، وكأي حكاية في عوالم القرية بدأ يسرد، كان على أهبة الدهشة، جاءني ليفرق قناعاتي وأشيائي الصغيرة التي تسكنني منذ زمن، تلك التي حاولت كثيراً تربيتها لتكبر، لتصبح سنداً لي عندما أكون غير قادر على إنجاب أشياء غيرها، فالإنسان عندما يكبر، يصبح غير قادر على ولادة القناعات والقرارات، لأن العجز في الجسد عجز في الروح والتفكير، حرصت على ادخارها، لتكون ضرساً أبيض ليرمي الأسود كما يمثّل أهل قريتي، لكن حلم الليالي القديمة مع الثوابت تبعثر وانتحر، موت قناعاتي أصبح هو

الهاجس الذي أخافه في حياة القرية، كنت أخشى ما أخشاه مع توالي الحكايات أن أنسى أن الإنسان يموت، فمن الصعوبة جداً أن يتناسى الإنسان كونه كائناً ميتاً لا محالة، لكن القرية هي الخذلان الذي يضعك على ضفاف التشتت، لتشكك في قناعاتك ومبادئك وثوابتك أيضاً...

حكى لي قصة طائر الفينيق، لم أصدق، ومازلت لا أصدق حديث الأسطورة، لكن أن تكون ثمة أساطير في الحياة بتجسيد آدمي فبمثرة في الثوابت لا مثيل لها. قال لي غرم الله وهو يمز سيجارته بجانبي "أعجبتك حكاية عمي "النتاري"؟ أتدري أن هذا الإنسان الذي تراه الآن مات منذ زمن طويل!".

يا الله... ما يلزمني إزاء تخمير هذا الخبر في رأسي قدر دهور وأجيال! لم أجرؤ على طرح أي سؤال، ولم أنطق بحروف استفهام الكيف وأين، ولماذا، لأن بعض الأخبار والحكايات تتقازم أمامها حروف الاستفهام من فرط غرائبيتها وطغيانها! أكمل يقول "أتدري أن عمر عمي النتاري مائة سنة، وهو في حياته يعاني عقدة امرأة، هو لم يتزوج إلى الآن لأنه يسير على مبدأ أن كل امرأة عاهرة، كان إذا وقف أمام الزواج لا يقف إلا متعرياً من ألفاظه".

صدقاً كان يعجبني هذا الوضوح لدى عمي عندما عرفته جيداً فيما بعد، صحيح أنه لم يكن على درجة من الحنكة في أقواله وأفعاله، إلا أن القرية في داخله أحرقت كل الأقنعة، ولفظته كائناً إذا قال لا يقول إلا ما يعترك في داخله من غير مواربة. كان غرم الله يسرد قصة الفينيق وأنا بين القيم أهيم بلا هدى. أكمل يقول "لذا عندما مات لأول مرة لم يبكه الكثيرون، وتمنيت أن يكون له أبناء كي نعزيهم فيه، لأن الحزن الذي لا تشعر به حزن باهت. ذات مرة وفي يوم من أيام المطر كما يقول لنا أبي، دخل عليه أبي فوجده في حجرته ميتاً، اقترب منه وهو غير مصدق وفاة أخ له لم يتزوج بعد، كان يخاف أن ينقطع ذكر

التتاري، هذا الذي لا يربطه بالحياة إلا جهد بائس قدره قرن من السنين".

كنت أفكر في عمي دوماً، وقد كان عمقاً لتفكيري زمناً لا بأس به. فما ألذ أن تجد إنساناً يدفعك إلى التفكير دائماً. كنت في أحايين كثيرة أفترض فيه بعد النظر، لأن الأخذ من إناء الحياة تجربة، والتجارب سوائل فكرية دائماً. إن انقطاع النسل أو الذرية لا يعني موت الشخوص، إن القادر على حمل الناس على التفكير فيه هو المستمر ذكره، لأن الصيت هو الذرية فعلاً، فالمرء الذي يدفع الناس إلى التفكير به هو الذي يستحق أن يكون له صيت أصلاً.

غرم الله لا يزال يسرد، وأنا غافل مرة، بين التفكير وبين المتابعة، محشور في معركة التأمل مع هذا "التتاري" البائس هذا القادم من بعيد، القادم لينسيني عاهتي... "قصاص، لم يكن عمي كهلاً ولا فاضلاً، لأن القرية تستنبت قناعة بأن الموت لا يأتي إلا للكهول والفضلاء، لكن أبي وجده ميتاً، بكى القليل تجاه هذا الخبر المهول، بكوا لأنهم فقدوا أحدهم، فالناس كذابون، لأنهم يُظهرون مشاعر الحزن على موتاهم لكن مع مرور الوقت، تصبح ذكرى الموتى هاجساً يؤرق الذاكرة، ويدفع الإنسان إلى التبرؤ منه بعدم فتح أقفال الذاكرة بإعادة تأسيس الحزن من جديد".

***

عندما أتذكر ما كان قاله لي غرم الله آنذاك أذكر نقاشي مع حماد يوماً في هذه المسألة، اتصل بي وهو عائد من مدرسته وقال لي:

- قصاص نتغدا سوا؟ وش رأيك أمرّك ونروح ندور لنا مطعم نتغدى فيه.

جاء وأخذني من المنزل بعد أن اعتذرت من زوجتي للذهاب مع

حماد لتناول الغداء معاً. وبدوره اعتذر من زوجته عبر الهاتف. وحينما وصلنا إلى المطعم، وبينما نحن ننتظر الغداء، طرقنا موضوع موت عمي التتاري ضاحكين قال:

- أليس غريباً أن تكون ذكرى موته مضحكة؟ فهل الموت مضحك لهذا الحد؟ .

- يا حماد إن الحزن على الموتى له قدسية لحظية فقط، فنحن نبكيهم لندفع للموت شيكاً موقعاً منا ليشعر بأنه ذو أهمية فقط!

شعرت بأن حماداً بهت من فلسفتي تلك يومها، ولم يعاود الحديث في هذا الموضوع إلى أن جاء الغداء، فتناولناه وعدنا أدراجنا.

***

كنت لا أزال أتابع غرم الله وقد أخذتني هذه الحكاية. قال "جرت مراسم التشييع سريعاً، بعد غسله وتكفينه وحمله على الأكتاف، ساروا به مجاورين للبيوت، حافرين خطاهم في التراب إلى المقبرة، وعندما وصلوا إلى المقبرة، وبينما الرجال يحاولون التوسيع له في قبره، ودموعهم تسابقهم إلى القبر لتُدفن معه وتُنسَى، ومع هذه الجلبة ارتفع الغبار كثيراً، حتى غطى الناس، وصاروا يسبحون فيه، وفجأة تنبهوا لحركة داخل الكفن، قال أحدهم "إن الميت ينحرك"، فرد آخر "يبدو أنك واهم"، وكمن وجد خيطاً دقيقاً للأمل قال أبي "افتحوا عنه الكفن، هذه الحركة لا تصدر من الموتى مطلقاً"، حلوا عنه وثاق كفنه، وتسابقوا فيمن يفوز بالنظرة الأولى لميت يتحرك في كفنه، وعندما فتحوا الكفن من جهة رأسه قال عمي التتاري بصوت خافت ومتحشرج "يا مصلح أريد قهوة"!

حين وصل غرم الله إلى هذه العبارة ضحكتُ من هول المفاجأة ؛ لأن عمي هذا كان على قدر عال من حبه للحياة، فعندما تكون الحياة

في نظر أي إنسان متعة، فهو الإنسان الجدير بأن تفتر له الحياة راقصة. نظرت إليه وقلت له:

- بجد؟

- هذا ما حكاه لنا أبي، ويقول إن بعد هذه الحادثة أشاع أهل القرية بأن الجن هم من أعادوا عمي إلى الحياة...

الجهل في القرى ناقوس كنائس التخلف. لم أكن أتخيل أن الغباء في القرى قوي ومجاني لهذا الحد، لكني كنت أعرف أن القرية مهترئة حد الاحترافه كان الغباء يخترق عقول أهل قريتي، وأنا موغل في الضحك لدرجة المسايرة. أكمل غرم الله "لم تتوقف سيرة عمي لهذا الحد، لأن الناس اقتاتوا التأويل أكلاً وفيراً، فالنساء بالغن في مماحكته، كي يعاشرهن، ليلدن منه ابن الجان، فأخذن يترصدنه، وهو سادر في مضغ الأجساد باشتهاء، وحين ينتهي يبصقها بتقزز، إلى أن وهن ولم يأت ابن الجان هذا، فبدأت النساء بالابتعاد عنه، والتخلي عن تأويل ساذج من فم جاهل، انغرس في لب امرأة".

حين أتذكر هذه الحكاية الآن، يتبادر إلى ذهني قول عمي التاري مرة في مجلس بيتنا لمجموعة من رجال القرية:

- المرأة تسرق المتعة من خلال فضولها ، وإن لم تجدها فيه أبدت الضعف في طابع غنج!

وأنا لا أدري هل ما قاله صدق حقاً، لكن لا أنكر أنني ذهلت حقاً بما قاله غرم الله عن عمي التاري تلك الليلة، وفلسفة عمي التاري إزاء المرأة، وذهلت أيضاً بما رأيته في بداية ذلك المساء...

ستة حمدة

خرجت من عشاء تلك الليلة وأنا غريب وكأنني آت من دنيا أخرى...

عندما انتهى العشاء سحبني غرم الله من يدي وذهبنا إلى عرس خطيبتنا، كان ذلك أول ليل غرامي بالنسبة إلي، فغرم الله هو من غرس في داخلي الخطيئة والتكفير عن الذنب، كان ذلك اللقاء هو الأول لي في دنيا احتفالات الذنب، ولأن الأشياء الدميمة - وإن بدت صغيرة - تكون أقرب للتضخم في داخل المرء منا، وهذا ما جعلني لا أستحي من عربدتي مع " خالي توماس ". عندما أتذكر غرم الله وهو يقودني إلى أول لقاء ليلي لي في هذه القرية، يتبادر إلى ذهني خالي توماس بعد ذلك، فعندما بدأت أعربد صرت أمارس طغيان الكأس في ملكوت السكر!، فحين سكرت لأول مرة لم أكن أعرف بأن الإنسان حين ترتخي أطرافه يصبح أقرب للبكاء، فالسكر حالة إنسانية كبرى. كنت واعياً حينما سكرت للمرة الأولى، لم يخاتلني أحدهم ولم يمارس أحدهم معي كذبه كي أسكر فغرم الله جعلني أتجرأ على مسلّمات الطهر في داخلي ، فقد انقدت للسكر بدافع مني، سكرت لأنني أردت أن أسكر، فما ألذ أن ينقاد المرء للأشياء التي يريدها، وما أطعم أن أتلذذ بأشياء أنا أبتغيها. كنت أسكر بمعية خالي، هذا الخال الأقرب للحلم. الآن وبعد عشرين عاماً من الغي أو القيء، كم أحتاج إلى أن أفكر في خالي هذا! أريد أن أخرج من دوامة خال يسكر مع ابن أخته في جو من العري والإباحية، ربما ثمة غيري كثير لكن خالي هذا كان يقظة الحلم في داخلي! كان مخلوقاً مريباً.. والسكارى مخلوقات مريبة دوماً!

صحيح أنه وضعني في زاوية حادة من الاستغراب، لكنه بعد مدة أصبح يلبسني كثوب مرقّع. يلزمني من الدهشة سنين لأستوعب معنى أن يكون في قرية في جنوب السعودية شخص يدعى "توماس"، هكذا كان يطلق عليه بينما اسمه الحقيقي "أحمد"، لكن غلبة اللقب تسلطت عليه ليشتهر بهذا الاسم كثيراً، يقال إن لقبه هذا جاء من جراء تسلطه على الناس وتجبره، فقد كان أهل القرى قديماً يفترضون في الأجانب بشراً قادمين من كوكب آخر، لهم سلطة وقوة خيالية، وكأنهم مخلوقات فضائية، فكل من كان يملك هذه القوة ويكون جباراً في تصرفاته، وقوياً في أوامره يصدرونه منتجاً أجنبياً، ولأن خالي كان يملك تلك القوة في القرارات والمضاربات والتجبر أطلقوا عليه لقب "توماس" تيمناً بقوة الأجانب، وانتساباً إليهم من خلال اسم هم يستخدمونه كثيراً، فقد كان خالي من الخوارق في الطبيعة رغم صغر سنه، كان يشبه المصائب، نخلق في دواخلنا التناقض والدهشة والبكاء، وشعور الضعف أحياناً!

عندما قابلته لأول مرة في حياتي، قال لي جملة لم يتسع عقلي إزاءها، لكن ذاكرتي بقيت متعلقة بها كعبودية صنم، وسمها في تفكيري ولم أستطع استئصالها قط قال:

- حياة ما فيها بسطة مهيب حياة!

هكذا قابلني ليرميني في حياته مضغة في رحم التفكير.

عندما سكرت معه لأول مرة، حضرت معي أشيائي الصغيرة، وكأنها عقدت لقاء مع ذاتي، ففي ذلك اليوم المائل إلى الغموض أكثر، كان وقع الحوادث عليّ أكثر إيلاماً مما مضى، لأن السكر يعيد ترتيب الأحزان فينا دائماً! كنت متألماً من رد أبي الذي أجّل أفراحي كثيراً، فعندما وصلت إلى توماس غرقت في الذكريات كأي سفينة منتهية الصلاحية، كان جسدي ليلتها مرتخياً حد الإغواء، وساقي المبتورة تبكي، كنت أتخيلها تبكي لأنها لم تستطع مشاركة حزني في أداء مناسكه. تجرأت مع ذلك الكم الهائل من الهم أن أطلب من خالي

كأساً، فهو الحزن يجلب الضعف تجاه شهواتنا، إن الحزن ابن الخطيئة والانحراف، إنه السلوك الذي نسرب خطايانا من خلال ثقوبه.

ذهبت إليه، وعندما صادفته، نظر إليّ بإشفاق الأمهات، وقال لي:

- فيك شيء مهوب زين.

وكأنني كنت أنتظر هذه اللحظة منذ زمن طويل، ذلك الزمن الذي اكتشفت فيه أن المحافظة في الحياة وسيلة رديئة لملء ألسن الناس، فنحن أمة لا تخشى إلا الألسن، كنت أتصور بأنني أقدر على إحراز مراكز متقدمة من النيل، قلت له:

- الحياة لعبة فقط!

- أنت تقول هذا الكلام؟!

- يا خال الحزن سكر المشاعر دائماً!

كان خالي يحترم حزني كثيراً، ويهاب أن يكدر صفوه، لأنه يعرف بأن الأحزان التي لا تأخذ وقتها في الإيلام تتحول إلى دمامل تدمي الذاكرة. كان على علم بحبي لحمدة، وأنها السبب وراء اندفاعي للانحراف، لذا لم يجرؤ على نكء جرحي هذا وقدم لي نصيحة وكأساً...

... رغم أني سكرت وعربدت كثيراً، إلا أنني لست نادماً على هذه التصرفات، فالإنسان حين يكون مدفوعاً إلى تصرفاته بطيب نفس منه لا يتحسّر البتة! ما كان يرهق ذاكرتي، تلك القرية التي ترى في السكر زندقة وفعلاً آثماً بحق، بينما الزنى في دستورها فحوى حمم لابد أن تثور!

***

في أول يوم لي في القرية، وبعد أن شوانا عمي التاري بالحكايات إلى أن تفحّمنا، وبعدما ذهبت مع غرم الله إلى لقائه الليلي الذي لم

نعرف فيه إلا العري والدياثة. في تلك الليلة اعتراني خوف من السؤال القادم إلى عقلي الهش بقوة آنذاك، دهمني السؤال فجأة: من هو الديوث؟! لم أستطع الإجابة وقتها، ولم أتمكن من فض بكارة هذه اللاإستطاعة، إلى أن جاء حماد بعد هذا السؤال بزمن بعيد. سألته فقال:

- إن الدياثة مجرة إنسانية أخرى، والديوث نيزك يتفتت فيما بينه وبين ذاته، بالمختصر الديوث علاقة السالب من القيم حين يلتقي السالب!

نظرت إليه مشدوهاً، وقلت:

- ماذا تقول، والله لم أفهم!

- ها ها ها حتى أنا...

ثم أكمل:

- إن الديوث يا قصاص، إنسان يجعل من البراءة قيمة إنسانية يتجاوز بها خبث البشر قط!

***

خرجت مع غرم الله في ليل حالك، كنا نسير في أزقة القرية تلك التي غيب وجهها الماء التن وروث الأغنام، ورائحة دمنها، وبينما أنا أسير تخيلت بأنني ذاهب إلى المحشر، فليس أسوأ من السير في القرى سوى السير فيها ليلاً، كدت أبكي من شدة الهلع، لأن الجبال تخفي الوحوش في داخلها من عقارب وحيات وضباع وسباع، لم أكن أخاف من الضباع أو السباع، إنما كنت أخاف من هوام الأرض كثيراً، فربما تجرؤ هذه الزواحف على حياتي كما جرؤ ذلك المسمار الصدئ وتذهب برجلي الأخرى وتملأها سماً، كانت خشخشة أقدامنا الثلاث في الأرض تنذرني بأنني أقترب من حتفي، فعندما يوغل ابن المدن في القرى، يعرف مدى ما عاشه في مدينته من رفاهية النور، فالقرى حاوية العتمة

والخوف. بدءاً كنت أستغرب جبروت أبناء القرى في السير ليلاً في هذه الأزقة المظلمة دون خوف، لكنني وبعد أن تجاوزت مرحلة الحضور الجديد بحذر صرت فيما بعد كائناً لا يهاب الظلمة، فأبناء القرى كائنات العتمة دائماً. عندما اقتربنا من ذلك البيت لمحنا شبحاً قادماً من العتمة، وكأي غريب لا يعي عادات الشعوب، بدأت تتباطأ وتثقل خطواتي، رأني غرم الله على هذا الحال، فضحك ولكزني وهو يقول:

- يا خواف، هذا "عزيز القدرة"، إننا دائماً نلتقي، فعندما أذهب إلى لقاء رحمة يتربص بالطرق ويراقب لي، وحين أعود آخذ مكانه في المراقبة، حتى ينقضي لقاؤها، نحن نتبادل أدوار اللذة باحترام، لكن دائماً أكون أنا الأول.

هل كان غرم الله بعبارته الأخيرة هذه، يحاول أن يُظهِر تفوقه على عزيز؟! وهل ثمة متفوق في الخطيئة؟! أللعاهر ندرة على الارتقاء لمرتبة أعلى مما هي عند عاهر آخر؟! وددت أن أقول له ليلتها: العهر أن تغمس قطعة خبز في زبدة الخطيئة، وتأكل منها بلذذ بدون امتيازات!

الآن أستطيع أن أقنر عقلية عزيز، لأنه عاهر محترم يقدم على لذته بذل، بينما غرم الله أصبح إنساناً لا يعرف من العهر إلا أرذله، فالخطيئة ليست رذالة في كل الأحيان، إن الخطيئة مبدأ كما الحياة، لكن أن تنتمي إلى خطيئتك بوقاحة، فليس مقبولاً أبداً، لأن في شخصية كل منا عاهراً، وأن تقبل بالخطيئة الرخيصة كأداة حياة، فأنت مجرم في حق الدنس أساساً! هكذا بنى غرم الله حياته على طبق رخيص من التأمل في إنسانة تتثنى بدلال، فعندما تزوج غرم الله برحمة فيما بعد قابلت عزيزاً فضحك وقال لي:

- يا قصاص، أنا لست مستاء من زواج غرم الله مطلقاً، لكن ما يستفزّ فيّ الأسئلة، أنه ادعى طهر رحمة أمامي، نحن اللذين كنا نتناوب عليها كل يوم!

عبرني عزيز ذلك اليوم، وتركني حائراً بين كثبان الأسئلة...

... لماذا دائماً حين يقترن الرجل بعاهرة يرهم الآخرين بطهرها؟! وكيف يمكن أن يتبرأ الإنسان من دنس أوغل فيه حد السقوط؟! أليس معقولاً أنني حين أجرؤ على القرارات أن أنتمي إليها كقناعة على أقل تقدير؟!

عندما قابلت رحمة أول مرة طأطأت رأسها، وعندما قابلتها بعد الزواج من غرم الله طأطأت رأسها أيضاً، وأنا أقف بين طأطأتها موقف الأخرس، وانفجار في داخلي له دوي مرعب، يقول "لماذا كنت كالأخرس في كل مواقفي؟! هل ضعف الإعاقة في داخلي راكم ضعف المواجهة إزاء جبروت عاهر؟!".

إلى الآن وبعد كل هذه السنين الطويلة، حين تحضر رحمة مع أبنائها وأنا موجود، لا تحضر إلا خافضة رأسها، وهي لا تدري بأن من يقف أمامها إنسان فقد الرغبة في التأنسن، إنسان يبحث عن التصالح، لكنّ ثمة صوتاً هامساً في داخله ينادي "لا تصالح"!

أنظر إلى أبناء غرم الله الآن بشفقة، فهل الإنسان قادر على صنع دمه كما يريد؟! سخافة هذا السؤال في طرقه، تقودني إلى قناعة... إن الحياة من الترادف شيء لا يقبل الأضداد كسمة وراثية!

في ليلتي الأولى في القرية، وعندما وصلنا إلى منزل "رحمة" دلفنا إليها وعزيز يراقب لنا، كنا أنا وغرم الله في عتمة الليل نستند إلى ظهر جدار قارب السقوط، سنين مكوثه الطويلة أفقدته القدرة على التماسك، ليستحيل في الأخير ستار شباب موغلين في الدنس.

وبينما نحن ننتظر حضرت رحمة...

صحيح أنها لم تكن بجمال حمدة، لكن تقاسيم وجهها كانت تحمل من الملاحة شيئاً كثيراً، كانت في نهاية مراهقتها، وثمة شجة ليست بالكبيرة عند حاجبها الأيمن تعطي وجهها طابعاً قاسياً، لكن حين تمارس غواية الدلال تغدو تلك الشجة أكثر ضراوة في مواجهة الفيضان الذكوري الهادر. فحين نظرت إليها لأول مرة وبعد أن طأطأت رأسها

طأطأت رأسي أيضاً، قدمني لها غرم الله بشيء من الحفاوة كضيف جديد، هي المعتادة توالي الضيوف على جدارها الخرب ذاك، تكلم كثيراً إلى أن قال:

- ... وهذا ولد عمي اسمه "قصاص".

رحبت بي بنظرة وابتسامة، لتتوالى مشاهد العري فيما بعد...

مكثنا طويلاً يتحدثان وأنا صامت. ولا أدري لماذا كنت صامتاً يومها؟! هل كنت خائفاً لأني لم أعتد أن أتناوب الحديث مع فتاة؟! أم كنت خجلاً؟! لكن ما أنا واثق به الآن أن حضوري الجديد هو الدافع وراء سكوتي ذاك، لأن المرء حين يكون وجهاً جديداً، يقلب دفاتر الصمت ورقاً مهترئاً! لم أعتد مواجهة حميمية كتلك، أنا الذي سكنت حجرتي بحثاً عن قراءة كتاب، أو تمزيق ورق أكتب فيه حتى يتهرأ. لم أعرف بدءاً بأن القرى موطن العري، كنت أتخيلها ترادف خضرتها نقاء، لكن المواقف شتتت هذه القناعة، لتلتئم قناعة أخرى بأن القرية دار الانفراج كانفراج مبانيها وبيوتها المتهالكة! كان روث الأغنام، وعطر رحمة الرخيص في صراع من أجل البقاء، وغرم الله معها في عناق حميم، وأنا كالمسافر أنتظر قطار التصديق لأستقله وأصدق إلى أن تركتهما وذهبت...

عندما قضى كل منهما وطره من الآخر، أقبلا إليّ وأنا أدخن بعد أن انسحبت أمام عناقهما الحار خشية أن أنصهر، منتظراً سعة من الوقت لأفكر في ما رأيت، أقبلت إليّ رحمة وهي تحتضن غرم الله بأسلوب رخيص، فنظرت إلي وكان الاستغراب معلقاً بوجهها وقالت:

- قصاص تدخن؟!

- إيه.

- حرام عليك شفايفك راح تخرب.

وبعد برهة:

- بتصير مثل شفايف غرم الله ما لها طعم.

- طيب ليش تبوسيه دام ما لها طعم؟!

- ...

- خليها تخرب أصلاً ما فيه أحد يبوسها.

عندما قلت هذه العبارة بدافع بريء، اندفعت إليّ وقبلت شفتي في مرحلة متقدمة جداً من الجرأة أمام غرم الله، وأنا في حالة من الدهشة لا توصف، امتصت شفتي السفلى فبدأ جسمي يتوتر فتراجعت وهي تقول:

- ها شفت أنا أبوسها لك!

صحيح أنني سعدت بتلك القبلة ليلتها، وسهرت ليالي كثيرة أستحلب تفاصيلها من ذاكرتي، إلا أن النفور مني بدا واضحاً تجاه هذه الوقاحة العلنية. فالنقي دوماً، لا يستنجد إلا بنله حين يجد الأشياء لا تتناسب مع قواميسه! لم يطل الحديث بعد هنا المشهد، لكني كنت أتسمر أمامهما وهما يتحدثان والأسئلة تعيث في داخلي خراباً...

هل الرجل يضعف إزاء رغباته حين يجد أنثاه تدفع العري أمامه دون أن يتماسك ويصدر قراراً خاصاً بهذا الفضح؟! أليست الرجولة موقفاً؟! ولمَ وقف غرم الله أمام ذلك المشهد بحيادية الأصنام؟! وهل كانت تعرف "رحمة" بأن الرجل بعد سكب رغبته يكون ملاصقاً للتصالح حتى مع الخوارق؟!

ودعنا رحمة تلك الليلة وقناعات في داخلي بدأت تتهدم، وصوتها يتبعنا مودعاً كدخان بخور، ومبشراً عزيز بقرب اللذة وهي تقول:

- قصاص تعال مع غرم الله المرة التالية.

في تلك الليلة أدركت بأن المرأة حين تُصرّ على حضور رجل ما، فإنها تريد طلباً لابد أن يُلبّى! نظرتُ إلى غرم الله ليلتها، وابتسامات باهتة تبادلناها، وحين قاربنا عزيز قلت مخاطباً إياه على مسمع من عزيز:

- القبل أسمى آيات العناق، لأن الأجساد حينما تتلاقى، تتلاقى من عليائها!

ستة حمدة

وكشعر أي فتاة أخذت أتقصّف...

كنت أشبه بالبوصلة لا تعرف إلا وجهة واحدة لتستقرّ عليها، كانت جهة صدمتي هي ما أتوجه لها دائماً، هذا ما نما في داخلي بكثافة. كانت مخيلتي خصبة بالرؤى، لكن القرية شحت بمائها، لأقف أمامها جافاً من كل شيء إلا دهشتي... لم يساورني الشك أيامها أن أهل القرى هم أناس القحط، والأيام تتداح كمسبحة رخيصة. إننا لا نصدق الأشياء إلا حين نلمسها، لأن الإنسان مخلوق مادي ابتداء. لم أصدق ما كانت تنسجه مخيلتي من رؤى، كنت أراها ظالمة وطاعنة في ظهر هذه القرية البريئة، ومع مرور الوقت انصهرتْ فيّ أفكاري تلك لأمتزج بها على ضفاف التصديق. فما أطيب أن يصدق المرء أفكاره ويراها متحققة!

رغم مرور السنين إلا أنني لم أجد جواباً مسكتاً عن سؤالي الأقرب إلى خرافة، لماذا يبدو المسنون في خطيئتهم أكثر فجاجة؟! هل لامتداد الحياة الزمني دور في ولوغهم الخطيئة بسرعة؟! هذا ما دفعتني إليه "مراحم" تلك العجوز التي تُقبل على قبرها بهدوء الزمن الطويل، كانت تعيش حياتها بجانب الحياة بتفنن، إنها في حياتها الآن مجرد خرقة، بمسح بها الزمن ما شابه من وسخ الدنيا. إنها الهامش، فالمرء أحياناً يكون أداة تلميع للحياة، حينما يقترب من الحيادية ويغدو قريباً من التخشّب.

غريبة هي تلك الليلة، كانت لفرط غرابتها كأنها هذيان، فالمواقف في بعض الأحيان تكون وسوسة لحظات! قدِمتُ مع غرم الله لموعده الليلي مع رحمة، كنت حارس الخطيئة دوماً، لا أجعل لأحد الحق في

استراق لحظة العمر أبداً، شعوري في تلك الأيام كان يربو على ضحكة موارية، ولعنة لذة عابرة. إنني أتحسّر الآن على خطيئة ارتكبتها نظرات فقط، لم أقترفها بكليتها، فلو اقترفت هذه الخطيئة بحذافيرها أو محاذيرها، لتخشبت أمام الدنس قطعة رخام فاخرة. تأبطت عاهتي ودخلت، كانت رحمة في طرف منزلها الطيني تنتظر ولادة لذتها، وكان غرام الله بجانبي يستعر شوقاً، و"مراحم" في رحم الغرفة تتكئ على زمنها الممتد البعيد، وشهوة لم أعرف بأن المسنين يمتلكونها، في بادئ الأمر سلم عليها غرام الله على عجل، وانسل من جانبي كإبرة خياط محترف، ذهب إلى رحمة وتركني مع "مراحم"، في رحم بيت يشتكي الشهوة.

فمراحم هذه هي جدة "رحمة" امرأة ستينية شمطاء، تجاعيد وجهها تشبه كتاباً ألقاه طالب بعد امتحان أيقن أنه ناجح فيه لا محالة وأخذت السيارات تطأه غير آبهة لوجوده. لم أكن أعلم بأن الجنس في داخلها مرتفع رصيده، فقد كنت أمام الرحمة فاغراً مراهقتي. جذبتني إلى جانبها تسائلني عن أخبار أهلي والقرية، وكأي مراهق يخشى غضب المسنين انقدت، وعيني لا تستقرّ عليها مطلقاً، كنت أنظر إلى الجدار خلفها، وأنا خائف من جبروت المسنين، لأن المسنين في الشرق كائنات تصنع اللعنة، وتقذفنا في أعماقها السحيقة إذا لم نستمع إليهم، فهم الوحيدون الذين لهم قداسة لا تتفتت بنصل المواجهة أبداً.

اشتركت مع خجلي ذلك اليوم حد التماهي. أخذت تهذي وأنا مستمع، لا ألوي إلا على الفرار من فكي عجوز هرمة، وحكايات مبتذلة عن أزمان رحلت، فالمسنون يحاولون دائماً إعادة ترتيب شبابهم بحكاياتهم البائسة التي يرددونها كثيراً، وثمة حكايات يكون معها الاستماع سخافة. وقفت أمام حكاياتها كأخرس لا يحسن إلا تحريك رأسه وتناوب عينيه على التخاذل أمام السرد، وعندما شعرت بأني أمضغ الامتعاض في داخلي قذفت خطيئتها عليّ موارية وقالت:

- يا ولدي انتبه لا تمشي مع اللي أكبر منك.

- ليش؟

- كلهم كذابين ووسخين انتبه مهم!

أدركت حينها أنها تساوم على وسامتي، فأحببت أن أبين لها مدى جرأتي، فتسامقت أمام حديثها مارداً وقلت:

- لا تخافين عليّ يا جدة، الواجب هم اللي يخافون مني!

مطّت حاجبيها إلى الأعلى وهي تحلب من داخلي الانبهار بكلامي وقالت:

- يعني أنت رجّال؟!

لسبب أجهله، ابتسمت يومها غامزاً في سرّي، والسؤال يتدحرج بيننا إلى أن ارتطم بطرفي الصناعي "لماذا نحن حينما نقبل على الخطيئة نبتسم؟!"

قلت:

- رجال ومن ظهر رجال!

رميت ردي على مستوطناتها، أريد رداً يتحرش برجولتي، كدولة حربية عظمى تجرأتُ على الجنس، أتذكر أن جسدها المترهل كان يفر من ضيق كرتتها المهترئة، لم أنتبه لذلك إلا عندما وارت وقارها، أو وقار الزمن، أزاحت الستار عن شبق عجوز لم تمت بعد، ونمت في داخلها رغبتها بسرعة فائقة، وتطاولت في داخلي مراهقتي فقربت وجهها مني وهي تقول:

- قرّب مني خلني أشوف رجولتك.

كقط اقتربت منها حذراً، وبينما أنا أقترب والحذر آخذ بيدي، وكأي عاهرة محترفة، أمسكت بيدي وجذبتني إليها بقوة، وزرعت قبلة طويلة وحارة على خدي وهمست:

- أنت رجال بس شنبك باقي ما طلع.

- لازم شنب يعني؟!

- لا مهرب لازم.

واندفعت بسرعة خائف، كانت تخشى فراري، وقبّلت شفتي بقوة، وأخذت تمصها والأشياء تدور من حولي، كنت أدوخ وأتذكر توتر جسمي، وأصداء في الفضاء تردد بصوت لا يأتيني إلا خفيفاً جداً "يا وليدي لا تعلم أحد"!

منذ أن عبرني هذا الموقف، وأنا أستلذ رجولتي على وقع مشهد، لم أجتز المرحلة التي يمكنني من بعدها أن أنفز فوق منطق المواقف واجترار الذكريات، اغتصبتني بلذة، فخرجت وأنا أحمل قناعاتي بألم! إن العهر يسكن الأنفس ولا يغادرها مطلقاً... عندما عاد غرم الله ملطّخاً بدنسه، نظر إليّ بشيء من النصر الطافي على محياه وهو يقول:

- والله هالبنت يا قصاص أخذت عقلي!

عندما فرغ من هذه العبارة، وبعدما استوعبت معناها بدأ يسكنني السؤال، كيف يمكن للإنسان الانتماء إلى فتاة بكل ما فيه وقد شاركه فيها غيره؟! وصوت مراحم يأتيني من فضاء لا يعرفه أحد "يا وليدي لا تعلّم أحد"!

***

أتذكر جيداً ما قاله عمي التاري مرة، حين قال:

- إن المرأة التي تدفعك إلى اللذة بعنف، لا ينبغي أن تستأمنها على حياتك وتربية أبنائك!

كان يحيرني كثيراً، كنت حين أفكر فيه أقع فريسة للأسئلة وفلسفة التناقض، كان يحمل تناقضه بين جنبيه، ويقتات لذته بوقار المسنين. حينما سألت أبي - رحمه الله - لماذا لم يتزوج عمي التاري مطلقاً؟! كان جوابه يحمل السخرية بالقدر الذي تدهشك فيه فلسفة الخطيئة في نظر عمي ، أحياناً كنت أرى التاري هذا يستهدف منطق العهر في داخله فيتبدى في نظري مراهقاً مكرراً.

قال أبي:

- عمك يا ولدي كلما أردنا له خطبة امرأة ما كان يقول "هذه قحبة" حتى لم نجد له امرأة عفيفة، ومضى الزمن وهو لم يتزوج، كان عمك ينتظر فتاة قادمة من عند الملائكة.

- وهل كل النساء اللواتي خطبن له فعلاً فيهن ما قاله؟!

- خرف المسنين يا ولدي.

عندما سمعت هذا التأويل من عمي، لم أكن أعرف هل كل النساء اللواتي خطبن له فعلاً "قحاب" أم أن عمي عجوز خرف كما يقول أبي؟! رغم كل الألم الذي مضغته في حياتي إزاء هذه القرية، إلا أن مبدأ الطهر الزائد تجاه البشر في حياة القرى مبدأ المغفلين، فالقرية علمتني أن البشر أبناء الشيطان.

ذات يوم وبينما أنا أسير بسيارتي، صادفت عمي النتاري متأبطاً عكازه، وقاذفاً بنفسه في فضاء من التفكير. عبرته، ولم يلق لي بالاً، وهو القادر على إحداث الدهشة فيك من ثقب نظرة يقتادها من البعيد ويلقي حكمه بأن القادم فلان من البشر... كان في حياتي مثار تخشب، وكنت أخط تصرفاتي بعيداً عنه كي لا أبقى في نظره أحمق، وعندما أكون في حضرته أسحب مناديل الهدوء والرزانة وألوّح بها أمام ناظريه ليغمى عليه، لأن قاموسه يقول بأن كل من لا يتقن السير على مبادئه باحتراف يغدو أحمق.

حين عبرته ولم يكترث لي، عدت إليه بغية فهم معنى أن يعبره إنسان دون أن يركز نظره عليه، هو الماثل دائماً أمام الأعين بابتسامة بلهاء، عندما وصلت إليه وجدته غائراً في التفكير كمسمار علق في جدار، ثبّت بمهارة نجار مخضرم، وقفت بجانبه ولوّحت له:

- كيفك يا عم؟

نظر إلي واستغرق في النظر برهةً كي يميزني، كنت في رؤيته آنذاك أشبه بالعدم، أو إنساناً قابلاً للتشكل من فرط هلاميته.

رد:

- هلا يا ولدي.

- وش فيك يا عم، تبغاني أوصلك؟

تركني وبدأ يسير بخطى ثقيلة أقرب للتراجع، متجهاً إلى القرية المجاورة لنا، وقوله يرن في داخلي كجرس يوم مدرسي:

- يا ولدي إذا لقيت رجلاً غارقاً في تفكيره، فالأفضل ألا توقظه. ربما كان يفكّر في حياته، أو ربما كان يخطّط لشيء لا يقدم عليه سوى المسنين.

***

في داخلي شيء يتهرّأ، فقد بدأت أفقد اللذة في الحياة، فالإنسان حين يفقد الرغبة في أشيائه التي تدفعه إلى الحياة، تصبح الحياة مرحلة غير مستقرة أبداً، وهي من الانتقالية بركان ثائر لا محالة، كنت أقول في نفسي كثيراً "ما أضعف الإنسان حين يقدم على حياته بلا تذوق، فكيف لي أن ألوك حياتي بمرارة وحمدة تفتات حياتها بلذة"! فالرجال غباوات معلبة، يخالون دائماً أن الأنثى التي تقطع معهم مساحات واسعة من العبث، غير قادرة على نسيانهم لكن ذاكرتها حين تعبره تركنه في ركن قصي منها وتبادر إلى بذر مساحات أخرى من الحياة، فهذا ما كنت أظنه، ولكني فيما بعد صرت أتكسّر كالزجاج.

مع مرور الوقت لم أعد أطيق التفكير فيها، لأن الفرد عندما يفكر كثيراً، يصبح قطعاً متتنة، فنحن حين نؤثث الذاكرة بالتفكير المطلق بأحد ما، تأتي اللحظة التي تقذفه لوحاً غير قابل للتسمير، أو ليس له فائدة النظر أصلاً!

***

كلما أتذكر العجوز مراحم وعبثها معي تلك الليلة أتذكر أول خاطرة كتبتها لحمدة، فالمواقف الأولى تتلاقح كثيراً بين كل امرأة وأخرى، فأنا أتعب كثيراً إذا تذكرت أول خاطرة نسجتها لحمدة، حين التقينا لأول مرة في ظلمة ليل قروي، لأنها تذكرني بمراحم كثيراً، ربما لأنهما أول امرأتين مرتا في حياتي، وأتذكر جيداً أيضاً أنني حينما قرأتها لها كالطفلة كانت تضحك، وكالمسمار كنت أثبت فيها، لكن الحياة كفيلة بأن تربي هذه الطفلة لتكبر، وتنتزعني من داخلها حديداً صدئاً. كتبت لها أول خاطرة من صفحتين، لكنْ صدقاً لا أتذكر منها إلا آخرها حين كتبت:

"أنا غصن يابس...

وأنتِ الماء، أنتِ الهواء..

أنتِ حضارات الأرض.. ودستور السماء"

الآن لا أدري لماذا لم أتذكر إلا نهاية تلك الخاطرة؟! ولماذا الإنسان حينما يكتب لا يتذكر إلا بداية كتاباته أو نهايتها؟! ولماذا عندما أتذكر هذه الخاطرة تتراءى العجوز مراحم أمام ناظري لكن حماداً يفضّ بكارة أسئلتي دوماً فقال لي يوماً:

- إن الوسط حيادية صرفة، والإنسان الذي ينتمي إلى البداية أو النهاية، إنسان متطرف، فالحياة تطرف في المجمل يا صديقي!

أصبحت بعد تلك العبارة، حين أقرأ، أبدأ بقراءة بداية أي كتاب أولاً، ثم أرتمي إلى نهايته فأغرس فيها نظري، ومن ثم أعود إلى الوسط بتلذذ مثير.

السنة الأولى بعد حمدة

أوقن أن معنى أن تقابل امرأة في جنح الارتباك أمر مفزع فعلاً. كانت الأقدار ترتسم في فضاء واسع، كانت تأتي دفعة واحدة، تأتي بتسلسل. ألم تكن جرعات الخوف في بداية علاقتنا دافعاً لتأخير تهوري وحبي وعشقي، وانتمائي العاطفي ذلك؟! ألم تكن لي مسألة تعقّل فقط لأخرج من دوران عاشق مبتدئ؟! ابتدائية عشقي لم تمهلني أن أتدرج في اختبار " توفل " عشقي، كنت أشبه بالأطفال دوماً يصرون على لعق أصابعهم حتى لو كانت تمتلئ بالقذارة، فعندما نندفع غير مبالين بقيمة عواطفنا سندرك فيما بعد تسرب الحياة بين جنباتنا ونفقد القدرة على التماسك أمام متغيرات الحب، فالحياة لا تحتاج إلى اندفاع بقدر ما يربكها حضور التأمل دوماً!

كان لقائي الأول معها غريباً في تفاصيله، فقد كانت بداياته شيئاً بشبه حل معادلة حسابية، يبدأ من نقطة ليصل إلى نقطة، فكانت هي وأخوها يمارسان عليّ دور أدوات الحساب، وكأنهما يعملان في مؤسسة خاصة، فقد كان مسراي مع غرم الله ليلياً يستطيل إلى أن غدا سلسلة الزمن أو العفن المقيدة، حتى جاء ذلك اليوم الذي ذهبت لغرم الله أستبق مأساتي. يحدث أحياناً أن يستبق المرء مأساته، ويدخل معها في لعبة رديئة، ليموت مختنقاً برائحتها الكريهة. وقفت أمام ذلك الباب الحديدي الصدئ، أستند إلى عرجتي، وبينما أنا أنتظر أقبلتْ إليّ تجر معها جمالها وخيبتي، كنت أنظر إلى مأساتي بفرح، وكانت تسحبها بغباء، لنتفق في النهاية على أن الحياة نظرة تشاؤمية صرف.

حين أقبلت قالت بخجل وبساطة:

- نعم قصاص؟

- حمدة وين غرم الله.

- غرم الله يتعشى، ادخل وتعشى معه.

لم أكن أستطع تمييز دعوتها تلك، هل كانت تقصد بها أن تقرّبني من حتفي؟! وماذا دعاها لهذه الدعوة في ذلك الوقت بالذات؟! إن بعض الأسئلة غريبة غرابة طرحها، لأن السؤال الذي يقف على حدود الحدة سؤال غريب فعلاً. قلت:

- شكراً، إذا خلص عشاه قولي له يجي لبيتنا.

- خير إن شاء الله.

لم أكن متأكداً هل كانت تعرف ما نحن عليه في خلواتنا الليلية؟! ولم أستطع سؤالها فيما بعد خشية أن تكون مدركة لما نحن عليه، لأن الإنسان من فرط حبه للطهر لا يحب أن يستفز العهر في نفوس الآخرين تجاهه. رمقتني بنظرة أودت بتوازني. فأنا الأن في عداد المختلين عاطفياً، لا يفصلني عنهم سوى كيلو مترات من التماسك فقط، كانت تلك النظرة قاتلة، أنا الميت منذ زمن أفل بسبب عضو رحل. ومن الظلم أن تتكرر مأساتك وأنت مازلت طفلاً. سألتها فيما بعد عن سبب تلك النظرة القاتمة والمميتة، فقالت بخجل العذارى:

- كنت أخشاك.

لم أكن أتوقع أن تمتلئ نظراتها بهذا الشكل، أنا الذي لا يخافه أحد أبداً. منطقي جداً أن تخشى المرأة الرجل، لكن أن تخشاه وهو بنقصه عضو هذا غير منطقي أبداً، لأن المعاقين يدرّون الرأفة في قلوب الناس ولا ينتزعون منها الخوف. قالت بأنها تخشاني، وضحكت فقط. شعورنا بأجسادنا من جراء كلمات تقال، أشبه بشعور الغريب في مجتمع برطن بلغة لا يعرفها. من بعد تلك النظرة تجاسرت على عاهتي، وتجاسرت على حياتي. صحيح أنني ظللت فترة من الزمن متردداً في الإقدام تجاه غموضها، لكن ما زاد إقدامي أنني كنت أرى أبناء عمومتي

كلهم يلوكونها بأعينهم ويشتهونها زوجة، حدث ذلك حينما جاءني نضال يوماً وقال لي:

- والله حمدة حلوة مرة.

حينما سمعته تفجّر السكوت في داخلي، وأنا أتساءل هل كنت أنتظر عبارة كهذه لأقدم استقالة حياتي لحمدة؟! حين نصبح على بعد مسافة قصيرة من الانفجار نبكي، لأننا سنفقد شيئاً من حياتنا حتماً. لا أدري لماذا بكيت تلك الليلة بعدما سمعت ما قاله نضال، هل هو شعور الفقد الذي كان أكبر من إحساس الامتلاك في داخلي؟! أم لأنني معاق فقط شعرت بأنني دخلت في مفاضلة مع الأسوياء في الفوز بقلب امرأة؟ كتبت لها رسالة طويلة في اليوم التالي، أستدرّ فيها حنانها وحبها، ورأيها فيّ، لم أكن متأكداً من ردة فعلها، لكنني كنت أريد تبديد مخاوفي والأوهام العالقة في ذهني، لأن الوهم نقطة صغيرة جداً في جدار الحقيقة الضخم سرعان ما تمحى. أتذكر أنني ذيلتها بتوقيع مازال يحاصرني إلى الآن، ولا أدري لماذا وقعتها بذلك التوقيع؟! أرسلتها مع أخي "رشود" وأوصيته أن يقول إنها من قصاص.

كتبت توقيعي في نهاية تلك الرسالة "شخص"، فهل كنت أحتاج إلى التنكير أكثر مما أنا فيه من تنكير؟! أم أن محاولة كتابة اسم "نكرة" في ذيل رسالة عاطفية دعوة ضمنية مني بأنها لابد أن تتوقع أسوأ الاحتمالات؟! حتى وإن كانت المعارف قوة لي بعض الأحيان، فإن النكرات مدعاة للغموض، وديمومة للريبة، وهذا ما أسال لعاب تفكيري في تلك الفترة.

عاد رشود وأنا أتأبط همّ هذه العودة، عاد ليجدني أصارع من أجل البقاء، فالحب في بلادنا صراع من أجل البقاء، وهو قفزة صغيرة في وجه المجتمع إثباتاً للوجود. إن العشاق حيوانات تجاهد كثيراً لتبقى في بلاط الاهتمام دوماً، إنهم يحتاجون إلى طرق لبحتالوا بها على الحياة، والبقاء أطول فترة ممكنة. قد أفهم أن يعشق شخص في بلاد تختلف

عنّا، لكني الآن لا أفهم عشقاً في بلاد يكون فيها الحب جرماً وخطيئة، ففي بلادنا فقط الحب رذيلة وخطيئة لا تغتفر!

عاد إلي وقال وهو يضحك:

- قول له أنا راح 'فكر وأرد عليه.

عندما تهدأ المرأة أمام امتحانات عواطفها، فهي راضية حتماً. هكذا فلسفت ردها، لأن الانصياع الأول، هو الدليل الأوحد على ردود الأفعال، أياً كانت.

***

قال لي عمي التاري عشية أحد الأيام:

- لا جدوى من استدرار عطف أنثى ما، لأن الأنوثة استباقية العطف دائماً!

لم أستوعب عمق هذه الفلسفة من عمي، لكني آمنت فيما بعد بأن حقيقة الأنوثة أنها مسائل فيزيائية تحتاج من الإنسان فقط إلى الإجراء السليم في التعامل معها، للوصول إلى النتائج سريعاً. ذات يوم، منذ أكثر من عشر سنوات، أتذكر أنني حضرت وملء فؤادي حسرة، حين كان حبي لها يتبختر، كنت قادماً بسيارتي وزوجتي بجانبي، وحين وصلت إلى المنزل الذي دارت فيه رحى لقاءاتي مع حمدة، أنزلت زوجتي أمام باب المنزل، فخرجت حمدة منه متشحة سواداً غائماً، يجعل من قلبي نتفاً تتقاذفها الرياح، وبقيت أتكسر في مقعدي و'نا لا أستطيع إلا اجترار فاكرة ملأى بالهموم، وركبت في سيارة زوجها، ومرا بجانبي وأنا في سيارتي، فألقى علي زوجها تحية عابرة وابتسامة ملأى بالغموض ومضى. فما أوجع أن تتكسر كل القيم الجميلة في حياتك على مرأى منك. أتذكر هذا الموقف الآن جيداً، وجرح حبي ينزف حبراً و.. ذكرى.

شيء ما كان يتغير فينا، لا أدري هل هو حبنا؟! أم أعضاؤنا؟! أم

الزمن؟! رغم أن الحياة هي الحياة لا تتغير البتة، إلا أنني لا أكاد أصدق بأنني خرجت من هذه اللعبة خاسراً، حباً وكرامة، أأنا قوي إلى حدّ أنني صمدت أمام خسراني لحبي وكرامتي؟! وكيف يعيش المرء وهو فاقد عذرية حبه وكرامته في آن؟!

***

بعد مرور أيام على إرسالي لتلك الرسالة، جاءني رشود على موعد غير مسبوق، جاءني على حين غفلة، وكأن ميلاد الحب لا يريد أن يكون معي منصفاً، ولهذا لم أتنبه أن حبي كان ابناً للخطيئة إلا مؤخراً، وإلا لماذا جاء الحب مستتراً وكأنه يخشى المواجهة، والحب الذي يخاف المواجهة حب جبان، ألم أجرؤ على حرق تلك الورقة التي جاء بها رشود ككاهن مجوسي في تقديس ممتلكاته إزاء معتقده؟!

بعد مضي هذه السنين العجاف من عمري، مازلت أعول على رشود بموتي، كما عولت على ذلك المسمار بعثرتي، لأن الحدث الأول هو دائماً ما يبقى في الذاكرة. أتى رشود يحمل ورقة، كان طفلاً، وكانت إرهاصات فشله الدراسي بادية على محياه، وبوادر إخفاقي في تجربة الحب تظهر وتختفي، لكن سادية الحب في داخلي أفقدتني لذة التفكير في حبّ هندسي كذاك. كان يحمل نجاحها في اجتياز امتحان عواطفها في ورقة، سلّمني إياها، وذهب. لم تكن ملأى بالكلمات، ولم تزد على ثلاثة أسطر، وبقيت هذه الأسطر الثلاثة عالقة في الذاكرة كتبت:

"من أول يوم شفتك فيه، والله أعجبتني وصرت أفكر فيك كثير، صح إني ما حبيتك بس إني أفكر فيك كثير، وتأكد إن مشاعري زي مشاعرك والأيام الجاية نكون أحلى إن شاء الله".

ما يلفت أنها لم تذيل رسالتها تلك بأي توقيع، وكأنها تريد مني أن أمضي على نهايتي، وُلد حبنا ورقاً وحبراً، ونما بيننا حبراً وورقاً، والآن

أنا من يمجّد ذلك الحب حبراً وورقاً، ألهذه الدرجة خرافيٌ أنا في رسم حب وشخصيات وأحداث على صفحة ورقة؟! أكل هذا المشوار في الكتابة من أجل أن أتعذّب أكثر حين أقرأ ما كتبه أو يقرأ الآخرون حب القرية ذاك ويكثرون في الإطراء أو الذم أو المناقشة؟! عندما بدأت أكتب حياتي هذه، لم أحتج إلى جهد في نحت القصة، لأنها قصتي، جاءني حماد وقال:

- ألا تخشى أن تبقى رهين هذا الحب إذا نُشِر؟!

وقع علي ما كنت أخافه فعلاً، فالأحداث حين تُكتب تلد ولا تموت أبداً، وأخطاؤنا الصغيرة تكبر حينما تُكتب، نظرت إليه بإشفاق مركب على نفسي، وعنجهية على قلمي وقلت:

- غباء أن نبقى حبيسي ورق، حينما نتعذب من أجل ورقة فالأجدر بنا أن نحترق ونترمّد ونُنفَث في الهواء!

صادرت كل مستحقات الحب، ولم يبق لي منها إلا رسالة لم تُذيّل بأي اسم. أللحب عنوان دائم؟! يا ترى هل لـ طريقة ثابتة؟! لا أذكر أنني قرأت حباً أثناء حياتي قبل حمدة، لأنها كانت تبدو نقطة تحوّل في حياتي، إنها على أقل تقدير حقبة استعمارية شديدة البؤس في نتائجها، ملأى بالسعادة أيامها، فهل الاستعمارات لذيذة في بعض الأحيان؟! لا أعرف بلداً أوشك على التقاطع مع مستعمريه، كقوة داخلية لا تحترف إلا الوعثاء، إلا أنا فقد ارتميت على حمدة بقوة، كلغة أتقنتها بامتياز.

حتى "زبيد" حين كان يحدثنا عنه عمي التاري لم يوافق على مبدأ الاستعمار كمبدأ لذيذ مطلقاً، وإنه ضمنياً لا يوافق على مصطلح استعمار، لأن المسنين الذين لا يجيدون القراءة، لا يرشقون إلا الحكايات لتبيان فلسفتهم تجاه الأشياء، إنهم حالة تلفّظ دائمة، كان يفلسف اتجاهاته بقصص وروايات، نفهم من داخلها، أن القوى الدخيلة على أي مكان بها من الاستخفاف باللطف، بالقدر الذي يتساوى فيه مع العنف، إن كل المستعمرات على وجه الأرض فراش عاهرة، يضاجعها

المستعمرون ويسرقون منها لذة لحظة، وينسحبون لتبقى أجساداً يكسوها الجفاف.. عندما سمعت عمي النتاري يتحدث لأول مرة عن الأتراك وتقاطعهم مع القرى، أوشكت على تكذيبه، لأن بعض الأحداث حين تنزلق من ألسن المسنين تفقد هيبتها، فالمسنون ذاكرات مهترئة!

قال:

- كان "زيد" يتحدث عن الأتراك كحلم، كان يقول إنهم نزلوا في بعض القرى خلف الجبال فترة طويلة، حتى أنهم أسبغوا بشرتهم خلف هذه الجبال، وتركوها للجفاف، كانوا يمارسون التخريب علناً، حتى أصبحت لغتهم ولعنتهم تعششان في ألسن الناس وأفئدتهم، إنهم كانوا يحاولون تغيير مبادئ الناس، وحياتهم لتغدو تركية، ففترة الترك كانت فترة الجهل، إنهم الحقبة التي جعلت من القرى شعوباً جاهلة، وهذا ما جعل الآخرين يأخذون فسحة في أراضيها وتوغلوا فيها.

حين كنت أقارن بين حمدة والأتراك، كنت أرى تقاطعها معهم إلا أن حمدة كانت في بداية الأمر باعث سعادة، ولم يكن الأتراك يوماً باعثي سعادة قط، كانت تتفق معهم في سادية حضورها، وتلعثم المواجهة أمامها دائماً. كانت سلطوية بالجملة، كانت أشبه بالحرائق والموت والدمار، والتهدم، علامات تركية كما هي أحرف اسمها في ذاكرتي، ولا أدري هل كان تقاطعها هذا وليد فكرة آنية؟! أم أن القدر حينما يوارب فكرة ما لا يُظهرها حتى تفسد كل ما تصنعه بنا؟!

كتبنا عقد حبنا بأنفسنا، لم نكن بحاجة إلى مأذون غير شرعي، لأن الحب في بلادنا لا يولد إلا خلف الحيطان، ووراء الحقيقة، وتحت ركام مبادئنا الدينية، وأنقاض المثل الاجتماعية، ونحن نداوله فيما بيننا أوراقاً، ويقف رشود وشمعة شاهدين عليه. فهل كانت شهادة هذين الصبيين سخرية قدرية فاخرة؟! صبيان يشهدان تزاوج أرواح على الورق. إنني أملك من الضعف زيادة عندما أستدر رضى أحدهم من خلال عمل أدبي، ولكن ثمة هواجس تتراءى لي، أليس كل كُتّاب الروايات العاطفية

في العالم أناساً خُذلوا أو خذلوا أنفسهم وهم يقدّمون أفكارهم وألقابهم ولغاتهم قربان رضى لهذه العاطفة؟! فنحن بحاجة ماسة لاغتيال كل الكتاب الذين يغرفون من نهر العاطفة، لأنهم يخلّدون المأساة، ويروجونها، ويجعلونها قابلة للاستهلاك في كل الأزمنة. وأنا أولهم، أحتاج إلى من يقتلني، لأنني تجرأت على المسّ بقدسية العاطفة، فالعواطف أحجار سوداء مقدسة أو أركان يمانية.

عندما تتراءى لي حمدة الآن أتذكر دائماً تلك القصة التي ذكرها لنا عمي التاري عشية أحد الأيام، تلك القصة التي ذكرها ليقتطع من وقته الفارغ دوماً، وتركها في داخلي كالوشم. عندما ذكر مأساة شيخ لإحدى القرى اغتاله أحد جنود الأتراك، لأنه أبى أن يسلّمه بنته التي تفتحت على الحياة قريباً. إن كل القرى التي حكمها الترك، وقفت على مآس كثيرة، حب التسلط، وسادية التصرفات، والجهل، والنزاعات الدموية، والدمار، والفساد في الأرض، إنهم ظاهرة كونية، لأنهم حين يرحلون لا يرحلون إلا وقد رسموا تقاسيمهم على وجوه الناس وحياتهم، في ديار لم ينتسبوا إليها إلا استعماراً فقط! مضى على موتي سنين طويلة، لكني أحس بأن الكتابة تعيد حياة المأساة في أوصالي، أليست الكتابة هي التأريخ؟! هذا ما قاله لي الدكتور "أبو رحال" الذي كان يعالج ابني البكر "عمار" حينما علم بأنني كاتب، قال لي وهو منهمك في فحص ابني:

- أأنت كاتب!؟ يا سيدي الكتابة على كل ما تحمله من هموم هي تلوين للتاريخ!

تركته ذلك اليوم وفي داخلي شيء ما، شيء يعترك بقوة، وصدى برتفع ويخفت "التأريخ لا يحتاج إلى تلوين فهو يملك من البهر ما يبدّد سلطة اللون"!

السنة الثالثة بعد حمدة

أعترف بأنني كنت نشازاً...

كنت نشازاً وفق مفهوم تلك القرية الجاهلة، لأن كل القرى وليدة التخلف، تُؤثث فيها الجهالة محاطة بدواب وأعشاب وروث غنم. فالإنسان الذي يعيش مع الدواب يصير دابة بوجه آخر! كنت أعرف ذلك عندما أذهب مع أبي لشراء الصحف والمجلات في أعدادها القديمة التي لم تجزني عاهتي والقرية بأن أقرأها في وقتها تخلفاً، فأصبحت ألوك تلك الصحف كأكلة منتهية الصلاحية، لذا كنت أدرك بأني نشاز، ومختلف. فليس بالضرورة أن يكون النشاز تخلفاً دائماً، ربما يأتي النشاز يوماً اختلافاً براقاً. ابتدأت علاقتي بالصحافة عندما كنا في المدينة، حين كان أبي يجلب معه يوماً من العمل صحيفة الرياض، فحين ينتهي منها أتناولها بنهم سجين عاش في العتمة والجوع، وفجأة وجد أن الموائد كلها تركع أمام ركبتيه. أتذكر أنني كنت أول من أقرأ صفحات الرأي والأعمدة والزوايا اليومية، التي تقوم عليها الصحف كلاماً، لم تغرني البهرجة الإعلامية في تحقيقاتها، ومانشتاتها، وصورها اللامعة، والفضائح، والحوادث، والكوارث، إلا بعد أن قطعت مسافة نبيل في معركة الرأي والكلمة.

استهواني كتّاب كثر، وامتد هذا الهوى حتى بعد موت بعضهم، كنت أحتفظ بأقصوصات من مقالاتهم وأقرأها حتى هذه اللحظة. ما أعظم أن يبقى معك إنسان حياتك كلها لمجرد كلمة! إن وسطاً يكون فيه القارئ علامة تعجب كبيرة، لا تنظر إليه إلا أنه علامة استفهام أكبر، لأنه لا جدوى من محاكمة الأوساط، لأننا إن نفعل ذلك فإننا نمتهن

المحاكمة في شرفها، ونحيلها لماهرة، لأن المحاكمات نبل، لسبب أن المحاكمة حكم سيقال، بينما الأوساط الرديئة لا تستحق نبل الحديث البتة.

كنت أقرأ وكان من حولي لا يفهمون إلا لغة الأجساد كوسيلة واهنة في تبديد الأنا والنحن، إن ما كان يتعبني ومازال إلى الآن أنني قرأت الإنسانية ولم أقدر على ممارستها إلا كتابة وقراءة. فالقراءة أنسنة حقة. لا أدري هل كان غباء أم كان ذكاء مني حين كنت أحاكم واقعي بين إنسانية كتاب، وعهر جاهل؟! كنت أقرأ الأنسنة صباحاً، وأجاري العهر ليلاً، وأبكي حين أخلو بنفسي، لأنني ناقص تجاه كل ما أمارسه! آه. مجتمعي كان عاهراً باحتراف، ومثالياً باحتراف، وأنا بين الاثنين أتكسّر كلحاء يابس. فأن تكون بين المتناقضات دوماً، فكيف يمكن أن تخرج من نعت المتناقض؟!

بعد مدة من الزمن بدأت أجيد الكتابة. لكن أن تحيا في مجتمع يعتبر الكتابة جهداً يبذله الإنسان من وازع فراغي، فتمزق لا يوصف. هذا التناقض ابتدأ في اليوم نفسه الذي وصلنا فيه إلى القرية عندما صدمت غرم الله بردي يرمذاك، ولم أتبين وجه "حمدة" بعد، ولم أدرك أبعاد الفتنة في نظراتها، ولم أستوعب بعد جملة أن يكون ثمة شيء فاتن، شيء يغير الأشياء بنظرة، إن الفتنة شعور غامض وتواطؤ باهت بين الرائي والمرئي، إنه اتفاق ضمني للوقوع في فعل غير محبب، أو مدبب لا فرق، إن الفتنة تبادل خفي يقود المرء إلى ممارسة أشيائه بخفية.

في أول يوم لي في حياة النشر، خرجت راكضاً. خرجت ألتحف سعادتي وعاهتي. إن أنكر البؤس أن تمرر سعادتك من خلال إعاقتك. بدأت أظهر ككاتب صحفي. كان أول ظهور صحافي لي، كنت مولعاً بالكتابة في مجال الرياضة، وما زال السؤال يسكنني إلى الآن، لماذا بدأت الكتابة في عالم الرياضة وأنا لا أستطيع ركل الكرة؟! مفارقة

موجعة أن تنتسب إلى وسط لا تمارس فيه أشياءه، هكذا كنت، أكتب في مجال الرياضة بتعصب، وأنا العاجز عن فهم استدارة الكرة ملمساً. كانت صحيفة الرياضة هي أول صحيفة تقبل بي كقلم، أرسلت إليها مقالة، فنُشرت، وهذه الصحيفة لا تعلم بأن من يكتب عن كرة القدم شخص ينقصه قدم! في ذلك اليوم الذي نشر فيه مقالي، اشتريت من العدد نفسه ست عشرة نسخة وقمت بتوزيعها على أصدقائي، كل ذلك لم يكن إلا عزاء لإعاقتي.

كان عمري آنذاك ستة عشر عاماً ومن بعدها بدأت أتمرس في مشاهد النشر، الغريب في الأمر أنه تم استكتابي ككاتب رسمي في هذه الصحيفة بعد أقل من شهرين، وهم لا يدرون بأن من يسطّر لهم عمود الكلمة الرياضية إنسان خال من العنصر الرياضي أصلاً. فعندما نعيش في بيئات ليست لنا، نتلاشى ونغدو طفيليات! أكانت تلك الفترة من عمري وهماً مغلفاً بالإصرار الأبله؟! أكنت أعوّل على ضعفي لأهدمني؟! أم أن العاجز دائماً يملك الإصرار على رتق الحياة بجيوت الحمقى؟!

***

أتذكر مقولة لزبيد ذكرها عمي التاري لنا يوماً عن الأتراك قال:

- يحدث أن يتكئ العاجز على ضعفه، إذا كان يريد أن يربو على سلّم الحماقات!

قال لنا هذه العبارة وهو يسرد لنا قصة التركي الذي أراد مضاجعة امرأة اشتهرت بجمالها بين القرى وقد كان وحيداً وأعزل، فحاول استلطافها وإغواءها ببشرته التي تنقص سكان تلك القرى وحين علموا بمبتغاه قتلوه وهم يركلونه.

***

يزداد مقدار تعاستي إذا وقفت على الماضي لأجتره كماض متهدم، لأن الماضي يسكنني إلى الآن، إنه عضو زائد في تكويني الجسماني لم أبتره بعد، إنه حمى مازالت تعبث بي كيفما شاءت. إننا نتعذب من الماضي إذا كان أكثر هواناً وضعفاً، ونبقى أسرى له وفيه، إذا رَكَلْنا إلى المستقبل واسماً على مؤخراتنا سمته، فالماضي شبح يدهم المستقبل ويبكيه. فحين أتذكر تلك الأيام أشعر بأنني كنت غبياً فعلاً، لماذا تعاطيت الهمّ الرياضي وأنا لا أستطيع أن أمارسه فعلاً، لكنني لا أنكر بهجة النشر عندما تنشر لي مقالة وأرى اسمي تحتها مكتوباً بخط أعرض، فقد كنت في تلك الأيام أشعر بالفخر إزاء رؤية اسمي في الجريدة، وتسارعت الأيام معي وأوغلت في الكتابة الصحفية. أصبحت كاتباً مشهوراً عند قراء كثر، بينما قريتي لا تعرف عني إلا العاهة. بالله. كانت هذه القرية تقامر ببقائي فيها، وأنا أستزيد إصراراً على المكوث حيث الخذلان هل كانت القرية تستحق أن أبقى فيها مجادلاً ومصادماً لحقيقة القدم في الغباء؟! أم أن قدري كان محبوكاً بدقة؟! في أيام كثيرة كنت أوشك على الانهزامية، لكن شيئاً في داخلي كان ينبئني بأن القادم سمته الأجمل. ولم يكن القادم أجمل بكل شيء، بل كان قيداً بطوّق ذاكرتي. فنحن مهووسون بذاكرتنا، إذا بقيت أكبر حجماً مما نعيشه.

بعد مرور سنتين على استكتابي في الجريدة، وبعدما اشتهرت في الوسط الرياضي ككاتب مشاكس على حد زعمهم، اتصل بأبي أحد الصحافيين، بعدما علم بعاهتي، لأنني لم أكن أملك أي وسيلة اتصال تربطني بالناس، أو تساعدني على دخول عالم الثورة الاتصالية، طلبني الصحافي من أبي بأسلوب الصحافيين المؤدب، وحينما كلمته عرض علي فكرة الحوار، وفوراً قبلت. لأن ليس أفضل من نشر مقال في عمود صباحي، إلا صورة لك تتوسط صفحة وتأخذ حيزاً كبيراً منها، ومن حولها يلتف كلامك. كان الوقت الذي يفصل بين المكالمة الهاتفية

وإجراء الحوار، عقداً من الانتظار، حتى جاء ذلك اليوم الذي حصل معي هذا الحوار.

كان الصحافي من إحدى القرى التي تجاورنا، لم يكن يعرفني، لأن الخارجين من القرى يتركون ذاكرتهم في أحد دواليبها الحديدية الصدئة، ويرحلون تاركين العثة تقتاتها دون أي شعور بالذنب، ولا يعودون إليها مطلقاً، لأن ذاكرة القرية لا تجدي نفعاً في عالم التمدن، قدم ذلك الصحافي من المدينة، لسبب أجهله، لكنه أجرى معي الحوار، كان شاباً ماهراً في بعثرتي، مباغتاً في أسئلته، فلم يطرق باب الأسئلة المستهلكة، كان أول أسئله:

- قصاص كاتب رياضي ومعاق في الوقت نفسه كيف استطاع التوفيق بين الكتابة الرياضية والإعاقة؟!

ضحكت على مرارة هذا السؤال الحاد وقلت:

- أن تشعر بأنك مجموعة هائلة من التناقضات فهذا لا يعني أنك غريب لأن الحياة في المجمل قمة المتناقضات، لذا عندما بدأت أكتب في الرياضة حاولت أن أتصدى للقدر بقلم!، فالإنسان من الضعف يهوي بمبرراته على الحياة وهي مبررات في غاية الغرابة، أنا كذلك إلى الآن لم أجد جواباً مقنعاً عن سؤالك، لكني وبكل صدق أحب الرياضة كثيراً لفرط ما أنا محروم منها.

- وهل أنت مقتنع بأن الكتابة الرياضية مُرْضِية إلى هذا الحد؟!

- الكتابة في كل ما تحمله مرض وليس رضى، فالكاتب إنسان مريض يحاول أن يعالج الناس وإحساسه بالألم يزداد، لكن الكاتب الناجح من يستطيع أن يحترف الألم عن وجع حقيقي وليس كذباً وارتزاقاً!

كان الصحافي في ذلك الحوار يتخبط في وحل تناقض مراهق وجد نفسه كاتباً بالصدفة، وكان يستدرجني إلى أن أعترف بضعفي علناً، فكل الصحافيين أشخاص يحبون الفتنة، إنهم خلقوا لتبقى الأرض في تأرجح،

لهم شقاوة مبطنة بالخبث أحياناً تجعل من طرائدهم شيئاً يشبه الأراجيح. لم يكف الصحافي عن مشاكستي، ولم يختر أي مكان لنتفاوض فيه بهدوء، كان يشعل فتيل المخاصمة الضمنية بسرية مهني، كنا عدوين على ورق، وجسدين متقابلين في تضاد داخلي رمادي الشكل، قال:

- أستاذ قصاص، تعلم بأن الكرة مرتبطة بمن يعطيها أكثر، فهل تؤمن بأن لكتاباتك وقعاً على أرض الميدان؟!

لا أدري كيف كنت سأجيبه عن سؤاله هذا، في الحقيقة كان سؤاله هذا بالذات، مراوغة خبيثة، وعنادَ صحافي في التحايل على الأسئلة، فثمة بعض الأسئلة لا يجاب عنها تلقائياً، بل تترك قليلاً لترتسم إجاباتها على وجه من سألها، ويُعيّد هذا الارتسام يجاب عنها، وهنالك أسئلة لا نستحق منا أن نجيب عنها، لأنها إجابات بحد ذاتها. قلت:

- أنا لا أكتب ليفوز الفريق الذي يستهويني، لأن من يعوّل على الكتابة شخص لا يدرك قدرات القلم في الوطن العربي، أنا أكتب لأنني أحتاج إلى الكتابة بوصفها تفريغاً وتمزيقاً، تفريغاً لما في داخلي، وتمزيقاً لكل من يقرأ ما عدا من هم هناك.

- "هناك" أين تقصد بالضبط؟!

- في المنازل الفاخرة، وداخل المكاتب المغلقة.

أنا الآن لا أكتب ليتمزق أحد، أنا أكتب الآن لأمزقني، فالإنسان في لحظات عدة يحتاج إلى تمزيق نفسه ليعود متماسكاً أكثر مما مضى. ارتشف الصحافي من كأس كانت أمامه، وكأن بخار الشاي الطافح على نظارته يعيد إليه التكثف إزاء أسئلته، عاد يسألني:

- كيف ولجت إلى عالم الصحافة؟! وهل كان اختفاؤك عن الأعين محاولة هرب؟!

- دخولي كان مجرد صدفة، وبالنسبة إلى الهرب فأنا لم أهرب من الناس، والدليل أنني بين يديك وأجيبك الآن، لكن المعاق لا يعني أن تربط يديك وتظل تبكي، الإعاقة شعور في داخل كل شخص منا، لا

يمكن أن يتبرأ منه حتى الصبيان، ولقد دخلت الرياضة لأنني مؤمن تمام الإيمان بأن عالم الرياضة يملك من الفوضى نصفها، لذا وجدت نفسي أملك نصفاً من الفوضى أيضاً وكنت قادراً على إعادة تأهيل الفوضى في داخلي كثيراً.

- ومن هو الفريق الذي يستهويك؟!

- أي فريق لا ينتمي إلى علية القوم قلباً وقالباً.

- ومن هو الذي دفعك إلى الكتابة في هذا المجال، بمعنى هل كان ثمة كتّاب أثروا في سيرتك؟!

- يمكنني أن ألجم كل من يحاول أن يقفز فوق فضله علي، أنا خرجت من العدم، والقرى ديار العدم أصلاً، وأكرر دوماً إن من يتكئ على كاتب ليصنع من نفسه كاتباً، لا يستحق الدنو فضلاً عن الارتفاع!

كنت حاداً في إجاباتي كنصل شفرة حلاقة، وكان حاداً في أسئلته، وفي نظراته، وفي غرابته واستغرابه، لتتلاقى الحدة، ولا ينشر ذلك الحوار.

يا ترى هل كان لعدم نشره لذاك الحوار مبرر مقنع؟! ألأنه ينظر إليّ على أنني مخلوق لا يجدر به أن يظهر؟! وكيف يمكنني أن أتصالح مع الرياضة وبها من التزييف ثلاثة أرباع ما يقال؟! . بعدما تأكدت بأنني عار على عالم الرياضة، تنازلت عن زاويتي وعقلي الرياضي، وقناعاتي، وقلمي الرياضي، واتجهت بملء إرادتي إلى السياسة.

السنة الرابعة بعد حمدة

قديماً كانت السياسة بالنسبة إلي تشبه الإلحاد! لأن بعض المواقف التي نتخذها إزاء الحياة لابد أن تكون مقننة، ثمة قرارات يجرؤ عليها الإنسان تكون حتفه، والسياسة قرار مزاجي لإنسان لا يحب نفسه مطلقاً. لكن لم تكن وجهة السياسة التي اتجهت إليها بلا مبرر، بل كانت حكايات عمي التاري التي يرجعها إلى زبيد حكايات الأعجوبة التي لم أبرأ منها. زبيد الرجل الذي أكتب عنه الآن ولا أدري هل فعلاً ثمة زبيد أم أنه خرافة؟! أكان عمي التاري يعيد أصل الحكايات إلى زبيد ليخرج من المسؤولية؟! لأن الحكايات والقصص والروايات خروج عن المسؤولية. قررت أن أبدأ ككاتب سياسي حين سمعت تلك الحكاية التي ذكرها لنا عمي التاري من جملة الحكايات عن الأتراك، تلك الحكاية التي من فرط ما أوجعتني تركتني على هامش الحياة أعيد ترتيب أفكاري في زمن كان الدم فيه يشبه الماء في كثرة تداوله، فكم تؤلمني الحكايات فعلاً. قال:

- كانت هناك عين ماء في إحدى القرى التي استعمرها الأتراك، وكان لحبها لدى أهل تلك القرية الأشداء بعد التطرف، فاستولى عليها الأتراك غصباً، فلم يكن من أهل تلك القرية إلا أن ثاروا عليهم، فدفعوا أرواحهم فاتورة شراء لهذه العين، وجعلوا من أنفسهم قرباناً للثرى، وللعمر، وللأشياء الحميمة، ولانتمائهم، فانهالوا على الأتراك لا يلوون على شيء سوى الموت، إن أكثر الخصوم عناء وقوة، هو ذلك الذي تتساوى في داخله الحياة والموت، ولا يغدو ثمة ما يخسره، عاث أهل القرية في أجساد الأتراك خراباً، ولم ينته النهار حتى كان الترك بكل ما

حملوه معهم مجرد ذكرى، ووجبة فاخرة للسباع. حتى أن بعض الأهالي في تلك القرية أقسموا أنهم كانوا يسمعون صرير أظفار الجثث إذا هبت عليها الريح.

حين سمعت هذه الحكاية، آذاني منطقي السفيه، فكيف أنتمي إلى الرياضة في قرى لا تعرف إلا تغريد الموت، وعديل الجوع، لذا قررت أن أكون سياسياً برمزية، لأن السياسة لدى العرب عيش مع الدبابير. بدأت أقرأ في السياسة، كتباً كثيرة قرأت، لم أعتمد في قراءاتي على السرد التاريخي السياسي، لأنني لم أبرأ من فكرة أن كل ما يكتبه التاريخ كذب، عندما يقع التأريخ تحت مقصلة الرقيب يستحيل زيفاً. هذا هو تأريخنا العربي بكل شهامة حرفي وكاتب ماهر، أو منافق ومرتزق باهر. كنت قديماً أسمع من شيوخ القرى وطاعني السن حكايات عكس ما كنت أقرأه، كانوا يربكون قراءاتي بحكاياتهم تلك، لأخرج حاضناً عاهتي وبعثرتي وارتباكي. فيحدث أن تصطك الحياة أمام ناظريك، لكن لا يمكن أن تبقى في اصطكاكها حياة جيل بأسره.

إن العرب في أداء فرضهم السياسي دجالون ومستهترون، لأنهم لا يمارسون دجلهم السياسي عن حب، أو خبث، ولا يخرجون منه عن صدق، إنهم بين الأشياء بلا توحّد. والإنسان لغز محير، لأنه لا يأتي على ديدنه في الحياة دوماً. والألغاز هي مخاتلة لا همّ لها إلا تشتيتنا وتمزقنا.

إننا نكتب السياسة لأننا نحتاج إلى تبصير أنفسنا بأننا قادرون على اتخاذ القرار. فعندما كنت كاتباً رياضياً، كنت مغفلاً حد الدهشة، لأن الرياضة لعب، واللعب لا نحسن فيه الاختيار واتخاذ القرار. فكيف يمكن أن ننظّر لأشياء هي لعب في الأساس؟! وحين استُكتبتُ ككاتب سياسي لمجلة سياسية أصبحت أُسيّس كل ما يدور حولي، حتى تصرفات حمدة، شعرت في بعض الأحيان أن حمدة تتعامل معي بطريقة البغيّ السياسية في بعض الأحيان.

عندما استكتبتني المجلة، أرسلت رسالة صغيرة إلى حمدة كتبت فيها:

"حبيبتي حمدة، إبشرك صرت أكتب في مجلة "الأحداث"، بس ماني كاتب رياضي صرت أكتب في السياسة.

قصاص"

انتظرت يومين فقط لتأتيني رسالة منها تقول وبجمل قصيرة جداً:

"حبيبي قصاص، السياسة مو حلوة، حاول أنك تكتب في أي مجال ثاني، لأني مرة سمعت أبوي يقول السياسة كلها كذب في كذب.

حمدة"

فسّرت ردها هذا بأنها تخشى أن تسرقني السياسة منها، وأصبح حجراً متهالكاً في شدق أحد السجون، لكني دائماً كنت أتساءل، لماذا العشق يجعلنا نتجنب الخوض في غمار الأشياء المصيرية في الحياة؟! هل لأن العشاق هيّابون؟! أم لأن حالة العشق لدى الإنسان حالة سكون وهدوء وبالتالي لا يمكن أن يمزقها نصل التجارب المصيرية؟! وكأي لوحة تقاد إلى طبيعتها بيد وذائقة رسام خفي، أحسست بذلك عندما كتبتُ أول مقال سياسي، وثمة سؤال يتربع في تفكيري، بأي منطق يتحول كاتب للفوضى الرياضية، إلى فوضوي في رصف كلمات سياسية ليست ذات أهمية في عالم لا يسيّس القرارات إلا السادة فقط؟!

كتبت أول مقال سياسي لي، ونشر في تلك المجلة، كان عنوانه "الأتراك أزمة شعب بأسره". إلى هذه اللحظة وبعد أكثر من عقد ونصف من المهانة، مازلت أحتفظ بقصاصة ذلك المقال المعهور باسمي، وتحته مكتوب "كاتب سياسي"، حين قرأته لأدرجه في هذه الرواية، لم أكن

أتخيل بأن الذاكرة ضعيفة لهذا الحد. إن ذاكرة الإنسان منا غشاء رقيق، سرعان ما يتهتك.

كتبت في ذلك المقال:

"العالم الآن لم يعد ذلك المتجبر الذي يحكم بسادية مطلقة، ولم يعد ضمن اللعبة التي يحق للضعيف أكل القوي دون مسؤغات تذكر، وإن ما نعيشه الآن من ترابط ينبئ بأن الحياة لم تعد ملك سلطة أو حكومة بالمطلق، والسادية المطلقة وليدة مجتمعات خائفة ومستضعفة ومتهالكة، وحكم فرعوني أصيل، إنما الحياة تقاسم في كل شيء، الحياة يعني أن تتشارك مع كل من حولك في عمارة هذه الأرض. والعيش فيها كإنسان كريم، له الحرية المطلقة في البحث عن سبب عيشه بالطريقة التي تناسبه، فأنا أفكر في هذا الأمر حينما أستعرض هذا الواقع بما تحياه بعض القرى في جنوب شبه الجزيرة العربية من معاناة جمة إزاء تبعات حكم سادي محض، فليس لنا الحق في التواطؤ مع التاريخ، في محاولة محو رديئة له أو لتصرفات سلطوية عاش تحت سلطتها شعب بأسره، لذلك كان الحكم التركي الجائر، أو العثماني إن جاز التعبير، في بعض القرى خلف الجبال جنوبي شبه الجزيرة العربية، نبتة شوكية تخز الذاكرة بدموية، وأبناء هذه القرى في ذكراهم لها يقعون أسرى لهذه الذاكرة الدامية مهما حاولوا أن يتبرأوا من الذاكرة، أو حاولوا أن يتصالحوا مع الماضي.

فكيف يمكن للإنسان أن يتصالح مع انتهاك عرض، أو تفشٍّ للجهل، أو جبروت إنساني ملفق؟! الآن وبعد كل هذه السنين من التستر، والتكتم حول فاشية ذلك النظام البائد، وتلك التصرفات الخارجة على منطق الإنسانية أطالب بإحالة الأتراك لجلسات محاكمة دولية أمام الأمم المتحدة، لأن الفرد الذي يشك في نفسه ونسله ونسبه من خلال بشوته إنسان يعيش في وحل من التخبط، وما أقسى أن تعيش الحياة وأنت جزء لا تعرف مرجعية أصلك!

إن الحكم العثماني / التركي هو الأساس في تفشي الجهل في الجزيرة العربية، فلم يكن له أي سبق في بناء المدارس، أو إنشاء المستشفيات فهو كذلك سبب في تدهور الحالة الصحية لأبناء تلك القرى، فلم يقم ببناء المستشفيات، وتوفير أدنى الأشياء الصحية الضرورية للإنسان، وهو بالتالي يؤكد أنه السبب في كوننا شعوباً ننتمي إلى دول العالم الثالث. إن دولة حكمت العالم على امتداد طويل من حيث المكان والزمان يصل من بلاد فارس شرقاً إلى أوروبا غرباً، وعبر عدة قرون، ولا تستطيع أن توفر لرعاياها الوسائل المعيشية الضرورية، فهي في الحقيقة دولة، لم تكن تحكم لغرض شريف مطلقاً، إنما كانت تحتل أكثر مما هي تبني، والاحتلال كما هو معروف لديك عزيزي القارئ، هدم وتدمير وموت ودموية، وهذه الأغراض غير الشريفة تجعلنا نتفقد مرتكبيها بقوة أيضاً!

الأشياء الحقيقية هي التي تقف أمام متغيرات الحياة بوجهة قاسية وصلبة، أما ما تقف بتوانٍ فهي زائفة و لا تستحق منا عناء الذكر، وهذا ما يمكن أن يعيشه بعض سكان الجبال من حيث مرجعية النسب القائم، وإيغالهم في الجهل وموت الكثير من الناس منهم بسبب تدهور أحوالهم الصحية، فالإنسان المحطم الذي يتذكر بيأس ذكرى قريته التي عاشت وانقرضت في ظروف سلطوية حاكم، أو تجبر جندوي، بالإضافة إلى تأخر إيصال الخدمات الحياتية الضرورية له، هو أكثر الناس تألماً، لأن الأرض هي الإنسان، والإنسان هو الأرض، والشخص غير القادر على التوسع في أرضه، لا يمكن أن يستمر في الحياة بلا انتحار.

الحكم التركي الجائر في القرى كان ذا مردود سلبي على حياة الناس هناك، لأن الذاكرة دفتر لا يحترق أو يتمزق أبداً، وهناك يعيش الناس في فوضى لا يمكن دوزنتها من خلال حرف أو كلمة، والتقدم العملي هو خير علاج لمسح ترسبات التاريخ، القذر. وهذا المشهد يعيدني إلى الحرب العالمية الثانية، حين ألقت أمريكا قنبلتيها الذريتين

على هيروشيما وناجازاكي، حين كان طابع العنف والتدمير طاغياً على العقل الأمريكي، مات الآلاف من اليابانيين وبقيت الحرب نسخاً على نسلهم فيما بعد، حتى إن الياباني عندما تحمل زوجته الآن يتذكر الحرب بجبروتها لأن ابنه سيأتي مشوّهاً من جراء هذا التهور المريع، وهذا إرهاب نفسي ظالم، لذا أصبحت الحرب ذات طابع استمراري مع اليابانيين، فهنا تكمن العلاقة بين الحرب العالمية الثانية في آثارها على الشعب الياباني، وسلطوية الحكم التركي في شبه الجزيرة العربية، فقد أصبح أهل القرى حين يرون الحمرة على وجوه أبنائهم يتذكرون الترك، ويبقون تحت هستيريا الشك، و أن تعيش في دوامة من الشك المتصل، جنون بحد ذاته!

أيها القراء الأعزاء، إن الظالم لابد أن يحاكم والجائر لابد أن يطوق عنقه حبل المشنقة، لأن المظلوم في الحياة مدفوع بحب الانتقام!

السنة الثالثة بعد حمدة

هنالك رجال لا يحترمون منطق حواسهم، فهم من فرط غبائهم، لا يميزون مقدار اللذة بين متعة النظر، ونظر المتعة. لذا، كنت أستغرب كثيراً حينما أذهب مع غرم الله إلى رحمة، أنقاد بتلقائية غبية، وكلي حلم أن أنظر إليه أثناء نوبة عشقه فقط، حتى ضاق بي يوماً وطردني.

لم أكن أتوقع بأن أغدو يوماً ما جرثومة وجودها لا ضرورة له، وجودها غير صالح للاستهلاك. ذهب غرم الله إليها وحده في تلك الليلة، وتركني، كانت هذه نبوءة بألا أفضح عريهما، وبأن وجودي مجاني فقط، كان بقائي بعيداً ألوك تذكري فقط أفضل من أن أخترق صمت عشقهما، وأتطفل على جسديهما، وعناقهما، لكن الإنسان دوماً لا يفهم إلا إذا بقي في خانة الطرد، فلم أفهم معنى أن يفر عاشق من رقيب له في جنح الليل. أحياناً نكون من الغباء مخلوقات تستهلك الأحداث ببراءة، هكذا فسرت ما قام به غرم الله، حين ذهب وحده، كنت حيادياً على حبل رفيع من البراءة المبطنة بالغباء، كنت أخال بأن تأخري عنه كان سبباً في ذهابه، لكن الحقيقة لم تكن كذلك مطلقاً. في الواقع كان غرم الله إنساناً شهماً إزاء حبه، لأن الحب الذي يشترك فيه رجلان، يصير مع الأيام سلعة متداولة في سوق الرجال، يدخلون معها في مضاربة والرابح فيها أكثرهم دفعاً، فالحب مخلوق مقدّس، لا يمكن أن يكون إلا لواحد أو لا يكون.

حين لا نستفهم أمام الوقائع الكبيرة في حياتنا، تتمزق بنتائجها غير المقنعة لعقولنا. خرجت في أول الليل أبحث عن متعة نظر، لأعود في منتصفه فاقداً هذه المتعة، ومرتدياً إثمها، لأن الجرح الذي يأتي من

تجربة غير جيدة، جرح مركب، فهو جرح في الأساس، نبت في أرض غير صالحة للتأديب. عندما وصلت إلى بيت رحمة، كان الليل كثيفاً، وكان العناق بينهما مظرداً، وكنت أقف على حدود الهزيمة، يومها شعرت بشيء ما له علاقة بتلك الجملة التي قالها عمي النتاري فيما مضى:

- السرّاقون الذين يتربصون بالعاهرين، أناس معدمون، لأنهم لم يحترموا مبدأ العهر، ولا مبدأ التلصص، والحياة الحقة أن تعطي كل شيء حقه!

حينما رآني غرم الله قادماً أمسك بسمتي بهدوء، تقدم مني عابساً، كان الغضب يتلصص على تقاسيم وجهه، والتأفف يتسلق عينيه وجبهته، ولسانه يقذف شتائم لا أسمعها جيداً، إلى أن وصل وقال لي بسخرية مرّة مرارة موت الفجاءة:

- صدق إنك ما تستحي!

تركني حائراً أمام جملته هذه، أسلمني ظهره ومضى، وكأنه يمشي على رفات معاق ذهب ليعطي عينيه متعة ما، ثم عاد وهو يجر كرامته خلفه، متأبطاً ضعفه وانكساره. لكني لم أفاجأ حينما نما إلى علمي بعد أسبوع بأن غرم الله خطب رحمة. الآن وبعد كل هذا العمر، لا أدري ما السبب وراء زواج غرم الله، هل كان بدافع الحب فعلاً؟! أم أنه إثبات وجود أمام عيني معاق تلصص على عريه؟! أكنت أنا فعلاً دافعاً للتغيرات؟! أم ماذا لا أدري بالضبط؟! يحدث أحياناً أن تكون سبباً وجيهاً في تغيّر حياة شخص ما، لكن أن تغيّر حياته للأسوأ، فهذا يبطن بأنك سيء. أأنا سيء إلى هذا الحد؟! أم أن الإنسان الذي يفقد أحد أعضائه يستحيل سيئاً مع الأيام؟! وهل الإعاقة يا ترى أرض خصبة تنمو فيها الأفكار السيئة؟!

رحلت من عند غرم الله ذلك اليوم معتلاً، وحين وصلت إلى المنزل لم أنم لوقت طويل، بعد أن اعتنقت فكرة تقول "إن الصدمات

العنيفة تحيل المرء إلى كتلة لحم رخوة جداً، تبقيه ساهداً، لا يلوي إلا على التذكر"!

عندما استيقظت في صباح اليوم التالي، ذهبت إلى منزل عمي فوراً دون أن أفطر وحاولت جاهداً أن أجد حمدة، لأنني لم أرها منذ نصارحنا، وقفت أتأمل جدران منزلها، وشعور ينخر ذاتي.. عندما نفقد التوازن في حياتنا، فنحن نعيش في مرحلة فقدان مهولة، نفقد عواطفنا بالجملة فنسقط، وربما نفقد القدرة على التفكير أيضاً فنسقط، لذا نحتاج دائماً إلى أشخاص يعيدون ترتيب الأحزان فينا، ونبقى متماسكين إزاء فقداننا هذا.

كنت أحتاج إلى حمدة، لتعيد تنظيم العواطف في داخلي. قرابة ساعة، وأنا أحوم حول بيتها، ككلب جريح، مضيت بعدها، وجلست أمام عتبة باب بيتنا إلى قرابة الساعة الثانية عشرة ظهراً، عندما خرجت لتعيد الأغنام إلى "المراح" فتوكأت على عرجتي، وانطلقت إليها، حينما وصلت إليها دُهشت من منظري، أنا الفاقد لساني أحاول أن أنتمي إلى فئة العدائين الكينيين، لم ألق عليها السلام، قلت لها على عجل، وأنا ألهث:

- حمدة أبي أقابلك الليلة الساعة وحدة، موعدنا ورا بيتكم، أتمنى إني أشوفك لأني محتاج لك بجد!

وانسحبتُ بهدوء وهي لا تسمع إلا لهاثي.

في القرى ما أصعب أن تحدد موعداً، وما أسهل أن تجد مكاناً تقضي فيه موعدك ذاك، هذا التضاد في حياة عشاق القرى، سكنني منذ زمن رحل. تركتها في دهشتها وذهبت، أنا المجنون بعذاب الفقد، عواطفي اضمحلت أمامي دفعة واحدة، كما ذهب عضوي ذاك أمام عيني دفعة واحدة، لأبقى مذبناً أدفع حياتي وعذابها بالأقساط. عدت لأجد أمي تنتظرني، وهي تسألني:

- وش فيك يا ولدي شكلك مو مريحني؟

- ما فيني شيء.
- إلا فيك شيء قول لي.
- تعبان شوي.
- سلامتك، يا عمري، ما تشوف شر، أدخل ونام الظاهر إنك ما نمت عدل البارح.

دخلت وانسللت تحت الغطاء، وأنا لا أعرف لماذا الأمهات أقرب للتصالح مع الكذب أكثر من الآباء؟! كنت دائماً حينما أتغيّب عن المدرسة أذهب إلى أمي وأنا أجتر كذبي معي دون خوف بأن تكتشفني، بينما أبقى بعيداً عن أبي قرابة اليومين، لأن كذبي لا يمكن أن يُمرر عليه. فالرجال قساة، من فرط طينيتهم!

أتذكر أنني ذهبت ذات يأس إلى المدرسة برفقة "حجر" الذي كان زميل مرحلة، كنا نذهب معاً إلى المدرسة بسيارته، لم أكن أعرف فن القيادة بعد، قبل أن أتعلم قيادة السيارة لم أكن أخرج أمام السيارات من دوامة عاهتي، كنت على ضفاف اليأس في تعلمي للقيادة، لم يلج عقلي بعد أن معاقاً ينقصه ساق يستطيع أن يقود سيارة، وبعد أن تعلمت القيادة بساق واحدة تبرأت من قنوط المرحلة، وأيقنت بأن المعاقين ليسوا عالةً دوماً، إنما الناس هم القادرون على العيش منزوين تحت قناطر اليأس وحول دوامات القنوط والعذاب. ففي داخل كل منا معاق لا يموت أبداً. هكذا أؤمن بشرائع العامة بعدما استطعت قيادة السيارة، فليس الفاقدون وحدهم الذين يشعرون بالخوف من المواجهة، بل الذين يخشون المواجهة حتى لو كانوا أسوياء هم معاقو الداخل. كان ذلك الصباح، صباحاً باذخاً بالمطر، قد كان المطر ينهمر بسخط وكأنه يوسع الأرض ضرباً، وكان الجو أشبه بمعادلة ضبابية غير بادية التفاصيل، وبينما نحن نسير صادفنا أستاذنا في المدرسة تحت المطر يختت، يتقي المطر بكتب كانت في يده، كان يدرسنا مادة اللغة الإنجليزية، وقفنا بجانبه وركب معنا سريعاً، سرنا، وبدأ الشيطان يسري في دماء حجر بكثافة. وأنا لا

أدري لماذا الشياطين لا تأتي إلا حينما يكون الإنسان مرتخياً؟! . قال لي حجر ونحن في طريقنا إلى المدرسة:

- وش رأيك نفرّك اليوم من المدرسة، الجو مو جو دراسة؟

- وهذا اللي جالس ورا؟!

- اتركه عندي أنا راح اتصرف معه.

قبل تلك الحادثة لم أكن أعرف بأن الأشقياء لهم قانون غير المألوف، فالأشقياء لا يؤمنون بالمألوف أبداً، لأن المفاجآت وليدة مجتمعات شقية دائماً. ركز حجر المرآة المتدلية من حلق الزجاج الأمامي على الأستاذ، وأخذ يتفرس في ملامحه وهو يبتسم بسخرية، وقال له بغتة:

- يا أستاذ فتحي، انزل هنا لأننا ما راح نروح المدرسة.

بهت الأستاذ من أسلوب حجر الصريح والفج، لأن المعلمين في القرى رسل وأنبياء، لهم قدسية لا تمس، من حاول مسها في أي يوم فسيدخل نيران المجتمع القروي سريعاً، بعد برهة لم تطل قال الأستاذ:

- طيب لماذا أخذتماني معكما؟!

قال حجر.

- غلطنا.

- لا يمكن أن أنزل هنا، وأنت ترى إننا الآن في نصف الطريق، ولن تمر سيارة من هنا إلا بعد فترة طويلة، ثانياً ألا ترى المطر ينهمر بقوة.

- هذي مشكلتك.

- يا حجر صل على النبي، واتكل على المدرسة.

- أنزل يا أستاذ.

- مش حنزل.

- لا بتنزل غصباً عنك.

أوقف حجر السيارة، وترجل منها كالبرق، وفتح باب السيارة

الخلفي الذي كان يقبع بجانبه الأستاذ فتحي، وجره من طرف قميصه المبتل من المطر، ورمى به في منتصف الطريق. عاد حجر إلى السيارة والشتائم معلقة في حلقه، وأنا أضحك بهستيريا من غرائبية هذا التصرف، فلم أكن أعرف بأن الضَلال يمنح المرء أحياناً جرأة تكسّر القيم والمبادئ. وحين كففت عن الضحك كنت أود أن أطلب من حجر أن يوقف السيارة، وأقوم بحركتي المشهورة تلك لكنني ترددت. بعد تلك الحادثة، اشتكى الأستاذ فتحي لأبي، فحاولت أن أكذب عليه لأجد سبباً وجيهاً لغيابنا، لكنه منذ ذلك الحين لم يعد يصدقني إذا حاولت أن أكذب عليه في مسألة تتعلق بالمدرسة.

السنة الأولى بعد حمدة

كمجيء طفلي الأول، مازلت أتذكر لقاءنا الأول. لأن الأشياء في أولها تتعلق دوماً بالذاكرة، ولا تغادرها مطلقاً، يكون لها وقع التميز واستخدام حق الفيتو في كل الحوادث التي تأتي فيما بعد. فالإنسان حين يتذكر، لا يتذكر بالتفصيل إلا الأشياء في سياقاتها الأولية، دون نسيان، لأن النسيان على قوته في تمزيق الآدمي، لا يستطيع وأد تذكر الأشياء ابتداء.

كان الوقت ليلاً كالعادة، فأنا لم أعتد إلا لقاءات الليل، كنت أبحث في العتمة عن ضوء، هذا التناقض العجيب في قصة عشقي لم أعرفه إلا متأخراً، كعادة النبوءات المتأخرة التي تقدّم نفسها بالمجان دون فائدة، أدركتها بعد ربع قرن من الخيبة. هل كنت أسكن الليل بحثاً عن نور؟! هذا السؤال على بساطته يجعلني فعلاً أبكي من فرط بلاهتي. أإلى هذه الدرجة مدفوع أنا بالغباء؟! ألم أستطع أن أسرّب نفسي من خرافة الليل؟! فعندما نختار الليل ساتراً لنا من كل شيء، فإننا بالضرورة نبحث عن العري ونحن نغرس رؤوسنا في التربة ؛ لأن الأحلام الليلية هي الأحلام الأكثر ضعفاً لأنها دائماً تتلاشى مع بداية الإشراق واضمحلال العتمة.

تقدمت إلى بيتها أسابق عرجة لازمتني منذ أكثر من عقد، وفي داخلي شعور متلاطم ما بين حضورها وغيابها. إن المشاعر التي لا نحترم مجيئها بالجملة، وإذا أتت بتلكؤ فهي مشاعر لا تستحق منا الاحترام، لذا يجب بصقها لتموت. ترى هل شعوري يومها ضعف أم محاولة ترميم وضع آدمي معاق؟! كنت أشبه بكل البيوت الآيلة للسقوط نحتاج إلى من يسكنها لتقنع الناس بأنها قادرة على التماسك. فالعشاق

في بلادنا، أناس لم يفهموا أن الحب شيء له قداسة الغرور، إما حضر، حضر متكبراً، وإما غادر، غادر متكبراً أيضاً. إننا في حب يسكن بلاد الصحراء نقزّم مفهوم العشق ونحشره في الأزقة المظلمة من أفئدتنا، لأننا نلتقي في العتمة، ونمارس طقوس العشق خفية. فما أتعسنا لأننا حين نحب، نعمل كالمجرمين واللصوص، ننساق إلى قلوبنا ومشاعرنا ونحن مسكونون بالخوف . أيها الحب، عار أن تُهان خلف حيطان الأبنية، ووراء الستائر المعلقة، والأبواب المغلقة.

الآن يسكنني هاجس، لماذا لا نُقبِل على عشقنا في الشوارع والمقاهي، وحتى في الأسواق؟! لماذا الحب في بلادنا يُمرر دوماً عبر شيفرات سرية جداً؟! إن البقعة التي يُمارس فيها جنون القُبل علناً، بقعة إنسانية بحت، أما أماكن الحرمان العلني فهي أماكن لا حب فيها.

استندت إلى الجدار، وأشعلت سيجارة، ولكنها لم تأتِ. انتظرت دقائق أخرى، وأنا أمز من سيجارتي وأمنّي نفسي، وأبرر غيابها، لأن المحبين كائنات تختلق الأعذار في المجمل. لكن في تلك الأثناء فُتح الباب الخلفي لمنزلها. صحيح أنني كنت أنتظر أن يُفتَح ذلك الباب، لكن ما إن فُتح حتى سكنني الهرب. حاولت أن أسبق ساقي لمرة واحدة فلم أستطع، حاولت أن أختبئ ولم أستطع، عندما أتذكر لقاءنا الأول أتذكر مقولة لحماد قالها لي في ليلة كنا وحدنا قال "الحب لا يخبئ أحداً".

في الواقع، إن الأيام قادتني لأن أتذكر، لأن أكتب، لأن أعري، لأن لا أختبئ خلف ستائر الزمن. دسست رأسي بين كتفي محاولة للاختباء، وكتمت نفسي، والدخان في جوفي يجول، بقيت مدة إخال أنها سنوات وأنا أحاول تمييز وجه القادم في الظلمة. شعرت بخيبة، لا يعرفها إلا المعاقون، فكيف لإنسان تنقصه ساق أن يبحث عن كمال الحب؟! وهل الحب يعترف بالمعاقين وذوي العاهة؟! صدقاً إن الحب في بلادنا يكره من تسكنه العاهة، لأنه يُبنى على أساس الفوائد الربوية، من لا يخاف من تأنيب الذنب ومن يدفع دون حساب هو الأجدر

بالمكسب. وبينما أنا كذلك بدا وجهها، كانت ابتسامتها واضحة وقوية كنقطة في آخر السطر، وكنا اثنين يدفعنا وعي المرحلة.

وقفت بجانبي ومدت يدها تريد مصافحتي، وكم يلزمني من المفردات لأصف فتاة جميلة تمد يدها لعاشق معاق، صافحتها وهي تقول:

- سلام.
- وعليكم السلام
- كيفك؟
- بخير، كيفك أنتِ؟
- مبسوطة، وش فيك اليوم خوفتني لمن جبت الصباح فيك شيء؟
- لا بس محتاج أكلمك.
- قول اللي عندك، لأني ما أقدر أطوّل.

عندما قالت هذه العبارة، شعرت بفتق في داخلي، فنحن حين نفاجأ بما لم نكن نتوقعه نتفتق. لم يدم لقاؤنا ذاك طويلاً، ليس لأننا كنا نؤمن بأن لذة الحب في الشيء القليل، إنما لأننا نسكن ديراً لا تعترف بالحب كذنب فضلاً عن اعترافها به كفضيلة، كانت حمدة في أول حبنا لا تعرف الحب إلا تمثيلاً. قالت لي مرة في إحدى رسائلها المبكرة:

"تصدق يا قصاص إني ما كنت أعرف إن فيه حب إلا في المسلسلات بس"

***

حين نكتب عواطفنا، ونتبرأ منها في كتاب، فإننا نفرّغ الطاقات المكبوتة في دواخلنا، عندما لا نجد لها في الواقع مكاناً تدسّ نفسها فيه. إننا نرسم أحلامنا، لأننا لا نستطيع أن نحلم بها واقعاً، فكل كاتب أو شاعر، حين يكتب يقتطع جزءاً من أمانيه ويقدمها للقراء، فهو يشكّل صلصال أمانيه بولدنة الأطفال. أليس الكتاب رسوماً يتمتع بها الآخرون، بموتون وهم معلقون على حيطان الحياة ذنباً؟!

قلت لحماد هذا الكلام في يوم من الأيام، فقال لي ساخراً:

- إنك عندما تذم الكتابة، فهذا لأنك لم تفهم بعد حقيقة القراءة.

نظرت إليه بألم وقلت:

- حينما يختصر الكاتب الحياة في بضع كلمات يجحف في حق نفسه والآخرين، فهو يعلم بأنه يوهم الآخرين بغير الحقيقة.

***

في حضور حمدة تلك الليلة، نظرت إليها طويلاً، حتى أنها عجبت مما أنا فيه من انبهار، فالفتيات أسرع مخلوقات الله نمواً، هزّتني قائلة:

- قصاص وش فيك؟

- أحبك.

كانت هذه أول مرة تسمع من شفتي هذه الكلمة، لأنها لم تعتد سماعها إلا حبراً. لكن ما يحيرني حقاً، مبدأ العشق، فكل العشاق في الكون يتنافسون فقط على قول هذه الكلمة "أحبك" وكأن الحب مدفوع للتعايش من خلالها. لكننا إذا استطعنا أن نعبر عن حبنا بغير هذه الكلمة فنحن محبون فعلاً، إن العشق نزق سماوي، يستشري في أوساطنا لتحل علينا اللعنة. لم ألحظ ذلك القبس المضيء لعشق العتمة، أنا الدائم على حب الخفية. إننا وإن كنا نحب، إلا أننا نمارس طقوس اللصوصية في إبراز مفاتن ذلك الكائن. الحب الذي لا يمنحك قبلة على الملأ، فهو في الحقيقة لا يمنحك حباً، لأنه لم يرتق مرتبة العلو من القلب، تلك التي تغرس الجرأة في نواتنا لنترجمها بأفعال حبنا الذي نهوى. نظرت إليّ حمدة، وابتسامتها معلقة على وجهها، ومكثت تحدّق فيّ وتبتسم، فقلت لها:

- والله أنا أحبك يا حمدة.

لم ترد، فقد أخذت تحدق فيّ تارة وفي الأرض تارة أخرى، وأنا متخشب بين نظرتها والأرض أنتظر رداً، وبينما نحن كذلك سمعنا صوت

بابها الطيني يفتح، ويظهر من ورائه شبح رجل في يده سيجارة، فتوارينا عن نظره، وانسحبنا رويداً رويداً، إلى أن تجاوزنا بيت عمي مصلح من الجهة الأخرى، فأخذت أجري إلى بيتنا خشية أن يراني ذلك الشبح، وعادت حمدة إلى المنزل. عندما وصلت إلى البيت، انطلقت إلى الحجرة، كنت محاصراً بين فرحة لقياها، وهمّ ذلك الشبح الذي قطع علينا خلوتنا العشقية تلك، أخذت أنتفض خوفاً، كنت أخاف أن أخسرها، هذه الفتاة التي كانت تحاصر ذاكرتي، وتتملك قلبي بدون إذن، فثمة بعض النساء يدلفن إلى أفئدتنا بدون سابق إنذار يسرقن كل ما في القلب، ويتراجعن بهدوء، يتراجعن ونحن ننظر إليهن بدون أن ننطق بأي كلمة، فهن من فرط ما يتربعن في الأفئدة يشبهن الملوك، هكذا كانت حمدة تسرق فؤادي باحترافية، وأنا أنظر إلى هذه السرقة غير مبال بكل ما أفتقده، وبدون أن أجرؤ على منطق النفي وأقول لها صارخاً "لا". بقيت أنتفض، وأنتفض، وفجأة شعرت بسعادة غامرة، سعادة لم أدر من أين أتت، جاءتني هذه الفرحة كالوحي، غامضة، ومريبة، ومخيفة في الوقت نفسه، بقيت أتأمل تلك السعادة، وأحدق فيها ملياً، عندها ابتسمت، ووقفت في وسط الحجرة، وفردت يديّ إلى جانبي أريد الطيران، ورفعت رأسي إلى الأعلى، أحدق في السقف، وأستنشق هواء تلك الحجرة الفاسد، ورويداً رويداً شعرت بأنني أطير، أحلق عالياً، وعندما امتزجت مع هذا الشعور رفعت ساقي البلاستيكية تلك، وبقيت على الساق الأخرى الحية، وبدأت أضرب بطرفي الصناعي على الأرض، أضرب أضرب بشدة، إلى أن سقط الطرف الصناعي من جسدي، عندها تنفست الصعداء، وسقطت بجانبه، وأنا لا أتذكر إلا وجه حمدة، وهو يحدق في الأرض تارة، وفيّ تارة أخرى.

وفي اليوم التالي جاءتني "شمعة" وبيدها رسالة من حمدة، قالت فيها:

"اللي طلع البارح غوم الله، كان بيي يدخن، لكن الحمد لله ما شافنا"

السنة الثانية بعد حمدة

لولا الحزن لكنا نعيش مسكنة الحياة. إن الحزن مرض معدٍ، إنه يشبه الأوبئة، ينتقل بين خلايانا ليدمر سعادتنا، يمشط مشاعرنا بلهفة، كالجيوش حين تغزونا تبدد انحناءات سعادتنا المرسومة بحرفية على أجساد مشاهد حياتنا. فما أبعد اليوم عن البارحة، عن ذلك اليوم الكئيب الذي كنا فيه على شفا حفرة من لقاء، حين كنا نتسكع في أزقة الفؤاد بحثاً عن مخرج، وعندما وصلنا إلى ذلك المخرج أغلق إلى ما لا نهاية. أن تدوخ وأنت تبحث عن ضالتك، وحين تجدها أمامك دون أن تستطيع الاستحواذ عليها، فكيف لا يمكنك التآمر على الحياة؟! يا الله.. إننا نجول في أرصفة القلب حين نتصادم مع صلابة الواقع وصرامته. نعم نحن مثل المساجين نحنّ إلى ماضينا بشجن، ونقتات تذكره بأغنيات وحكايات نلوكها دوماً على مسامع الآخرين. والآخرون سادرون في نهشيم ماضينا الزجاجي الذي يغطينا بضبابية. فعلاً إن الماضي كالزجاج، بقدر ما يحمل من شفافية، نهوى تهشيمه تذكراً كالأطفال. ترى ماذا يلزم المرء للخروج من مأزق حب؟! وكيف يمكن أن يتخلص العاشق من رقّ الحب هذا؟! لاسيما إذا كان الماضي قيداً يطوّق الذاكرة. فإذا كان العشق في جغرافية ما معتقلاً، يغدو المحبون أسرى حب، أو أسرى حرب، لا فرق، لأن العشق يشبه الحروب يخلف أجساداً وأمواتاً، وخسائر فادحة. وجغرافيتنا لا تعترف بخريطة الحب مطلقاً. لذا، ولأسباب أخرى أتنازل أنا عن حقي في الحب، وفي ابتلال المشاعر، وتدفق الأحلام والأماني، وأستطيع الإمضاء لأي كائن على تنازلي عن

عواطفي، لأن الحب الذي لا يأتي مكتملاً، سيكون مشوّهاً وسخاً عاطفياً فقط.

إننا نعشق لأننا نحب أن نتغيّر.

نخرج من المألوف، نتبرأ من منطق الأشياء العادية، نحكّم شرائع اللامألوف، ونعود في الأخير محملين خسائر وهزائم، ولا ننكص عن كتابتها، تلك الكتابة التي تباركنا فيها مشيئة السخرية. فهل كتابة الحب الفاشل دوماً سخرية تجاه ما كنا نعيشه؟! وأكثر ما يدوخني.. هل المواجهات العلنية للعلاقات العاطفية الفاشلة بالكتابة مواجهة منصفة؟!

***

ذات يأس بينما أنا أقلب دفاتر أحزاني تلك، حين كنت أهيم تحت رذاذ الخيبة، وفي مروج الوجع، وأتسكع على ساق ونصف، أتى حماد. لم يأخذ من تفكيري سوى نظرة فقط، وحين أرغل في داخلي، أعطيته كل ما أملك ابتداء من دموعي. ثمة أشخاص يتملّكون أفئدتنا دون أي اعتراض منا، لأن مقدار النبل فيهم يربو على مقدار الخبث، أولئك الذين لا ينبغي أن نفرط في صفائهم، إنهم أكثر من نحتاج إليهم إزاء ارتجاج الحياة، لأنهم منظمو الثبات في معيشتنا، إنهم وبكل بساطة خلطة سرية للراحة.

قدِم لي بكل الدلال الذي كان يحمله من عائلته، تلك العائلة التي لا تملك ذكراً سواه، بين ثلاث إناث، لذا تملّك جل الاهتمام تغلبني الحيرة وأنا أتساءل، لأي سبب تصرف العناية والاهتمام والدلال؟! اختيار الأسباب من جملة ما نعيشه من مبررات أمر غير قابل للمنطقة، أذكر أنني سألته مرة:

- حماد ألأنك ذكر بين فتيات تحظى بكل هذا الدلال؟!

- لا يا قصاص. عندما نحصر الانحياز في جنس معين قادم من

الله دون اختيار منا فنحن ظلمة، وأن يخيّل لك بأن الحياة ترتكز على جنس بعينه بين البشر فتطرف أرعن، صدقاً ولأنني أعيش بين فتيات، أحسّ بما يشعرن به. إن المرأة مهما بلغت من العمر، تبقى تلك الفتاة البريئة التي لا يتعدى تفكيرها في المسائل الإنسانية ضفر شعر، وتعليق "شباصة"، لكن ثق بأن كل ما في الأمر أنني مميز في الوسط الذي أعيش فيه.

ثم أردف متسائلاً:

- ألست كاتباً، إذن أنت مميز، وتحتاج إلى دلال زائد.

وبدأ يضحك..

كانت وخزته هذه، إعادة تأهيل للحزن في داخلي، تذكرت أنني فعلاً مميز، وكمن أضاع شيئاً فوجده فجأة قلت:

- أنا لست مميزاً لكوني كاتباً يا حماد، إنما لكوني معاقاً.

ثم أكملت:

- يا صديقي، إن من يعرض نفسه من خلال الكتابة يتعرّ، ومن يفخر بأنه كاتب ينزلق للكتابة من مبدئها الفخري، أنا لا أنقاد للكتابة بفخريتها، إنني أكتب فقط لأنني أحتاج إلى أن تكلم الأشياء.

وها أنا أكتب الآن، لأجعل كل ما حولي يتكلم، فالصمت في بعض الأحيان انحياز باطل، وشريعة كفر بالألسن. أليس الرهبان دعاة صمت دوماً؟! أنا لست راهباً ولا قديساً، أنا الذي تكالبت عليه حماقات العادة، والأقدار، والسلطة الأنثوية. إن الحياة تسرّب حماقاتها صوراً بين مشاهدها، لأنها لا تؤمن إلا بأدوات الرداءة كقيمة. والقرية صورة مشوهة في سجل حافل بالترهات.

قبل أن أجد حماداً يبضعة بأقمار وأجزائه، حدثني عنه أخي محمد قال:

- يبدو أن لك معجبين.

- ماذا تقصد؟

- اليوم وجدت "حماداً" ابن الشيخ "أحمد" وسألني عنك كثيراً وكأنك زانية.

- ولماذا زانية؟

- لأن الرجال، أقرب ما يكونون إلى الخطيئة إذا أكثروا الأسئلة.

برغم امتعاضي ذلك اليوم من قناعة محمد هذه، إلا أن الأيام تغلّف القناعات الحقيقية وتذيبها. هي الآن تخرج مبسترة وجاهزة ومعلبة. كدور البغاء هو دور الرجال، تتقلب الحياة في أجوافهم بعريها وسذاجتها وحيائها وكبريائها وحتى جبروتها، فالرجال يشبهون أكواناً مختلفة تعيش في بطن كون له صفة الأبوة، هم القادرون على التأرجح في ظرف حياة دامس ومعتم.

كنت أسير بسيارتي يوماً ما في أحد أزقة القرية، فلمحت حماداً من بعيد يسير متجهاً إلى بيتهم، فلحقت به، وحين اقتربت منه باغته دون سلام:

- أكنت تسأل عني؟

بهت، كما هي عادة الإنسان في أجواء المفاجأة. قال:

- نعم لكن لماذا لا تسلّم؟

- إننا نسلّم على أولئك الذين لا تربطنا بهم علاقة حميمة، السلام عند المتعارفين مسبقاً ابتذال رسمي.

- لكننا نحتاج إلى الرسمية في كثير من الأحيان، لأن الحياة لا تأتي دائماً بأدب.

- تأدب الحياة معنا يعطيها دوماً صورة الأب والمُصلح، والحياة لا تصلح أحداً.

- إذن ما هو الشيء الذي يعيد ترتيب صلاحنا يا صديقي؟

أغرتني كلمة "يا صديقي" فأجبته بفلسفة كما بدأني بفلسفة، فالإنسان حين يستر بالتشتت يحاول تهذيب عباراته ليتجمّع.

قلت:

- أن تنكّر كل ما حولك دعوة منك للإصلاح، لأن التعريف دائماً يعطي الإنسان وجهة واحدة، لذا لا يمكنه أن يتعدّل، فالأوجه الموحدة لا يكون لها الوقع نفسه للأوجه المنكرة على ذاكرة الصلاح فينا.

هكذا بدأت مع حماد بفلسفة، وبت أعاني حمى الفلسفة وإدارة ظهور الرؤى والأفكار، فكم مكثنا نغنّي على يتم الروح في القرى، وكم من ليلة ألفنا فلسفتنا التي غدت أنشودة نستمتع بها بين القرى، وخلف ستائر سجائرنا، وفي أزقة الأفكار الموحشة.

استلني في ذلك اليوم حماد من عرجتي، صحبته معي في سيارتي، صحيح أنني لم أفاجأ بهذه الطريقة في التعارف، لكني أبديت ندمي لأنني لم أعرفه من قبل. فهنالك أشخاص حين نعرفهم، نقف على لياليا الماضيات كشعراء جاهليين، نبكي أطلالنا السخيفة. كان حماد في ذلك الوقت طالباً في إحدى الكليات القريبة من قريتنا، يدرس علم الرياضيات، وقد تخرج بعد ذلك كمعلم، لا يحسن إلا التدريس وملء دفاتر التحضير، لأن العلم في بلادنا روشتة يملأها الأكاديميون بنوداً لا تصلح للعلاج، ولا للوصفات المجانية، التي يلقيها علينا أطباء وجدناهم صدفة في جلسة قصيرة.

ذهبنا في جولة قصيرة، نقيس أبعاد علاقتنا بكلمات صغيرة، ومحاولة لإظهار الشق المنير من شخصياتنا، فنحن في تعارفنا الأولي نبدي دهشة التعارف، لأننا نبقى كالحيطان الصماء، ليس في واجهتنا أي ثقب يميّز أفكارنا وانتماءنا. كنت وقتئذ كاتباً رياضياً مبتدئاً، ولم أكن أعرف إلا أن الكتابة في الرياضة هي كتابة فقط، وازدراد للقوت، لم أكن أعرف بأن الكاتب إنسان حين يرمي نفسه بقلمه على مقتل يموت، هكذا رميت نفسي على عاهتي - الرياضة - وبقيت أتسلّق جدار الزمن بعرجة وقلم غير مبري.

سألني حماد:

- قرأت لك العديد من المقالات الرياضية، تعجبني طريقتك في الكتابة، لكن كيف استطعت أن تدخل هذا المجال وأنت معاق؟

- لأنني وبكل بساطة، لم أكتب بساقي!

لم يكمل أسئلته وقتها، ربما لأنه احترم سخريتي في هذا الرد، لم يركل لي كرة كنت أحبها وهي الأسئلة، لأن هنالك بعض الأجوبة من فرط سذاجتها تصير جرماً. مضيت ألوك تبغي معه بشبق، كأنني متزوج جديد، فما ألذ أن تدخن سيجارتك بجانب شخص غريب لا تعرفه ولا يعرفك، كنت أمز من سيجارتي وأنا أمضغ استيائي من حمدة. كنت مستاء لسبب بسيط أنها رفضت أن تقابلني، لم أكن أعرف حينها أننا نحن العرب نحب بسيريالية، لأننا لا نعيش الحب، إنما نمارسه وهماً.

لا أدري من قال لي "الحب يُمارَس لا يُكتَب"، لكن هذه الجملة لم تأت إلا متأخرة، على بعد أميال من الجرح، وسنوات ضوئية من المهانة. رفضتْ مقابلتي لأنها تخشى أن يصدفنا أحد ونحن متقابلان في تلك القرية التي لا تعرف إلا أن تدير ظهر المرء فقط.كتبت لها رسالة، سلمتها لرشود، وانطلق بها كرسول للحب، وحين وصل إلى بيت عمي، كانت هي وأخواتها مجتمعات، فانسلّ ليسلمها لأختها "شمعة"، وهي بطريقتها تستطيع إيصالها إلى حمدة. مع مرور الزمن، أصبحت حلقة سباق حبنا تشبه سباق التتابع، تسلم الرسالة من يد إلى يد، لتصل إلى نقطة النهاية في الأخير، عليها عرق العدائين، ورأفتهم من حب يداس بهذا الشكل، كنت أكتب الرسالة، فأسلمها لرشود، وينطلق بها ليسلمها إلى شمعة، وتنطلق هي بدورها لتسلمها إلى حمدة.

كانت الرياضة تلاحقني بفوضاها، وفوضويتها، وتعصبها وهمجيتها، وكنت أتطلّع إلى حبي وهو ينزلق أمامي مصاباً في غضروفه، أو رباطه الصليبي، وأتجمّد حسرة. إن أكثر ما يخشاه اللاعب إصابة تقعده عن ممارسة لعبه، واقتيات رزقه، وأكثر ما كنت أخافه صدمة تريني عجزي وعاهتي. فيحدث أن تضحك إذا استندت إلى عاهتك وعولت عليها كثيراً. فليس ظرفاً أن تضحك، إنما لأنك لم تستند إلى جدار متهدم.

سألت حماداً:

- كيف هو تخصص الرياضيات؟

- سهل لكنه يحتاج إلى فهم.

- وهل يمكن إدخال الحب في دنيا الرياضيات.

بدءاً استغرب سؤالي الدخيل هذا، وأخذ يتدحرج بعيداً عن عبثه كي يستعيد منطقه وقال:

- لا أعلم، لكن ما أتصوره أن الرياضيات منطق والحب مفهوم اللامنطق.

تبسمت حينما سمعت رده، أتذكر أنها كانت بسمة رضى، لأن المرء لا يرضى إلا عندما يجد ضالته. قلت له:

- وأنا أرى عكس ذلك، إن الذي أبدع قواميس الرياضيات من العدم شخص عاشق، لأن الحب يقود المرء إلى التفكير في محاولة للفهم، كما هي الرياضيات.

امتصصت من سيجارتي نفساً وأكملت:

- حينما يصبح منطق الأشياء معقداً نحتاج إلى عقولنا، وهذا ما يفرضه علينا الحب، فالحب يأتي من حيث لا ندري ويتشابك، لذا نصير محاطين برقائق تحتاج إلى فضّ كما هي بكارة الرياضيات.

- لكنك لا تتوحد مع الرياضيات كما تتوحد مع الحب.

- الحب ليس توحداً يا صديقي، الحب مسألة روحية تتقارب فيها الأرواح إلى أن تسير جنباً إلى جنب كما هما الخطان المتوازيان، لو كان ثمة توحد لما رأينا بعض العشاق، يفترقون في أوج ما هم يعيشون من تقاربه.

انغرس كمسمار صدئ في حيرته، كان ينظر إليّ فقط وطنين ابتسامة نجوب أزقة محياه، وددت يومها تقبيله، لم أكن أعرف الدافع وراء هذا الشعور الذي وخزني بشدة، سألته:

- كيف استطعت أن تعيش كل حياتك في هذه القرية؟

لم يرد بدماً، كالفنان كان يتحين الفرصة لطرح إبداعه، مضت برهة ليست بالقصيرة وهو صامت، ثم قال:

- يبدو أنني ترعرعت على شيء لم أكن محتاجاً إليه، القرية أسلمتني إلى نفسي كثيراً، لذا غدوت أجيد الصمت.

- وهل القرية تعلمنا الصمت؟

- هدوء القرية يدربك على أن تهدأ والهدوء هو الأب الروحي للصمت.

منذ ذلك الحين وأنا أتململ فوق ثرثرتي، إلى أن تعلمت أن أصمت كثيراً. جاءني حماد على غفلة مني ليذكرني بما كان يرمي إليه عمي "أبو نضال" من صمته. على بعد مساحة متوسطة من الثرثرة، حيث تتقصف الكلمات في أفواهنا، نرمي بأنفسنا على أرصفة الحياة لنتعرّى، والعراة - أياً كانوا - مدعاة للشفقة والاشمئزاز.

هذه القرية التي تعلمك الصمت، تعلمك أيضاً كيف يكون المبدأ أيلاً للسقوط، وكيف تبني حياتك على الحكايات والروايات الكاذبة، سألت حماداً "هل تعرف أصل هذه القرية؟" فأجاب "لا" فقلت له سأذكر لك الحكاية كما ذكر لنا عمي التاري. حكى لنا تلك القصة التي تنبئ بأن القرى تمزّق شيئاً ما في داخل ساكنها، إن القرى أشبه بالسكاكين المهترئة يا صديقي، تمزق الإنسان دون تهذيب، وكأنها لا تعطي القتل احترامه المفروض. فثمة حكايات تمضغها الألسن هي النبوءات والأقدار المستترة. قال "أذكر أن أبي قال لنا يوماً، بأن قريتنا هذه كانت ملك رجل واحد، هو جدنا الأوحد. كان يعيش وحده عزلة عن العالم، وفي يوم من الأيام ضلت عائلة طريقها بين الجبال، ولم تهتد إلا إلى ضوء ضئيل كان ينبثق من بيت بعيد، كان بيت جدنا، فانطلقت إليه، وحين وصلت دخل عليه ذلك الرجل الغريب وهو يقلب أدام الوحشة والوحدة وحده، فالإنسان يهذي لأنه لا يجد كفواً يقذف مشاعره إليه، وعندما رآه ذلك الغريب استعاذ بالله من الشيطان وتلا

عدداً من الآيات القليلة التي كان يحفظها، لكن الجد لم يتحرك فأيقن هذا الرجل أنه وجد إنساناً أخيراً، فتقدم إليه وذكر له كل ما حدث له، وأنه ضل طريقه بين هذه الجبال، فرحب به بعد أن استدرّ ذلك الرجل عطف الجد ببسمة، لكن ما إن بزغ ضوء تلك الابتسامة حتى أيقن جدنا أن هذا الرجل يكنّ شيئاً فسأله "ماذا بك" فرد عليه الرجل "زوجتي وبناتي معي"، فقال له جدنا "ليدخلوا حياهم الله". بدأ حديثهم غامضاً ومبتوراً، هكذا كانت تربي القرى تعاملها، الاحتراز خشية المستقبل المجهول، عندما تتجرع خوف المستقبل دوماً، فأنت قروي ابتداء، كانت عائلة ذلك الغريب من ثلاثة أفراد، زوجته وابنتيه، لم يكن الماضي يعترف بالحجاب، ولم تلد فكرة التحجب بعد، والعيون دائرية النظرة بخبث دائم، مكث ذلك الغريب عند جدنا فترة من الزمن، وتوغلوا بعضهم ببعض، حتى زوّج الغريب إحدى بناته لجدنا، بعد ذلك الزواج لم يدم مكوث الرجل عند جدنا طويلاً، فقرر الرحيل وترك ابنته عند أصل هذه القرية كزوجة، لكنها رفضت، وأنا إلى الآن لا أعرف سبب رفضها، ولم يقل لي أبي لماذا رفضت؟! لكن فيما أظنه أن تلك الفتاة خافت أن تتوحش إذا بقيت فترة طويلة لا ترى إلا الفراغ، حاول الغريب إقناع ابنته بالبقاء، لكنها أصرت على الذهاب معهم، تاركة وراءها لذة، وحكاية، ورجلاً وتجربة، فحين رحلت تلك المرأة، لم تطل حياة جدنا، فقد وجده بعض المسافرين منتحراً بجانب صخرة عليها نقوش لا تُفهم، وقد بذر في رحم تلك الفتاة نسله من بعده".

- من يجعل نفسه قرباناً للقرية، فلن يموت إلا منتحراً!

كانت هذه عبارة حماد حينما أنهيت عليه سرد هذه القصة، كان محياه يربو عن استغراب إزاء هذه الحكاية، ولم يطل صمته بعد هذه العبارة، بل قال وهو ينظر بعيداً:

- هنالك حكايات تشبه الموت، لا تأتي إلا فرداً!

بقينا ذلك اليوم إلى وقت متأخر من الحيرة، إلى وقت متأخر من

دهشة الحضور البدئي، لم أكن أنوي إشغاله بهمي، ولم يكن ينوي هو اختراقي سريعاً، أحياناً نتحاشى بعضنا بعضاً من فرط حبنا، نحاول أن نبقى على مسافة قريبة من الحياد، لأن المحبين أشبه بالزجاج الذي يتكسر سريعاً، وسريعاً يتّسخ. كان حماد هو أول من طرق هاجس تفكيري، همس لي:

- قصاص، لماذا لا تترك الكتابة الرياضية، وتتجه إلى غيرها، لأن الكتابة فوضى والرياضة فوضى، ولا يمكن ترتيب الفوضى بفوضى مثلها، إضافة إلى أنه من غير اللائق أن يكتب معاق عن الرياضة.

في الواقع، هو الأول في طرق خبايا القلب، هو من يأتي دوماً دون الآخرين ككائن استثنائي، شعرت ذلك الحين بأنه يتلبسني، وأيقنت من بعدها أن الإنسان جزء من الشيطان يدخل فيا دون أن نعلم. لم أنظر إليه وقتئذ، إنما أخذت أحتطب الأفق بنظراتي، ودخان سيجارتي وقلت:

- لا يمكن إنصاف الحياة من خلال الزمن، الحياة تجربة تعاش فعلاً.

وأردفت بعد لحظة من اختبار وقع كلماتي عليه:

- سأحاول أن أخوض في تجربة كتابية أخرى.

عدنا بعد ذلك، كأن العمر يتقلّص، وبدأت أوقن أن الأرواح جنود مجندة فعلاً.

الفصل الثاني

كانت الساعة الرقمية على تابلوه السيارة تشير إلى الثامنة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً. الصباح في الرياض مليء بالنشاط، الصباح في هذه المدينة يأخذ الحركة، تأمل صالح هذا الدفق الحركي الهائل وتساءل فيما بينه وبين نفسه، هل العواصم في كل أقطار العالم تتناسخ؟! ربما، لأن المدن كالأشخاص لها طقوس وأشياء لا تجانس إلا فيها، فالعواصم تشبه الملوك لها بروتوكول موحد.

يذكر جيداً عندما ذهب إلى بيروت قبل العدوان الإسرائيلي عليها في صيف 2006 وكيف كانت تمتلئ صخباً في النهار، لأن العمل دوماً عنصر حركي للمدن لكنه يتذكر بأسف حينما عاد إليه صديقه "طلال" محملاً حزناً على بيروت، هذه المدينة التي تشبه كثيراً من الدول، فثمة بعض المدن دول صغيرة من فرط ما تحمل في جوفها من البشر، من العادات، من الطقوس، من الربكة. عاد طلال وقد حشا هاتفه النقال صوراً لبيروت بعد الحرب، لم يكد يصدق أن تلك الوردة التي استقبله عبيرها ذات نهار، غدت مثل الشوك. لكن هي الحروب وسائل الفوضى والدمار، والوخز، والموت.

رأى كيف آلت المباني من قلب الحدث، وليس كما رآها عبر القنوات الفضائية، لأن الفضائيات تشبه التاريخ يحكمه الساسة دوماً. عندما رأى ذلك الجسر الذي كان يربط بيروت بجنوب لبنان، وكيف انهار ، وغدا حاجزاً مريباً فأيقنت بأن الحروب تذري الوقاحة في نفوس الحكام، بعد أن انهار الجسر صارت بيروت تقترف العزلة، وكأنها

جزيرة معزولة عن الناس في بطن البحر، اقتطع جزء من شريانها فراحت تنزف كثيراً، غدا التواصل مع بيروت يشبه عملية السرقة. فالمواطن الذي يُحرَّم عليه التجوال في بلده، ويبقى أسير الحجرات المعتمة، وحين يريد التجوال في بلد هو ملكه، فإنه يمارس أسلوب اللصوص، وتلك حالة بكائية جداً. هكذا صار اللبناني يسير بعد الحرب، متوشحاً بكاءه على تراب يُهان، تحت تدبير الساسة.

اتجه صالح وهو يهذي بهذه الأفكار إلى جامعة الملك سعود، كان يدرّب مخيلته على التماهي فهو ذاهب لمقابلة دكتور صنع في داخله التماهي إزاء علم، هذا الدكتور الذي يوهم صالح بأن كتّاب الرواية قادرون على صنع العلم. بينما هم بالضرورة أدوات تسلية وتمرير للوقت.

"هل أنا جاهل حتى يوهمني الدكتور أسعد برواية كهذه؟! أيستنقصني هذا الأكاديمي إزاء قذفي في نحر هذا النص؟! ماذا كان يقصد بتلاعبه معي؟! ولماذا عاملني بقسوة منطقية كهذه؟!". هكذا كان يتساءل صالح وهو يرى الحرم الجامعي أمامه دون أن يخرج من زمرة تساؤلاته، وكأن هذا المبنى لا يخبئ في جوفه دكتوراً أهان منطق العلم فيه، لأن بعض المجازفات تمضي في مضغ فؤاد الإنسان وهو لا يستطيع الفرار من سلطة الخوف.

- سأقول له بصراحة إن هذه الرواية لن تخدم رسالتي مطلقاً.

قال صالح هذه العبارة وهو يدلف من بوابة الجامعة، دون أن ينتبه لوجود حارس الأمن المتخشب عن يساره، فالتفكير سرحان بالدرجة الأولى. كانت كلية الآداب على بعد لا بأس به من البوابة، قطع هذه المسافة وهو يتخيّل شكله ماثلاً أمام ثلاثة دكاترة، وبين يديه رسالة الدكتوراه، يناقشونه فيها، و يخرج بها من سجن العلم، ويحلّق بها فوق الدخل العادي للفرد السعودي. فنحن نشقى، لأن الأعمال التي نقوم بها، خارج إطار ميولنا ورغباتنا. وإلا لماذا الفنانون والممثلون لا يشعرون بتعب إزاء عملهم المُجهد الذي يقومون به؟!

ترجّل صالح من السيارة بعد أن أوقفها في المساحة الخالية أمام كلية الآداب، وفرد قامته للمواجهة، وبدأ يسير باتجاه المبنى. عاد إلى ذهنه قول طلال له ذات يوم:

- يا صديقي، أن تقرأ يعني أن تتعب دون فائدة!

تجاهل هذه السخرية التي تذكّرها، وهو لا يدري لماذا تذكرها في هذا الوقت بالذات؟! ثمة مواقف تنفخ في مزامير الذاكرة أحياناً، دون علمنا ودون سابق إنذار بقدومها. هو يحب القراءة، ولولا حبه لها لما قرأ القسم الأول من هذه الرواية التي يعتبرها مملة، مذكرات معاق قيد التنفيذ، هذا ما يمكن أن يصفها به. اقترب من مكتب الدكتور أسعد ولمح بابه مفتوحاً.

- إذن الدكتور موجود الآن.

اقترب من الباب، صك أزرار ياقة ثوبه، وعدّل من وضع شماغه الأحمر القاني، وضبط وقع عقاله على رأسه، ودس نفسه من خلال الباب. كان يخفي إصراراً قوياً على المواجهة. دلف، وعندما رآه الدكتور أسعد، ابتسم، وقال وهو يقوم من على كرسيه، دائراً حول طاولته المتواضعة أمامه، تلك الطاولة التي أتخمت بها جامعة الملك سعود.

قال:

- أهلاً وسهلاً بالأستاذ صالح.

صافحه بحرارة وطبع على خديه قبلاً تنمّ عن حفاوة، ثم قال له وهو ما يزال ممسكاً بيده:

- أين كنت كل هذه المدة، لماذا لم تعد علي؟!

- كنت سأتصل بك، لكني فضّلت أن أتي لمقابلتك لأن ما أحمله، لا يمكن أن تتحمله أسلاك الهاتف.

- خيراً إن شاء الله.

دعاه الدكتور للجلوس، وقام وحضّر له كوباً من الشاي من سخّان كان في ركن قصي من الغرفة، وأخذ يسأل عن أحواله بينما هو منشغل

بتحضير كوب الشاي ذلك. تقدم الدكتور أسعد يسبقه كوب كرتوني تتصوب من فوهته أبخرة، ورائحة النعناع بدأت تتسكع في أنحاء الغرفة. وقال له الدكتور وهو يناوله الكوب:

- شخبار الرواية اللي عطيتك إياها؟

رد صالح وهو يتناول كوب الشاي ويضعه على الطاولة أمامه:

- لأجل هذا جتك اليوم.

- خير.

- قرأت الجزء الأول منها المعنون بـ "العكاز"، لكن صدقاً لا أؤمل أنها ستخدم رسالتي.

- لماذا؟!

- لا أدري أراها أصغر من حجم رسالة الدكتوراه يا دكتور.

- ربما لم تقرأها بتركيز يا صالح، لا تقرأها لمجرد المتعة، اقرأها بعين الناقد، لأن القراءة الناقدة تختلف عن قراءة المتعة.

- صدقاً القسم الأول من النص جيد نوعاً ما، لكنني أظن بأنها مذكرات لإنسان مرهق، وليست عملاً روائياً.

- أنت لم تقرأها كاملة، وهذا حكم غير منصف، اشرب كوبك، وعد إليها ولا تأتني إلا بعد قراءة الرواية كاملة، لأن الأحكام عندما تأتي على جزء معين من أي شيء هي أحكام ناقصة.

سكت صالح، وخشي أن يدخل في جدل مع مشرفه، لأن الدكاترة في تعليمنا أباطرة الحكم، أحكامهم كأقوال الملوك غير قابلة للتأجيل، ولا يمكن أن تكون عرضة للمناقشة.

أخذ صالح يتبادل مع الدكتور مستجدات الفن الروائي، وكيف يمكن الغوص في بطون النصوص الروائية، وكيفية خلق أفق للناقد إزاء أي نص، ولماذا تقدّم الروائيون الغرب على روائيينا، ربما لم يستوعب ما قاله الدكتور أسعد حينما لمّح له بأن صناعة الرواية تحتاج إلى بنية مكانية لإيصال فكرة العمل، وكيف استطاعت السينما في البلاد الغربية

ضخ قوة روائية هائلة، تساهم في رفع مستوى التلقي، بدأ ينصت وهو غير مدرك لكل ما قاله، أو ربما لم يتصالح مع هذه الفكرة كونها فكرة لا يمكن تطبيقها في المجتمع، بعدما شرب صالح ما في جوف الكوب من شاي، استأذن الدكتور أسعد وذهب، وقبل أن يختفي خلف الباب، ناداه الدكتور أسعد.

قال:

- لا تتعجل يا صالح اقرأ الرواية بعين الناقد فقط.

وخرج من الباب.

منتديات الكوكب العاشر

الحذاء

الصعود هو أن تتغابى أمام أعدائك كثيراً.

حكيم صيني

منتديات الكوكب العاشر

منتديات الكوكب العاشر

السنة الحادية والعشرون بعد حمدة

هنالك زوجات يشبهن الأعمدة، ثابتات لكنهن يحملن نصف أعباء الحياة.

أذكر اعترافاتك لي، أذكرها جيداً، وكيف كنتَ تأتي بأسرارك الصغيرة جداً، وتضعها أمامي كطفل، فعندما بدأتَ كتابة هذه الرواية، وحين كنت تدخل الحجرة للكتابة أو القراءة كانت زوجتكَ لا تجرؤ على فضّ عذرية هدوئك وخلوتك. كانت دائماً تتركك تتوحد مع القلم والورقة إلا من كوب شاي تدخل لتضعه أمامك وتنسل في هدوء، أو لتعود مرة أخرى لأخذ ذلك الكوب واستبداله بكوب آخر، وربما تجد في بعض الأحيان بعضاً من رماد سيجارتك عندما تضطر لنفض سيجارتك فيه، إذا ما نسيت أن تستل معك منفضتك التي جلبتها لك ذات يوم كهدية معي من القنفذة. حين ذهبت مرة إلى البحر برفقة زوجتي، وعدت وأنا أحملها معي كأبنائي، وهي عبارة عن صدفة كبيرة مجوفة، كنتَ دائماً تنفض سيجارتك فيها، وغدت مع الأيام صديقاً لك، حتى أنك تعودتَ ألا تدخن إلا فيها، وكأنها طقس مجاني في حياتك. أتذكر جيداً أنني عندما قدمتها لك كهدية قلتُ لك ضاحكاً:

- أعرف بأنه يستهويك أن تنظر إلى ضحاياك من سجائرك في المنفضة، لذا جلبت لك هذه الصدفة لتكون لك منفضة وتطول طقوس رؤيتك لضحاياك.

كانت زوجتك تدخل وتخرج برفقة كوب مليء أو كوب آخر فارغ، وقد اعتادت خلوتك هذه منذ أول نهار من زواجكما، لأنه وبعد أن قضيتما ليلة صفراء توجهتَ إلى الكتابة كفرض ديني ينبغي تأديته، وتركتها

نائمة في الفراش، وحين استيقظتْ جاء معها خجلها مستتراً ودلفت عليك، وعندما وجدتك تكتب، جلست بجانبك بحب المتزوجين الجدد، لأن مؤسسة الزواج في حياتنا تفرض على مبتدئي الزواج أن يكونوا أكثر التصاقاً، فتوقفتَ عن الكتابة، ونظرتَ إليها فقالت لك:

- كمّل كتابتك.

- ما أقدر!

- ليش؟

- لأني ما تعودت أكتب وفيه شخص بجنبي.

خرجتْ من الحجرة وقد جُرح كبرياؤها كثيراً...

كنتَ تعرف بأنك نسوت عليها بحرفنة، لكنك لم تستطع الخروج بعد من مأزق ذاكرة مطعّمة بالحزن، وطقوس اعتدتَها منذ أكثر من عقد ونيف من الزمن. منذ ذلك النهار المعتم، وحتى هذه اللحظة وبعد كل هذه السنين الغريبة من زواجكما لم تجرؤ على قطع خلواتك مع كتاباتك أو قراءاتك، فأنت مدين لها بقبلة كبيرة جداً من جراء هذه المجانية الكبيرة من الراحة، وعندما جاء أبناؤك كانتْ كثيراً ما تحرص على هدوء المنزل وقت القراءة أو الكتابة، فحينما كنتَ تكتب مقالاتك للصحف كانت لا تأبه لخلواتك الكتابية أبداً، لأن خلوتك أحياناً لا تطول أكثر من نصف ساعة، فكنتَ إذا ما اقتنصتَ فكرة ما تنطلق سريعاً إلى الحجرة، وترتّم مقالتك بثمان مائة كلمة هو الحد الأعلى للمساحة المتاحة لك في عمودك الأسبوعي في الجريدة، وتعود أدراجك. أما بعد أن بدأتَ كتابة هذا النص الروائي، وطالت مدة إقامتك الجبرية مع قلمك الرصاص، والدفتر الأحمر الفاخر والمبراة، فكانت تستغرب طول بقائك في صومعتك، لأن النساء هن أكثر الكائنات تحسساً إزاء الوقت خاصة إذا كان ذلك الوقت من أعمار أزواجهن. "فالإنسان منا يحتاج أحياناً إلى أوقات مكررة من الخلوة، لأنه وإن كان كائناً اجتماعياً بطبعه إلا أن

الخلوة تؤمل فيه الأنسنة، لأن الإنسانية تشبه التعبد ينبغي أن نجعل للنفس أوقاتاً لممارسة هذه الفضيلة، فقد يعمل الإنسان كثيراً مع زملائه وأصدقائه أو يوغل في تماهيه مع مجتمعه، لكنه يحتاج أيضاً إلى سفرات عدة للخلوة مع الذات، ينفرد بنفسه بعيداً عن نزمت الاجتماعات. ففي داخل كل رجل منا أنثى متجبرة لا ينبغي أن يهملها الرجل، فهي تحتاج إلى من يدللها ويتفرّد بها ويلبي رغباتها ونزواتها، وكذا المرأة ففي داخلها ذكورة متوحشة ينبغي أن تنفرد بها وتؤنث حضورها بالدلال كي لا تموت، فأوقاتنا ليست ملكاً لنا في كل الأحوال. في الواقع تحتاج دواخلنا إلى أوقات نخلو بها، فالكتابة أو القراءة أو الجنس أو الضحك هي ليست متعة لنا في ذاتنا إنما هي توحد مع الذات بالدرجة الأولى، فنحن في دواخلنا أناس يتصارعون لكسب أكبر وقت من حياة الإنسان، لذا نلاحظ بأن الإنسان الانطوائي أو المكتئب أو الضحوك أو الكاتب أو القارئ غير العادي أو الشبق جنسياً يعود في لحظات عديدة إلى إنسانيته العادية جداً؛ لأن الإنسان القوي في داخله تلاشى واضمحل، لكن عندما تعود سلطة ذلك الكائن الخفي في داخله يعود كما كان سابقاً إلى انطوائيته أو اكتئابه أو ضحكه أو شبقه الجنسي أو قراءته غير العادية، فيتسلط ذلك الكائن الخفي في داخل الفرد تظهر معه صفاته وتسيطر على تصرفات الفرد منا. وحين تغلب على المرء تصرفات أخرى غير التي اعتادها فذلك دلالة على أن الإنسان لذي يحمل ذلك الطابع قد انتصر على كل الناس في داخله وهزمهم، وتربع على عرش الشخصية".

كنتَ أحياناً تهذي بمثل هذه الأشياء وأنتَ لا تدري إن كانت زوجتك تعرف هذه الأشياء التي تهذي بها وتنظّر لها أم لا؟ لكنها عندما كانت تجدك مختلياً بنفسك تترك لك كل الوقت اللازم للترهين في خلوتك تلك، فثمة نساء يدركن الأشياء الحميمة في شخصية أزواجهن أو

أقاربهن أو أصدقائهن ربما بدافع الحب أو الاحترام أو الخشية لكن أن تدرك ما يحبه قريب منك وتساهم في توفيره له فهو انتصار لذاتك بالدرجة الثانية.

كانت تدخل عليك وتجدك دائماً أمام ذلك الدفتر الأحمر، وأنت ممسك بقلمك الرصاص ذاك، وفي كل يوم تلاحظ تزايد عدد الصفحات التي كتبتَ عليها، حتى جاء اليوم الذي سألتكَ فيه وهي تضع كوب الشاي أمامك:

- وش سالفة هالدفتر الأحمر من مدة طويلة وأنت تكتب فيه ولا أنت ناوي تتركه.

نظرتَ إليها وهي لا تعلم بأنك تنجز روايتك الأولى، وأنك كثيراً ما قسوت على نفسك وعلى هذا المجتمع القروي البائس، وعليها أيضاً في طيات هذا الدفتر. قلتَ لها وأنت تمد يدك لكوب الشاي:

- أنا الآن أكتب رواية.

ولأن النساء في القرى - كما تقول - هن أدوات العبودية للأزواج وكأنهن الوحيدات في هذا العالم المخولات الركوع إلى أزواجهن. ربما يكون التقديس الذكوري من المرأة لزوجها في القرى ليس ذا طابع ديني، لأن القرية تشبه بدايات البشر ليس فيها خيارات متعددة، لكن ثمة قيماً في حياتنا تُفرض علينا فرضاً كالموت. لم تكن زوجتك تعرف عن الرواية إلا النزر البسيط من الأشياء التي قلتها لها ذات حديث، نظراً لأنك قارئ محترف للرواية، ولم تكن تعرف بأن الرواية هي الحياة، وأن الرواية بعث للحياة، وصناعة لها أيضاً، فالروائيون هم الجنس البشري الوحيد من يمارس طقوس الرب ورقاً. فلم تستغرب سكوتها عندما قلت لها بأنك تكتب رواية، لكنك فوجئت حينما قالت:

- الظاهر هالرواية أهم منا، لأنك جالس قدامها على طول وكاتب لك كل هالصفحات.

كنت بيني وبين نفسي أتساءل كثيراً: أللكتابة ضرورة حتمية دائماً أم

أنها بذخ وقتي؟ وهل من يُغلّب على أمره ينكمش إلى الكتابة كفرض لا نافلة؟ أم أن الكتابة هي الهروب وعدم المواجهة؟

ربما لا تدرك زوجتك المطيعة حجم هذه التساؤلات وإلا لما دفعت سؤالها البريء ذاك، لكنها علمت بأهمية هذه الحياة الورقية بين يديك، فأنت موقن بأن من يكتب تهمه أحرفه وأفكاره كثيراً، لكنك لم تتأكد إلا قريباً: بأن أهمية الكتابة تخرج من نفس الكاتب لتسكن أفئدة من هم حوله إذا ما أدركوا بأن الكتابة مثل الصلاة.

سألتك:

- وش تتكلم عنه هالرواية.
- عن القرية.
- تكتب عن القرية كل هالصفحات وأنت تكرها أصلاً؟!
- ليش يعني كل من يكتب عن شيء لازم يحبه.
- ما أدري عنك!

أخذت الكوب الفارغ من أمامك وهممت بالخروج، وبينما هي تسير متجهة إلى الباب سألتها:

- كيف حال الأولاد؟
- بخير بس ترى "عمار" يقول إن مدير مدرسته يبغاك ضروري.
- خير إن شاء الله.

خرجتْ، وتركتك ملقى في همّ إهمالك، فأولادك لا يزالون يصنعون في داخلك الارتباك، فأنا أعرف جيداً أنك عندما تراهم تشعر بأنك اقترفتَ ذنباً، تحس بأنك أخطأت في حق ولادتهم، فما أقسى أن يكون أبناؤك أنابيب لتمرير تأنيب الضمير إلى نفسك كل يوم لكنك تعرف جيداً بأنهم لا يدخلون في زمرة أسباب شقائك وحزنك وبعثرتك، بينما لم تستطع التصالح معهم قط، وكأنهم طبخة نسيتها خادمة على النار في بيت مترف لتخرج محترقة، فشعورك بأنهم محترقون في فؤادك أساساً جعلك تهملهم كثيراً.

إنني أستغرب كثيراً إذا ما فكرتُ فيكَ فكيف يكون ثمة أب بهذه القسوة الوجدانية على أبنائه، لكن الأبوة فعلاً: ليست الإنجاب أبداً، الأبوة أن تشعر بالانحياز إلى أبنائك، والاندفاع نحوهم دائماً، فالأبوة كالبنايات إذا لم يكن لها أساس متين وجيد، فسرعان ما تنهار.

يا صديقي، إنك حينما طلبت مني أن أكتب عن حياتك رسالة أخرى، وحينما فكرتُ في الكتابة شعرتُ بأنني سأقترف إثماً من جراء رسائلي لك، ولأنك مثل روحي أرسلت إليك هذه الرسالة، وقد نذرتُ على نفسي ألا أرسل رسالة أخرى مهما كان، لأنني لا أريد أن أحترق كثيراً حينما أرى ما كتبته من رسائل ربما أعتقد بأنها خاصة جداً، وتصبح فيما بعد أمراً مشاعاً للناس، فنحن قد نتصالح مع الخطايا التي نقترفها بيننا وبين أنفسنا، لكننا لا نستطيع أن نتصالح مع الخطيئة التي تنتشر بين الناس، فتغدو مثل الجراح التي لا تتركنا ننام هانئين، وهي أيضاً تشوه أجسادنا كثيراً، فأرجو أن تعذرني لأنني لن أرسل إليك بعد هذه الرسالة، أي رسالة أخرى، إلا بشرط أن تعدني بأنك لن تنشرها في عملك القادم أبداً.

1423/7/19 هـ

السنة الأولى بعد حمدة

الحياة كالثعالب تملك من السرعة والمكر شيئاً كبيراً...

عندما رأيت القرية لأول مرة وعشت تفاصيلها الصغيرة ببطء، رأيت كيف تتم الأشياء فيها بكل بساطة، كنا قد وصلنا إلى القرية قبل ولوج فصل الشتاء بقليل، كان بيتنا قد أعد سلفاً. وصلنا إليه وقد أُتِمّ بناؤه، فقد كان أبي يرسل إلى عمي مصلح كل شهر جزءاً من ماله مع أقرب شخص يسافر إلى الجنوب، وهو بدوره يسلمها إلى عمي الذي كان قد تعاقد مع بعض المشردين من اليمن وأرتيريا لإتمام بناء هذا المنزل، فقد أيقن أبي بعد عزلة دامت خمسة عشر عاماً أن التراب هو الإنسان، وأنه عائد إلى قريته لا محالة، فليس له غيرها، كان يقول دائماً "الأرض هي الإنسان، وتراب القرى كأبنائنا" بعدما يحكي لنا قصته عندما همّ بالذهاب إلى اليابان، كان يقول: ففي يوم من الأيام وحينما كان الجوع يفتك من أفواه الناس في القرى سخطاً وبكاءً، سمعت من بعض القادمين من الجنوب أن القرى لا تجد ما تأكله، وأن الناس يأكلون سراً روث الأغنام، ولعدم صبري على سماع هذا الكلام، اتجهت إلى البحرين، لأنني سمعت بأن ثمة مكتباً للهجرة إلى اليابان، وحينما وصلت إليه وجدت مسناً يحمل تجاعيد الأرض كلها في تقاسيم وجهه. قال لي "لقد أقفل هذا المكتب قبل يومين"، وعدت أدراجي بعدما بكيت أمام ذلك المكتب طويلاً. لذا عندما وصلنا إلى القرية لم ندخل في أزمة المسكن قط، وجدناه ينتظرنا بكل عنفوانه، لأن بعض المنازل والبيوت تشبه الإنسان في تحمل الحياة، كان جديداً لفرط ما زخرفه عمي مصلح، ولم تمسسه روح آدمية، فنحن حينما نسكن البيوت

فأرواحنا هي من تتلمسه وليس أجسادنا. كان بيتنا يقبع فوق ربوة كبيرة تشرف على منزل عمي مصلح، وهو عبارة عن حوش كبير كما هي بيوت القرى، وسطه حجرتان متجاورتان أعدتا للضيوف، وعن يساره مطبخ وحجرة لأمي وأبي، وحجرة لي ولمحمد ومرعي ورشود، كانت حجرتنا عبارة عن أربع قعايد، تحاكي كل قعادة منها أحد جدران تلك الحجرة المعتمة.

عندما أخذت مكاني بجانب الجدار عن يسار الباب، كنت أريد أن يكون ثمة مكان لطرفي الصناعي وعكازي، وأكون بعيداً عن الباب، فالعاهة كالعورات نحاول أن نخبئها دائماً . أتذكر أن أمي وضعت مرة كرتوناً أمام باب حجرتنا وقالت تخاطبنا:

- ضعوا أحذيتكم في هذا الكرتون، لا أريد أن أرى أحذيتكم متناثرة في الحوش.

ولأنني لم أنتعل الحذاء في حياتي أخرجتني أمي من واو الجماعة في خطابها ذاك، فمتى يصبح انتعال الأحذية شرفاً؟ إن الأشياء - وإن كانت دميمة - إلا أنها تكبر في عين من كان محروماً منها، فالمرء حين لا يستطيع دخول الحمام مثلاً نظراً لعاهة أو مرض، فإن دخوله إلى الحمّام يعد مفخرة له حين يدخله بمفرده، فثمة ممارسات رديئة تكبر في أنفسنا إذا استطعنا القيام بها حين نكون محرومين منها مسبقاً.

في الواقع، كان منظر الأحذية يثير في داخلي عاهتي وعجزي وبكائي، لأن الحذاء دائماً يذكرني بعجزي وعاهتي، ولا أنكر أنني حاولت يوماً انتعال حذاء لمحمد، وحين بدأت أمشي بقدم ذات حذاء والأخرى هي طرفي الصناعي ذو الجزمة السوداء، عرفت إلى أي مدى تُنقِص العاهة من أقدارنا. من بعد تلك الحادثة لم أعد أنتعل حذاء البتة، حتى أنه سألني يحي مرة وهو يقود حراثة أبيه في حقل لهم:

- ليش ما تلبس حذيان يا قصاص؟

- وش رأيك؟!

- ما أدري.
- حتى أنا.

دار الحوار بيننا بتهكم وسخرية وسكتنا.

كان الفصل شتاء، وكنت أجلس بجانب يحي في حراثة أبيه الحمراء كالموت، ذات الإطارات العملاقة، تلك الحراثة التي تشبه الكوارث، لا تخرج إلا في فصل الشتاء فقط، فقد كان عمي مصلح لا يخرجها من حوشه إلا حين يأتي الشتاء، حين يأتي المطر، فعندما تكون الآلات موسمية الأداء، فهي أدوات تشبه المرأة العاقر حضورها مؤجل دائماً.

كان أبناء عمي مصلح يجيدون قيادة الحراثة جميعهم، فقد حرص عمي أن يعلمهم قيادتها لأن الأيام لا تعلم أحداً، والأرض لا تحابي أحداً أيضاً، فكان حين يأتي الشتاء والمطر كما قال لي غرم الله ذات يوم، يصحبهم كلهم إلى الحقول ويسوق الحراثة أمامهم ويعلمهم أبجديات الحرث والقيادة، فالزرع في القرى أولوية حياة دوماً، إذ كان يجتث الأبناء من دراستهم ليتعلموا الحرث، فكان يعلق غرم الله على هذه المسألة كثيراً حين يقول "الزرع سبب فشلي الدراسي".

صدقاً كنت أسعد كثيراً حين أركب مع أحد أبناء عمي في تلك الحراثة الحمراء، وتبدأ الحرث ونحن ندخن فوق هامتها بلذة ونستمع من جهاز تسجيل إلى الأغاني، ذلك الجهاز الذي كانوا يأخذونه معهم في رحلات الحرث وكأنهم يبذرون الأغاني في أرض تلك القرية، فكثيراً ما كان يتداخل صوت أيوب طارش وهو يغني..

"دايم زماني أنا بين امجفا وامغلايب.. ما ذقت طعم امسعآده
ميّان ألِم عز من فارق ديار امحبايب... وكيف يهناه زاده"

مع صوت تلك الحراثة المزعج والمخيف، كنا سادرين في فرحتنا وتدخيننا. فالقرى تربي فينا البساطة بفن. ذات يوم وبعد مضي أشهر قليلة في القرية كنت برفقة غرم الله على ظهر تلك الحمراء، وكان المطر قد

انتهى من دوامه بعد أن مكث قرابة الثماني ساعات في الهطل، استمر قبلها ثلاثة أيام في مداومة هذه الثمان ساعات وكأنه موظف بنك يدفع أرزاق الناس أمامه بتؤدة، فهنالك أمطار وقحة في حضورها فحين تأتي لا تذهب إلا بعد أن ترى الانزعاج واضحاً على ملامحنا، كنا نركب تلك الآلة وأنا أنظر إلى مؤخرتها المسننة التي تشق الأرض. كان غرم الله يقود بهدوء، والأرض من تحتنا تعاني الانشقاق بين جنباتها كامرأة تلد، كنت أتأمل الخطوط الخمسة التي تخلفها أسنان الحراثة من الخلف كمضمار جري، وشيء في داخلي يتنامى فالقرويون يعيشون على نبت هذه الخطوط الخمسة، ويدفعون أعمارهم قرباناً لها، بقينا نحرث قرابة الساعة ونصف الساعة وبعد أن انتهينا من الحرث قال غرم الله:

- هل تذهب معي للسباحة؟
- أين؟
- في "المعين".
- وأين هو هذا "المعين".
- ستراه قريباً.

أوقف غرم الله تلك الحمراء بعد أن أكّد لأبيه أن الحرث على ما يرام، لأن الآباء يحتاجون منا أحياناً إلى تأييد لتصرفاتهم وأحكامهم كلاماً، فربما يتنازل الأب عن حقه في رغبة ما، لكنه لا يتنازل عن حقه في رأي مطلقاً. ذهبنا والفضول يمزق رأسي، فهل الجبال تستطيع أن تعيد تصدير السباحة في نفوس أهلها؟ قد أفهم ببساطة أن الجبال تربي فينا الصيد أو التسلق، لكن أن نسبح في الجبال فهذا ما لم أكن أعرفه إلا حين رأيت "المعين"، فالمعين هو مرتفع صخري غير بعيد عن منزلنا به مساحة كبيرة وعميقة تتجمع فيها كميات من المطر بعد هطله ليصبح المكان أشبه ببركة، فعندما وصلنا إليه كان الطقس منعشاً، وبدت من بعيد رؤوس عدة تخرج وتغطس في وسط البركة، أصوات تتعالى وصرخات وشتائم قذرة، ونكت بذيئة، تنطلق من ألسن الشباب هناك.

كان عدد من شباب القرية يسبحون في تلك البركة القذرة وكأنهم حشرات، فالماء في المعين يكون صافياً بعد هطل المطر ولكن ما إن يغطس فيه أحد هؤلاء الشباب حتى يبدأ في التبدّل، لكن بساطة الأشياء في القرية تؤجل الخشية مما هو قذر دائماً. عندما وقفنا على رؤوس وسعادة أولئك الشباب انزويت أدخن بعيداً عنهم، وأخذ غرم الله في خلع ثوبه وفانيلته البيضاء، وقفز في الماء وبدأ يعوم، تعجبت بدءاً من إجادته للسباحة، لأنني قد أتصالح مع جبلي يجيد الحرث والتسلق أو الذبح أو الرعي، لكني لم أستطع التصالح مع جبلي يسبح، لأن السباحة ثقافة ضرورية دوماً، فهي تأتي دائماً مع طقوسها المائية، وحاجة الإنسان إلى الغطس، والجبال تصدر التصلب كثقافة بينما الماء تماه دائماً.

انتظرت أرتشف خزيي، وحزني على ساقي التي حرمتني أن أسبح إلى أن فرغ غرم الله من سباحته، فقد كانت ساقي تهرّب من داخلي الأنسنة، لأن فقداني إياها حرمني من كثير من الممارسات الإنسانية، فهل أستحق فعلاً ألا أسبح في حياتي ولو لمرة واحدة؟

صدقاً.. كنت أستطيع السماح لفكرة أن يسبح أبناء القرية في هذا الماء النتن في الولوج إلى عقلي، لكن لم أعد أسمح لها بالولوج حينما أخبرني غرم الله ونحن عائدان إلى المنزل بعد أن فرغ من سباحته أن هذا الماء ليس لهم وحدهم إنما هو للأغنام أيضاً، قال "إن أهل القرية يأتون بأغنامهم بعد هطل المطر إلى المعين ويغسلونها فيه، كي يطردوا الجراثيم المتكدسة بين أعطافها"، فقلت له:

- وكيف تسبح في هذا الماء القذر؟

- نحاول دائماً الوصول قبل الأغنام.

- وإن وصلتم متأخرين.

- إن كان في استطاعتنا طرد هذه الأغنام طردناها وسبحنا وإن لم نستطع نعد أدراجنا ولا نسبح.

ربما لأنني عشت طفولتي في المدن لم أستوعب بعد أن أسبح في

ماء تشاركني فيه البهائم، لأن المدن تختبر الإنسان دائماً إزاء نظافته، وتملي عليه تصورات عدة للمظهر والمخبر، رغم ما تحمله من دساتير تغيّر الحياة أحياناً، تلك الدساتير والنظم التي لا تصلح إلا للمدن فقط، لكن أن تتحول نظم المدن نظماً للقرى أيضاً، فكيف يمكن للإنسان أن يهرب ببساطته؟ ، فبعد أن رأيت في القرية أن الحجاب لم يدخل لعرفهم بعد، وبعدما سألت غرم الله عن سبب عدم التزامهم بالحجاب، ورده علي بفكاهة "خلينا نكحّل"، أيقنت بأن هذه الخصلة كانت في مصلحتي إلى أن جاء أهل المدن بدساتيرهم ليملوها على القرية، فكان أهل المدن يأتون وقد ألبسوا نساءهم حجاب الوجه، وأمروا نسوتهم بألا يختلطن برجال القرية أبداً. بدءاً كان ثمة استغراب من أهل القرية من هذا التصرف الوحشي، لكن أحدهم وعد بأن يجلب شيخ دين معه من المدينة ليبين لهم حرمة هذا الأمر، ففي يوم من الأيام، وأثناء فصل الصيف جاءت مجموعة من شيوخ الدين برفقة ذلك المدني إلى القرية، وألقت محاضرة حضرها كل أهل القرية تقريباً، ولم يبق في المنازل سوى النساء، تحدث فيها هؤلاء الشيوخ عن حرمة عدم لبس غطاء الوجه للمرأة وأن الدين الإسلامي يوجب على المرأة لبس غطاء وجهها، وعدم الاختلاط بالرجال، وذكروا آيات عديدة، ورهبوا النساء من مغبة مخالفة هذا الأمر، وهددوهن بجهنم وبئس المصير، حتى أن عمي "النتاري" دخل في مشادة كلامية من أحد هؤلاء الشيوخ حين قال:

- حتى وإن كنا نجلس معاً، ونرى وجوه النساء هنا، فهذا لا يعني أن ثمة شيئاً خسيساً بيننا.

- يا عم الدين يقول هكذا.

- لا أعتقد أن الدين يصل إلى هذه المرحلة من التفرقة، وبذر الظنون السيئة في الناس.

- اتق الله يا عم.

- أنا متق لله قبل أن أراك.

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.
- أعوذ بالله منك ومن كلامك.

ألّب هؤلاء الشيوخ رجال القرية على عمي النتاري، وأخذوا يحتاطون منه، وبدأوا بالابتعاد عنه وعدم محادثته، وفاح الخبر في القرية فبدأت النساء باتقائه، حتى أنه خسر سمعته في انتمائه إلى الجن، وبذلك انتفى عنه ابن الجان الذي بحثت عنه نساء القرية كثيراً، وأردن أن يكون ابناً لهن. منذ تلك المحاضرة الدينية بدأ الانقسام في القرية، فالنساء لم يعدن يخالطن الرجال إلا نادراً، وزاد أهل المدن بأن أخذوا معهم تلفزيوناتهم من المدن بعدما دخلت الكهرباء إلى القرية، فكان هذا الحدث صارخاً لأهل القرية، وتعجبوا من وجود هذه الشاشة التي تنقل البشر وكأنهم أحياء، ورأوا كيف أن النساء في التلفاز لا يخرجن إلا محجبات، وبها بدأت ترسخ قناعة الحجاب في القرية، وأخذ الانقسام يزداد يوماً بعد يوم.

لم أخرج من مغبة هذا الحدث التاريخي نط، ولم أكن بعيداً عن القرية حتى لا تطالني تبعات هذا الحدث، فبه فقدت رؤية حمدة، فبغطاء الوجه أصبحت حمدة بالنسبة إلي حلماً، وغدت لقياها سرقة موارية للعادات والدين والعرف، فنحن لا نستطيع التحكم بتقاليدنا، لكننا نستطيع سرقتها إذا ما رأينا فيها قيماً بالية لا تساهم في رفع رصيد إنسانيتنا، بعد هذا الحدث المؤسف، أرسلت إلى حمدة رسالة طويلة أخبرها بما حدث، وأستشف رأيها فيما حصل أختصر منها ما يلي:

"حبيبتي حمدة..

إنت تعرفين وش حصل في القرية، وتعرفين إن الشيء هذا راح بخلينا نبعد عن بعضنا كثير، مع إني مثل ما قريت في بعض الكتب، يقول أحد العلماء أنه مو حرام إن البنت تكشف وجهها، ولكن مدري

من وين جابوا هذا الكلام، لكن أتمنى أنك ما تأثرت باللي صار، وإنك راح تكونين حمدة اللي أنا أعرفها من زمان ما أدري وش أقول لكن هالشيء صار يخوفني كثير وأخاف إني أخسرك وما عاد أشوفك...

تحياتي
قصاص"

ردت علي بعد يومين برسالة طويلة جاء من مجملها...

"حبيبي قصاص...

عرفت كل اللي حصل، لكن حبي لك ما راح يتغير، وبالنسبة لي فأنا ما أقدر أسوي شيء لأني بين أهل وناس، وكل اللي راح يسوونه الحريم راح أسويه، يعني أنا ما أقدر أتحكم في تصرفاتي أبداً، ولا أقدر أطلع عنهم بأي شيء لأنك تعرف إن البنت مالها رأي في قرية مثل هذي...

تحياتي
حمدة"

ستة حمدة

كان عمري ثلاثة عشر عاماً حينما عرفت القرية، كان يفصلني عن وعيي مسافة قرن من الفهم. كحاشية حينما دخلنا القرية كان الأمل يحيط بنا، في أن نعيش كأي مدني أراد أن يقضي بقية عمره في القرى. كانت حياتنا المبدئية حبلى بالحفاوة، لأن الجديد دوماً وجه لا يعرف إلا البشاشة، مررنا بجانب قبح القرية دون أن نلاحظ ذلك، وتركنا خلفنا مدنية غاية في الوحشية، كنا قد تبرأنا من عفن، لندس أنفسنا في عفن آخر. يااااه.. ما أسوأ أن تحاول التقدم، وأنت تعلم بأنك لن تخرج من إطار الحلقة التي تدور فيها.

ثمة أسئلة تكون ذنباً حين نطرحها، لكن لماذا رحلنا إلى القرية؟! وهل كان أبي يعلم بأنه يقبرني؟! ترى هل نحن محتاجون إلى تجربة نبوء بعدها على غباتنا لنعرف مدى السخف الذي اقترفناه؟! ففي تمام الغفلة، وبعد يومين من وصولنا، أقام عمي "النتاري" وليمة لنا، كان حين بداهمه الكرم، يقدّم الولائم في بيت عمي "مصلح" لأنه كان بلا نسل، بقيه ظاهرة الانعدام الوراثي، والتكافل العائلي. أقيمت الوليمة، وأنا في بداية اكتشافي لهمّ القرى.

فللقرى هموم وأوهام أهلها هم من يصنعها، وهم من يبلورها في خلدهم، فقط لأنهم يحتاجون إلى مقدار ضئيل من هرطقة بدائية البنية.

***

كان الحضور يومذاك كثيراً، لأن أبي هو القادم، هو الإنسان الذي

هجر أشياءه مدة خمسة عشر عاماً. لم يكن حضورهم ترحيباً قط، كان خبثهم يدفعهم أمام حياتهم لتمتلئ عقولهم بتأويل وحكايات. إن القرويين أسياد التأويل والخرافة. لم أعرف ذلك إلا حين ناداني أحدهم ذلك اليوم عرفت فيما بعد بأنه يدعى "أحمد البقرة" وقال لي:

- قصاص ليش قطعوا رجلك؟!

- يا عم طحت في حفرة ودخل في رجلي مسمار صدئ وتلوثت وانتشر فيها مرض وقصوها.

سكت، وكان سكوته يوحي لي بأن عجينة التأويل لا تأتي سريعاً لأن التأويل أصعب ممارسة عقلية في حياة الفرد منا. قال بعد هذا السكوت المطوّل:

- أهم شي إنك ما سرقت، أنا خفت إنهم قطعوا رجلك لأنك سرقت!

بدءاً استغربت هذا التأويل، لكن مع الأيام أيقنت بأن القرى تبذر في داخلك الخبث والخذلان. قلت له بسذاجة صبي:

- يا عم اللي يسرق يقطعون يده مو رجله.

وعندما لم أجد منه جواباً أكملت:

- حتى إذا تبي تتأكد اسأل أبوي.

حين أتى العشاء، دفعوني له كي آكل، بقيت بجانب عمي التاري أتكئ على رجل واحدة وخيبات عدة. فكم هو ظالم شعورك وأنت ترى النظرات تخترق جسدك ولا تلوي على شيء سوى الضعف. عمي التاري اشتهر بسخريته، بتقليب الحكايات القديمة لاستدرار ضحكة مسن فقط، كان يسرد حكاياته، والمسنون يضحكون، وكنت أتأرجح فوق منطقها وفلسفتها. هنالك حكايات هي الحياة برمتها. كان يقول ونحن نتناول العشاء "أتدرون يا جماعة، بأن جنود الأتراك قديماً كانوا مثل الوحوش، فقد كان الواحد منهم حينما تأتيه رعشة الشهوة مخاتلة، يذهب إلى أقرب بيت في القرية، ويدخل ليختلي بإحدى بناته، لكنه قبل

أن يدس جسده في البيت يضع "طربوشه" على ناصية الباب، كي يعرف أهل الدار حينما يعودون من الحقول أنه موجود في الداخل يفرّغ بقايا جسده التي ترمّدت في داخله؟!" كنت أسمع وأنا منهمك في نهش قطعة من اللحم وكأنها لحم ذلك التركي، في هذا الوقت سأله أحدهم:

- يا التاري، هل كان أهل القرى هنالك يرضون بهذه المهانة؟!

- سألت هذا السؤال لزبيد فقال لي "إذا أتتك الحياة بجبروتها الذي لا يرد، فحاول أن تستمتع بعذاباتك"!

كنت حينما أسمع حكاية من حكايات الأتراك التي عبّأت مخيلتي، بدوّي في داخلي سؤال ضخم: يا ترى هل هذه الحكايات حقيقية أم هي عادة الإنسان القروي حينما يبغض شيئاً يشوهه بالحكايات؟! ولماذا يصرّ عمي التاري على أن الأتراك أسياد العهر؟! لماذا لم يفترض يوماً بأنها مصاهرة كما قال لي حماد؟!

بعد تلك الليلة بدأت تتوافد أسماء الأقارب ممن سمعت به وممن لم أسمع به قط، لأننا ونحن وجوه جديدة للحضور تحضر معنا كل الأشياء المنطقية وغير المنطقية. جاءني جدي لأمي، كان شيخاً ممتلئاً نشوة، وكانت صورته انعكاساً لما كنت أراه في ابنه "توماس"، ضمني إليه ورحب بي كثيراً، وكأنني مولود جديد ذات يوم جاءني توماس وأنا في بدء مراهقتي، وكان هو بالمقابل يقاربني سناً، وحكى لي سيرة جدي هذا. كان جدي "رشاد" منحلاً بحرفة الولاة والسلاطين، كان يمارس سكره وعربدته بمازوشية مطلقة، فحين تراه كأنك تتابع مسلسلاً تاريخياً عن والٍ أو سلطان، كان لا يشرب إلا الخمرة في حضور عبيده وجواريه، وكان لا يشربها إلا في قدح من الفخار. حينما أتذكر قصة عربدة جدي، تطفو على عقلي مقولة لتوماس قالها لي مرة:

- إن العربيد الذي لا يعامل الحياة بسادية، فهو في الحقيقة عار على العربدة!

مرت أربعة أشهر وأنا أحاول أن أتصالح مع حياتي الجديدة، فليس

أصعب من العيش في القرية، إلا التصالح معها وأنت إنسان المدينة. لأن قياس العمود الفقري في حكايتي مسافة ذاكرة تثقل الجفاف. بعد أسبوع كامل تبادلنا فيه الحكايات، والتراحيب، بدأت أعي منظر الحجارة المتكدسة أمام منزل عمي مصلح، كانت من كثرتها تشبه الأهرام، هيئتها تشبه حكايات الأجيال والمريدين، لم أصدق أذني عندما سمعت عمي مصلح يقول، إجابة عما سأله أخي محمد عن هذه الحجارة حين قال:

- هذه الحجارة هي أنتم بعد قرن من الزمان.

سألت أبي فيما بعد عنها فقال لي:

- يا ولدي، هنا دفنّا رموز حياتنا، آباءنا وأجدادنا، هذه الحجارة هي هم ونحن وأنتم وكل من يأتي من ظهورنا وظهوركم فيما بعد.

لم أكن أتوقع أي علاقة تربط هذه الحجارة بالضمائر المنفصلة كلها، هم، ونحن، وأنتم، وكأنها قاعدة نحوية تشترك فيها كل الضمائر المنفصلة باختلاف تصانيفها، ولم أكن أعي بوذية أهلي، وطقوس موتاهم، وكأنني أقرأ كتاباً عن طقوس لدينٍ يقبع شرق الأرض، كانوا يدفنون موتاهم على بعد مرمى نظرة منهم، ليحيوا أسرى نظرة، ومعتقلي جناية! لكن هي القرى دوماً تجعلنا نخاف التورط مع القدر.

عندما أصبحت الدراسة قريبة مني حد التداخل، فكرت كثيراً في أول يوم دراسي لطالب معاق في أرض الخذلان. كيف أدخل ذلك البيت الطيني المتهالك فاقداً ساقاً، وعديم الأصدقاء؟! ترى هل للإنسان القدرة على التعايش في الحياة إذا أيقن بواره؟!

***

كنت متلاشياً بقوة، وبدأت دراستي فعلاً.

في أول يوم دراسي، مكثت أقلب صفحة وجه الطاولة، أبحث فيها عن مخرج لجريمتي، هذه الجريمة التي قادني إليها القدر رغماً عني، لم

أستطع الخروج من دوامة العبث مع الطاولة، إلا مع قرع جرس الفسحة، كالتائه خرجت أنتعل مرارتي، وبدأت نظراتي تركض في ذلك الفناء المتسخ بشراً، إلى أن وقعت عيني على غرم الله، ذهبت إليه مستاء وقلت له:

- ما هذه المدرسة حتى الطلاب لا يجيدون فيها التعارف؟!

- ما زلت غريباً، حاول أن تتعرف أنت.

صحيح أنني خرجت بصداقات عدة من تلك المدرسة، إلا أنني أشعر بأنني غريب فعلاً، ويلسعني السؤال دوماً، هل الغربة هي غربة الروح فعلاً؟! أم أن من استحدثها شخص فاشل في علاقاته الإنسانية؟!

عدت إلى الفصل بعد تلك الفسحة غير المباركة، متّزراً حيائي وعدم ثقتي بساقي، وقفت كالدراويش أمام طاولتي أتفحص الوجوه كطفل لا يعي عالمه الخارجي، بقيت مدة أتأمل الوجوه، تقدم إليّ طالب كنت أرى في سيمائه شيئاً يختلف عن أبناء قريتي، لأن بشرته كانت أكثر سمرة منها في وجوه الطلاب الآخرين قال لي:

- أأنت طالب جديد؟!

- نعم.

- ما اسمك؟

- قصاص.

وبادرته:

- وأنت؟

- سعيد.

- عاشت الأسامي.

- الله يسلمك.

انتظرت أن يهدأ مدير أسئلته، عرف بأنني قدمت من المنطقة الشرقية لألتحف جوع القرى، كان أيضاً مثلي قاده القدر كشاة إلى هذه القرية، لأن أباه عُيّن بها معلماً، بعد أن تركوا "القطيف". ككل

المراهقين تحدثنا كثيراً ذلك اليوم، انقضى اليوم الدراسي مع سعيد سريعاً، عندما أتذكر ذلك اليوم تقودني ذاكرتي إلى سؤال وجودي عملاق، لماذا نحن في حضرة السعادة نشعر بأن الوقت يمرّ أسرع مما نتخيل؟! عدت إلى البيت فرحاً بهذه الصداقة، وباحثاً عن حكايات أخرى أدلقها على مسامع سعيد كي لا توسم صداقتنا بالرتابة!

امتنعت عن الصداقات، واكتفيت بسعيد صديقاً. كنا نلتقي صباحاً، لتقذفنا المدرسة ظهراً، آملين في اللقاء صباح الغد. حكى لي قصته مع ابنة خالته التي أضحت ضحية قرار وزاري، جاء تعيين أبيه في قريتنا، ورحل تاركاً إياها خلفه، تلوك مرارة الانتظار، في مجتمع لا يعرف عن المرأة إلا أنها محطة يطأها المرء حين يلوذ بالتشفي. فهل الأطفال يحبون فعلاً؟! أم أن نزوة الإنسانية في دواخلهم لها وقع النيران تحرق إن لم تدارَ؟! رغم أنه كان شيعياً، ومذهبه هذا لم أعرفه إلا مؤخراً حينما قرأت عن الشيعة، وقارنت بين تصرفاته أثناء الصلاة مع ما كنت أقرأ، إلا أنه كان إنساناً بحق، لأن الإنسانية لا دين لها ولا مذهب.

كان يحكي لي حكايته عن حبه لها، وكنت أمقته إذا أتى على هذه الحكاية، وأنا لا أعلم بالضبط هل هو عدم إيمان بحب الأطفال أم أنها غيرة طفولية بحتة؟! لكن ما أنا متيقن منه، أن سعيداً هو من ربّى منطق الحب في حياتي. فالحب نتيجة تراكم حكايات وتجارب ووقائع، تُغربَل إلى أن تغدو حقيقة، لأن الإنسان الذي لا يعرف عن الحب شيئاً لا يمكن أن يحب مطلقاً.

وبسهولة أستطيع القول: رحل سعيد في منتصف العام الدراسي، في منتصف علاقتنا.. بداية الفصل الدراسي الثاني أهدى إليّ صدمة جديدة ورحل. رحل وبقيت أنتظر سعيداً آخر. يالقسوة الأيام تجبرني الآن أن أتجبّر في كتابتها، أحاول الآن أن أُمجّد سعيداً بكتابتي هذه، لولا ظروف الزمن الذي عشته وظروف التجربة.

بقيت أنتظر إلى أن يفرغ الزمن من مداراته لي، ويهدي إلي صديقاً آخر. كالعذارى كنت أنتظر مجيء صديق لخطبتي تحت مسمى قسمة ونصيب. غرس سعيد قناعة الحب في ذاتي ورحل، وتولى الزمن حبْكَ تصرفاتي مع مشاعري لكن أكثر ما كنت أخشاه أن تتوحد عاهتي مع حبي. وأنا لا أدري لماذا كنت رهين الفراقات الحاسمة؟!

منتديات الكوكب العاشر

السنة الأولى بعد حمدة

عاد سعيد إلى حياتي بعد سنة في غفلة مني.

لم يعد جسداً، لم يعد قيمة مادية، بل عاد ذكرى مفرحة/مبكية، حصل ذلك حينما أحببت حمدة، تذكرته وكأنني تلميذ نجيب يعيد ترتيب أفكار معلمه. فالحياة كالزوايا، والأبواب الموصدة، متشابهة كثيراً في تفاصيلها. عندما شاهدت نظرات الاستراق من أبناء عمومتي، صارحت حمدة بحبي ورقاً. كانت رسالتي تلك محاولة انتزاع موارية لما كان يسكن في فؤادها، كنت أرى اللهفة والخبث متسمّرين في عيون أبناء عمومتي، وخوف أن يسرقها أحدهم تجرأت على كرامتي وخوفي وتقدمت بطلب يد حبها. كنت صغيراً بما فيه الكفاية، تسلّقت حبال بلوغي تواً، وتسامقت أمام عمري وهددت الحب. فما الذي تنتظره فتاة من محبة طفل؟! وهل الحب في دواخلنا مرحلة زمنية مؤرشفة؟! كنت أنتزع منديل الذكاء من جيبي وأتمخّط به. فعندما أراد أبناء عمي أبي نضال السفر، سحبت "نضال" من يده وأسررت له حبي لحمدة وحبها لي، وأنا لا أدري لماذا أسررت له هذا الخبر؟! فهل كنت أتشفّى منهم أم من عاهتي؟! أم كي يصل الخبر إلى مسامع الآخرين ويبتعدوا عن حمدة؟! هل يا ترى الحب ملكية كبرى؟! أم هو ملكية جزئية لنا الحق في اقتسامها؟!

سحبته من يده، واتجهت به صوب الوحدة وقلت له دون مقدمات:

- سأقول لك سراً أتمنى ألا تفشيه لأحد، اعترفتْ لي حمدة بأنها تحبني وأنا أحبها، وعندما أكبر سأتزوجها.

نظر إليّ نضال بخبث المدن وقال:

- الله يهنيك، لكن انتبه لدراستك حالياً أفضل لك.

سافر نضال، وأخذ سري وحزني معه. فلم أحترم أسراري منذ ولادتها، فقد أفشيتها غباء، جهلاً، خبثاً، تشفياً ومواربة. كنت أستمتع برسائلي إليها، وهي كذلك، إلى أن غزانا الفتور من تداول حب كهذا. فقد قال لي سعيد يوماً عن الحب:

- اللي يحب لازم يطلع كل يوم بشكل جديد في حبه، علشان الحب ما يمصخ!

بمنطق الصبية قال هذه الفلسفة.

هل يا ترى ما قاله صدق؟! هل الحب الذي يبقى على وتيرة واحدة يموت فتوراً فعلاً؟! بعد قرابة الشهرين من لقائنا الأولين، دعوتها إلى لقاء ثالث، كان الظرف الاجتماعي الذي حرّم علينا اللقيا، يرفض أن نتقابل بمفردنا، وحرت في تصديق هذا الظرف، هذا المأزق. فالعشاق في بلادنا سارقون مهرة!، تحايلت على القيم، على المبادئ، على العادات، على التقاليد، اقترحت أن نلتقي في بيتنا حين تقوم بزيارتنا وأهلها. و بعد يومين قالت لي أمي وأنا أهمّ بالخروج من المنزل بحثاً عن منقذ:

- أهل عمك سيزورونا الليلة، تعرف أنهم عائلة كثيرة الفتيات فلا أريد أن أراك هنا.

هي الأخبار السارة انفجارات كونية. تفجّر هذا الخبر في داخلي بحركات صبيانية، انتظرت إلى أن تواريت عن أمي، وأخذت أقفز على ساق واحدة، متناسياً ألمي وعاهتي، وحياتي. عندما سارعت إلى اقتفاء حركتي المشهورة تلك، فأخذت أطبقها بسرور بالغ، فعندما نضيع في الفرائحية ننسى مآسينا! أخذ الزمن ينقل خطواته ببطء مثل المسنين، وأخذت أتآكل من الداخل مثل النار، لتتمثل حياتي آنذاك "جاهلية قريش".

اغتنمت هذه الفرصة، فانطلقت إلى حجرتي، وكتبت رسالة قصيرة جداً، غربلتها بجدية عاشق لأصل إلى لب الموضوع، كتبت لها:

"حبيبتي حمدة، قالت لي أمي اليوم إنك بتزوروننا، أنا راح أنتظركم في البيت، واذا دخلتم راح أطلع وألف من وراء بيتنا وأدخل من باب الرجال الخلفي، وأنتظرك في مجلس الرجال، أنت أجلسي معهم عشر دقائق، وتعالي لي في المجلس، لازم أقابلك لأنك وحشتيني مرة مرة.

قصاص"

أعطيت رشود هذه الرسالة، فانطلق بها، وذهبت أدخن تحت جدار بيتنا، إلى أن جاء وأخبرني بأنه أعطاها إياها، لم أكن على يقين بأنها ستأتي، لكن كنت أركل هذه الفكرة خشية أن تترسخ في عقلي، ولا أخرج منها مطلقاً. وحين جاء المساء، رأيتها مع أمها تأتي من بعيد، فدخلت بيتنا ولبست أجمل ثيابي، وعندما سمعت صوت أمها داخل حوش بيتنا، خرجت من الحجرة واتجهت إلى الباب، وفي طريقي بادرتني عمتي سحابة:

- كيفك يا قصاص؟
- بخير يا عمة، كيفكم أنتم.
- نحمد الله بألف خير.
- كيف المدرسة؟
- ماشية ولله الحمد.
- الله يوفقك وييسر أمورك.

خرجت من الباب، وشعور يعتريني بأن أقف وأحدق في حمدة وهي لابسة حجابها، لأني لم أعتد أن أراها بعباءتها وغطاء وجهها إلا قليلاً، فالعباءة في بلادنا مدرّة للفتنة. حمت حول البيت، دخلت من الباب الخلفي، واستندت إلى جدار مجلس الرجال، وأخذت أدخن،

وكون بيتنا مكشوفاً لم أخف انتشار رائحة الدخان، بقيت منتظراً، منتظراً، وأنا لا أعلم هل ستأتي حمدة أم لا...

***

بعد فترة وجيزة وصلت قمري مشعّة.

انزويت كما يفعل العشاق ورهبة في داخلي تتسامق أن تراني أمي، حاولت أن آخذها بعيداً، بعيداً جداً، فنحن قساة تجاه من نحب، نخطفهم ولا نتوانى في أسرهم عن العالم، نبعدهم عن الحياة وكأن العالم مصاب بداء معدٍ، وفي الحقيقة نحن من نعاني هذا الوباء الفتّاك. دخلت عليّ تلك الحجرة المنتنة إلا من رائحة عطرها. كانت صغيرة لفرط ما كان شعرها ينجب من الضفائر، كانت ضفائر شعرها المنسدلة خلف ظهرها توحي بشبئين اثنين أولهما أنها طفلة تمارس الحب من أجل الزواج، وثانيهما أنني معاق وقع تحت هستيريا الحب الطفولي. ذلك الذي يأتي بغتة ويندثر بغتة، ونحن واقفون أمامه أشبه بمن حُكم عليهم بالإعدام!

استندت إلى الجدار الحائل بين أهلها وألمي، تقاعست أمام عقلي وركضت في الحال أرمّم شعور النقص في داخلي.

أقبلت كما يقبل القياصرة، وهي تخفض رأساً وتشهر بسمة من خلف خجل الجمال الصيباني الذي ينبثق منها.

***

من أحاديث عمي النتاري عن الخجل أثناء حضور المرأة كان يقول:

- لا يليق بالرجل الخجول في حضرة امرأة إلا شيئان إما أن

يتخنّث، وإما أن يتكئ على برجه ليردم هوة الحقارة في نفسه، فالرجال هم الصلابة التي لابد أن تهتك خجل المرأة.

***

مدت يدها، تريد مصافحتي، ولم أكن أعرف بأنها كانت تختبر فيّ مدى الحب الذي يغور في داخلي. فتصرفات النساء في الحب مدروسة، كلها تدغدغ إيقاعات الحب في طرفها الآخر. فعندما أمسكت يدها، تراءت لي الدنيا صغيرة حد التلعثم، ولم أستطع إلا أن أنظر إلى وجهها فقط. إننا حين نوغل في تقديس النظر تجاه الأشياء، فذلك لأننا لا نستطيع إلا النظر، والنفر هو أسهل سلوك يمارسه الفرد إزاء المتغيرات في الحياة. ولبرهة ممتدة أمسكت يدها طويلاً، أمسكتها والدنيا تدور بي، في الحلم أوغلت، تناقصت الحقيقة في عالمي لحظتذاك، لم تبق مني إلا نزعة ملمس، بقيت ممسكاً بها، ومحدقاً في وجهها فقط. أكنت حينها أنتظر أن تعتقني من غرائبية تصرفاتي؟! أم أنني كنت مستلذاً ملمسها الناعم؟! لا أدري. فنحن نرهق أنفسنا بالتفكير في الأشياء الصغيرة التي لا تأخذ من حيز حياتنا إلا أوقات صغيرة. فعلاً.. إن الحياة عقل خفي، عقل ليس كما لنا نحن من العقول، إنه اللعبة التي تجعلنا على افتراض السقوط دوماً. فرغم قصر المسافة التي اجتزتها عند ملامسة يدي يدها، إلا أنني شعرت بأنها قرن من اللذة. عندما يتوقف الزمان فجأة، فنحن نمارس اللذة أو العذاب بالتداور. فما أسعد أن تذوب الدوائر والحلقات التي بيننا وبين ملذاتنا! فالحب هو اللذة العظمى في الحياة، الحب يشبه التنقيب في مناجم ذواتنا عندما لا نحترم عذرية أفئدتنا ومشاعرنا. إن المحبين مواطنون من الدرجة الثانية. لأنهم لا يأخذون الحياة كما هي، إنما يرتمون على المعجزات والخوارق، ويسطرون ألمهم، شقاءهم، متعة عذابهم وغبائهم أحياناً باحتراف.

جلست عن يساري حيث كل شيء متين، لأن اليسار في حياة كل منا شق معتم، لم يكن ذلك الدليل ذا سعير لا ينطفئ، بل انطفأ لوهلة، ولم أتأكد إلا الآن أن جلستها تلك نبوءة لحب يتهدم. كنت أستطيع تأويل التصرفات بشرّ، لكنّ العشاق لا ينظرون إلى المرآة أبداً.

قالت لي:

- كيفك؟!

اختزلت كل عذاباتي، وساعات ولهي، وأيام انتظاري في سؤال لم يتجاوز الخمسة أحرف. يا الله.. نحن نظلم مشاعرنا إذا اقترفناها حكياً!، نوهم دواخلنا بأن ما نقوم به حالة انصهار حبيّ منمق، وهو عكس ما نتصور. إن الحب الذي يكتسي كلمات فقط، هو غلاف آخر للسذاجة.

أجبت عن سؤالها بيرود:

- بخير.

وبعد برهة أضفت:

- وحشتيني.

لم تزد على أن قالت:

- ما يوحشك غالي.

مضى الزمن سريعاً، وأنا أتأمل تلك القارة من الملاحة التي ترتسم على هذا الكوكب المتدفق أمامي. كان سكوتنا أكثر من حديثنا، وكنت ألوك الصمت في حضرتها بغية أن أتشبّع من ملامحها. كالرسام هو الحب. يرسم لنا ملامح الأشياء بما تمليه عليه ذائقة طباعنا. وككل الناس الذين يعيشون الحب في ديارنا، عشت تلك اللحظة وأنا أنتظر الفكاك من رقّ الرقيب، والغنيمة بشيء من الحرية يبدد مرارة فرادى اللقاءات. كانت حمدة قاسية معي حد البذخ. نعم لقد كانت قاسية معي كالأحجار التي تكون أركاناً لمنزل نعيش فيه، وحين تتهالك تسقط فوقنا لنموت. قالت بعد أن غار الصمت فينا كثيراً.

- طلبت إنك تقابلني، علشان تسكت، وإلا علشان تقول لي كلام دايم نسمعه في المسلسلات.

- وش تبين طيب؟

- ولا شيء بس حيت أنبهك أن الحاجات الحلوة تختفي بسرعة.

لم يكن منطق طفلة ذاك. فعلاً لقد أصبحت أمام شيء له علاقة برؤية المفكرين، والأبعاد الأخرى. تمزقت بعنف ذلك اليوم، كالتلاميذ اللامبالين بتمزيق كراساتهم مزقتني حمدة إرباً إرباً. تدحرجت قناعاتي ورؤاي أمامي، وسقطتُ في وحل من عدم التصديق، وأنا في كل ما أملكه حالة ذهول عظمى. فهل نحن حينما نُصدم في الحياة بشيء ما نصير قنافذ فعلاً؟! هذا السؤال الذي أخذ بتلابيب تفكيري، وطرحه جانباً.

- أحبك يا حمدة، والله أحبك موت.

- ...

لم تكن تجاري خبلي هذا، بل كانت تصمت دائماً، لم أتعوّد منها أن تنفث حبها أمامي صوتاً، كانت كثيراً ما تكتبه لي، ولكن عندما أحاول أن أدفعها للاعتراف بحبي صوتاً كانت تسكت، ولا أدري لماذا هذا السكوت؟ هل كانت تخجل من قول هذه الكلمة؟ أم لم تعترف بالحب إلا كتابة؟ وهل ثمة فرق بين أن نقول الحب صوتاً، وبين أن نكتبه على الورق؟ ربما أفهم جيداً أنها فتاة كانت تحب من أجل الزواج في قرية لا يمكن أن تعترف بالحب إلا كفضيلة، أو ربما أفهم أنها كانت تجاري فيّ رسائلي وتقول بأنها تحبني، وهي تخرج لسانها وفي داخلها شيء يتكسر ويقول "متى راح يجي ويخطبني وأفتك"، كنت أعرف جيداً أنها تريد الزواج بأي طريقة كانت، وفي الأخير تيقنت بأنه لو تقدّم لها قرد لقبلت به، لأن المرأة في القرى عورة إلى أن تتزوج، سكتّ أنتظر ردها، وبقيت صامتة تنتظر مني جملة تبدد ذلك العشق المتدفق أمامها، خاصة أنه عشق يأتي خلف الحلف والقسم، فقلت لها:

- كيف المدرسة؟

- حلوة.

- تصدقين، كان يقول لي واحد من أصحابي في المدرسة السنة اللي فاتت حاجات كثير عن الحب، وأنه كان يحب له بنت عم ولكن ما كنت أصدق.

- ايوه.

- وبعد ما حبيتك عرفت أن كلامه كله صدق.

لم تتكلم أيضاً، وبقيت أنتظر أي كلمة تقولها لتؤكد لي بأنني لست معاقاً، فالمرء حين تصيبه لعنة ما يحاول أن يتناساها، ويخلق له أجواء أخرى بغية أن يطردها من عقله، ولكن حين يجد أن كل الظروف تقف في وجهه يعود إلى لعنته تلك، ليتجرع مرارتها ندماً، ويغور في التآمر إزاء تلك اللعنة، فهي كذلك إعاقتي، عندما أجد كل الظروف المحيطة بي تخذلني، يتآمر داخلي إزاء تلك الإعاقة، لأنها السبب الوحيد في خذلاني ذاك.

- الظاهر إن ما لك نفس تجلسين.

- لا والله بس ما عندي شيء أقوله.

- قولي أي شيء.

- وش تبيني أقول.

- أي شيء.

- والله ما عندي شيء أقوله.

عندما حلفتْ بدأت أتصالح مع ما في داخلي من أفكار، لكنني فيما بعد تأكدت بأن الحلف عند الصبيّة شيء ما يشبه أن يتناول الشخص منا ماء بارداً بعد أن يعود من المدرسة مشياً في ظهيرة يوم حار جداً، فكيف يمكنني أن أتصالح مع الحلف الآن بعدما تأكدت بأن ثمة حلفاً حتمياً، فهناك بعض التصرفات التي تكون ناتجاً حتمياً لابدّ منه،

فالشخص الفارغ ينقاد إلى الانحراف عادة لأن الانحراف ناتج حتمي لفراغه، قلت لها ضاحكاً:

- تخيلي لو أنك أميرة.
- أميرة مرة وحدة.
- إيه أميرة، وش راح تسوين.
- ما أدري.
- أنا لو إني أمير، أول شيء أسويه إني أركّبك طيارة.

أضحك الآن كثيراً على ذاك الحلم الأفل، وبعدما ركبت حمدة الطائرة: هل هي تتذكر حلمي الطفولي والأخرق ذاك؟! وهل أصبحت الطائرات تشكّل لها أزمة عاطفية كما هي بعاقتي تشكّل لي أزمة كتابية؟!، لا أستطيع أن أجزم بما تفكر فيه إزاء الطائرات: لكنني موقن بأن الطائرة حتى لو حاولت تناسيها تبقى ذاكرة محلقة في داخلها، فالعاشق مهما حاول أن يتناسى تبقى الذكريات تشكّل له إشكالية توافق.

ضحكت يومذاك، وكأن البؤس في العالم رحل لحظتئذ.

أكمل:

- وأخليك تسوقين الطايرة بعد.
- أخاف نصدم.
- وين نصدم وحنا في السماء.
- طيب بنطيع.
- ما عليك أنا راح أكون في المقعد اللي جنبك.
- ليش الطيارة لها سواقين.
- إيه لها سواقين، وإذا طلعت في السماء تمشي لوحدها.
- من جد والله؟
- إيه إيه.

كنت أحاول أن أفرد أمامها جبروت معارفي البسيطة تلك، كنت أؤكد لها وأنا لا أعرف هل فعلاً ما قلته صحيح أم لا، لكن فيما بعد،

وبعدما توغلت في مشاهدة الأفلام الوثائقية، وشاهدت مرة فيلماً وثائقياً عن الطائرات المدنية عرفت أن ما قرأته في مجلة ماجد كان صحيحاً، كنت أتفنن في حشوها بالغرائبية لكي لا تخرج مني مطلقاً، فأنت تستطيع أن تخرج من أزمة صديق حميم لك، لكنك لا تستطيع أن تخرج من جبروت إنسان ما برع في تعبئتك بالغرائبية.

- بارب تصير طيار.

- ليش.

- علشان اركب معك في الطيارة، لأنك ما راح تصير أمير لو نموت.

- إن شاء الله.

قلت إن شاء الله، وأنا على ثقة مطلقة بأن الطيران لا يقبل بالمعاقين: قلتها وأنا متأكد بأنها لم تكن تمتحن فيّ لعنتي، إنما كانت تريد الوصول إلى حلمها بطريقة منطقية جداً.

- طيب أبي أروح.

- وين؟

- تأخرت!

- تونا ما جلسنا.

- ما أقدر أجلس أبد.

- يعني بتمشين؟

- إيه إيه.

- طيب قولي لي أحبك.

- ...

- قوليها وروحي.

- ...

- تكفين قوليها يا حمدة.

- راح أكتبها لك في رسالة، يلا مع السلامة.

ذهبت، وتركتني مستلقياً أمام أحلامي أن تقول لي أحبك ولو لمرة واحدة صوتاً، ذهبت وأنا أتذكر تلك القصة التي قالها لنا عمي التاري.

قال "كانت القرى متخمة بالنساء الجميلات حد الدهشة، كن يسرحن بغنمهن وغناؤهن يسبقهن بمشط الأفق، كان ثمة فتاة اسمها "صالحة"، ركض الجمال على محياها كثيراً، لم يستوعب رجالات القرية هذا الجمال، فأخذوا يتجنبونها خشية أن تفتق دمامتهم، وفي يوم من الأيام وبعد أن دخل الأتراك تلك القرية، رآها أحد الجنود الترك بين غنمها كحورية، فتقدم إليها، هو المعتاد على الجمال في تركيا، البلد الذي يستحدث الجمال بالمداورة، استغربت جراءة هذا الرجل في المكوث أمام جمالها الهادر، كانت تعرف مقدار حسنها، لأن المرأة التي تدرك أن حسنها أكبر من تصور رجل ما، تتفانى في إبرازه، اقترب منها، وداعب كبرياءها بكلمات لا يحسنها إلا الترك، وبدأت الفتاة تذوب في خشونة ذلك الرجل، ومع الأيام قررا أن يتزوجا ويذهبا إلى موطن التركي ذلك، كانت تنتظر ليلة لا تفهمها إلا العروس، هن النساء من فرط حبهن لهذه الليلة كالراهبات يدفعن حياتهن ويندرنها رغبة في هذا الموعد، بعد مدة من الزمن رحل الرجل التركي، دون علم "صالحة"، ولم يعد، وكل ما تبقى منه طيف ليلة زفاف، وبذرة في رحم صالحة تنتظر أن تتفجّر".

عادت بي الذاكرة إلى حياتي كأولها. أن ننتظر حبك يأتي موتاً، وحين يأتي ويندثر بكل سهولة موت آخر، فكم نحتاج من الميتات لنبلغ ذروة الانتشاء بالحب؟! فالحب: وسادة اليائسين.

عدت أستدر الموقف من حياتي بظرافة، أريد أن أنشق رائحة الحياة الجميلة متزوياً في الانتظار، لأن الانتظار سيد مرهق يبعث فينا الملل، والإقدام على الأشياء المحرمة والمنبوذة. وكما كانت الإعاقة سبباً في توجهي للقراءة بشغف، زاد تسرب حبي هذا الشغف، فقد كانت القراءة في حياتي ناتجاً حتمياً لكل ما كنت أتعرض له في حياتي،

فالإعاقة من جهة، والحب من جهة أخرى، والغربة من جهة ثالثة، وأنا أقف أمام هذه الزوايا الثلاث أقنات كتاباً.

كتبت لها مرة، رسالة قصيرة جداً:

"حبيبتي حمدة، لدي سؤال واحد فقط:

هل الحب أن تنتهي كل العلاقات الروحانية بجانب ساد ومفرح؟!

قصاص"

بعد أيام من الارتباك في انتظار إجابة، جاءتني رسالة منها محملة عطراً، محملة ريحاناً، محملة خيبة.

قالت:

"حبيبي قصاص: ما أدري وش تقصد؟!

حمدة"

ألقت فيّ حمدة سخرية مرّة تجاه الإجابات، ولم أعد أجرؤ على الأسئلة التي تأتيني إجاباتها معلّبة ومختومة.

***

في الواقع، كنت أخاتل حياتي بقلمي، لأنني عاجز عن مجاراتها بأعضائي، بدأت أكتب الأسئلة ولا أنتظر إجابات لها، لأن السؤال الذي لا يحملك وزر الإجابة عنه سؤال حي، كنت أكتب على أقصوصات من الورق، وأقوم بحرقها كي لا يموت السؤال حين يجابه الإجابة عنه. أصبحتْ هذه عادة تلازمني، إلى وقت قريب جداً، قبل كتابة هذه الرواية بأيام، كان شبح الترمد يدهمني دائماً، كي أحرق هذه المخطوطة، فعندما انتهيت من القسم الأول من هذا العمل الذي يحمل اسم

"المكاز" أردت إحراقه، ولكن حماد حينما علم بذلك جاءني وقال لي:

- إن كنت لا تستطيع إكمالها، فأعطنيها وسأقوم بنشرها ناقصة، يبدو أن وزر الماضي يجعلك تقدم على أشياء سيئة.

- لكني في بعض الأحيان أقسو على نفسي.

- القسوة على الذات تبرؤ مما علق فيها من شوائب يا صديقي، أعطني هذه المخطوطة، وخذ وقتك للراحة، وعندما تشعر بأنك قادر على إكمالها تعال وخذها مني، لأن من يحرق نفسه بنفسه، لا يجدر به العيش ولو دقيقة واحدة.

- لكني أشعر بأن هذه الرواية لو نشرت سأحترق.

- صدقني يا قصاص، بأن الأشياء التي تُكتَب تفقد قيمتها في الفؤاد، صحيح أنني أراك وقد تعريت في هذا العمل كثيراً، لكنني مؤمن بأنك تكتب شيئاً سيكون تاريخاً في يوم ما، وهذا ما يجعلني مُصرّ على أن تمضي فيه ولا تتوقف.

تركتها معه، ومعها ثلاث أقصوصات، لم أستطع حرقها، أو ربما عرف حماد بمقدار ما تحمله في جوفها فأخذها مني، لأنه عندما كان يدخل إلى حجرتي أنا وأخوتي ينطلق بدءاً لآخر ما كتبته ويسرقه مني خشية أن أحرقه. تلك الأقصوصات الثلاث كانت تحمل في بطنها ثلاثة أسئلة فقط.

الأقصوصة الأولى: لماذا لا يسكن الحب إلا المنبوذين في المجتمعات؟! وهل المرء الذي لا يحزن ليس بإنسان؟!

الأقصوصة الثانية: لماذا بترت ساقي؟!

الأقصوصة الثالثة: لماذا تجبر الأتراك في القرى حتى غدت مهووسة بهم؟!

السنة الثانية بعد حمدة

ذات مساء، وبعد سنة اندحرت من لقائي مع حمدة ووقفت أمام عراء القرية أستمتع بمريها وعهرها، تذكرت أشياء كثيرة جداً حد التداخل، بدأت أنتعش لأن ما ترسب في داخلي من حكايات بدأ يظهر أمامي في رؤى، كانوا يقولون في حرية مطلقة وكأن الأموات أناس يتماهون معهم، لم يحترموا قدسية الموت، مؤخرين الآجال إلى الوراء، حيث نهرب نحن من سر الموت القادم.

كانوا يقولون: "كان هناك امرأة تعيش حياتها في القرية كما يعيشها الرجال، كانت لا تتورع عن مشاكسة الرجال ومقارعتهم في الطرقات والحقول، كالضوء كانت تنسل إلى مخادعهم دون دراية منهم، أوغلت في هذا التردي إلى أن ماتت، وحين جاء الموت بهدوء ماتت وهي مبتسمة بسخرية، فقام رجال القرية بمحاولة مواراتها في التربة سريعاً، لأنها وسمت القرية بالعار، لكنهم لم يستطيعوا حملها على أكتافهم، فقد ازداد وزنها حتى غدت كالصخرة بحملها، لم يتوانَ بعضهم بأن قالوا إنها أصبحت تضاهي صخرة "عنبر" في ثقلها، تركوها أياماً دون أن يجرؤ أحد على حملها، وبعد فترة مروا بالمكان الذي كانت ترقد فيه فلم يجدوها، ففاح الخبر في القرية بأن أحدهم سرقها، وخرج "علوان" بعد فترة قصيرة في القرية وهو يؤكد ويقسم على ذلك "إن الأتراك هم من سرقها، فقد رأيت آلة كبيرة تجرها، وهم يزعمون بأنهم سيضعونها في مكان للفرجة، يدفع الناس فيه نقوداً ليروها، ومعها أموات كثر"، تدارس أهل القرية هذا الخبر، وأيقنوا بأنهم هالكون، لأن من لا يحفظ شرف نسائه بين القرى بموت مدفوناً في المذلة، ولكن بعد أيام حصل

ما لم يكن في الحسبان، أخذت تظهر المرأة لبعض رجال القرية ممن أرادوا دفنها في منامهم توبخهم على التفريط فيها، وتركض طويلاً في أحلامهم وأمانيهم، غدت غولاً يهدّم الأحلام، ويؤثث الورث الرديء في أحلام القرويين الذين لا يلوكون إلا الجوع والفقر. ولم تخرج القرية من دَيْن قدسية الموت هذا إلا في يوم وجدوا فيه "علوان" ميتاً تحت شجرة سدر عملاقة، وبجانبه حجر ضخم مسنن وقطعة قماش مهترئة".

ما أسهل أن يفترض المرء عذرية الموت بالحكايات. كانوا يحكون هذه الحادثة، وتسري القشعريرة في جسدي كالكهرباء، فأنتفض خوفاً ورأفة. فعندما تجتمع الرأفة مع الخوف في جوف أحد ما، يغدو إنساناً للفوضى. لم أكن أعرف صخرة "عنبر" التي وصفها لي أهل القرية مناراً للمثقل، وكانت تثير فيّ الأسئلة، ولماذا سميت بهذا الاسم، وكيف أصبحت معلماً بارزاً، إلى أن جاء ذلك اليوم الغريب في بدايته، فالأيام ذاكرة مؤرشفة في داخل كل منا، يقدمها زمن لاستجواب المواقف والحكايات، صحوت مبكراً على غير المعتاد، استيقظت ألتحف الغربة، أنا المتأخر استيقاظه دائماً، تناولت الإفطار مع أمي وأبي، ووقفت أمام بيتنا المتداعي إلا من حكايات مدفونة، بينما أنا واقف مرّ بي عمي النتاري برفقة عكازه، فنظر إليّ، كانت نظرته مزيجاً من الفرحة والذهول، فرحة أن وجدني وحدي، والذهول الذي لا يخرج إلا من المسنين تجاه الشباب، إزاء نومهم واستيقاظهم، أشار إليّ بطرف من عكازه، فذهبت إليه أتكئ على طرفي الصناعي، حينما وصلت إليه بادرني:

- لماذا صحوت مبكراً؟

- لا أدري.

- غرائبية أحداثنا نزعة اكتشاف أحياناً...

لم أفهم ما قاله وقتها، ولم أتورع عن الولوغ في تداعي الفهم، وصمتّ، قال لي بعد برهة:

- كنت قد سألتني يوماً عن شيء ما، وسأجيبك عنه اليوم.

استغربت.. ومن فرط استغرابي، انقدت إليه دون أن أدري، وسؤال بسكنني، هل الذهول يُخرج الإنسان من دوامة وعيه دائماً؟! وما هو هذا الشيء الذي سيجيبني عنه عمي النتاري دون أن يتكلم؟! كان طوال الطريق صامتاً. وكنت معه لا أتذكر إلا اكتشافاً. مخطئ من يظن أن دروس الحياة مقننة، لأن الحياة كلها حصة تعلّم لا ينتهي. فدائماً، لا ندرك قيمة مواقف حياتنا إلا في مرحلة متأخرة من التفكير. سرنا باتجاه الوادي، وعندما وصلنا إلى بطنه، كانت الشمس تقبّل رؤوسنا من مفرق شعورنا، كان الوادي يُخرج الرعب شكلاً، وعمي النتاري يحدّق في صخرة تمتلئ سكينة. في الواقع، ثمة أماكن كالإنسان ثورة، تمرداً، صخباً، سكينة. قال عمي دون مقدمات:

- إن هذه الصخرة حكاية بحد ذاتها.

نظرت إليه، وأنا لم أستوعب بعد أن تكون الصخور حكايات.

أردف:

- الإنسان رديف للجمادات أحياناً، حين يغدو مستضعفاً، حشرة، كان لهذه الصخرة حكاية امتدت زمناً من الوعظ، هذه صخرة عنبر التي سألتني عنها يوماً، ففي ذات يوم كان ثمة عبد آبق هرب من سيده، وأثار غبار التآويل، وكما هي القرية بؤرة الحكايات أخذت تركض التآويل في حكايته إلى أن اختفى.

- وهل مات؟

- لا تستعجل يا بني، لأن من يستدر الحكايات من نهايتها، فلن يعرف مدى الوعظ والعبر، كان هذا العبد خادماً عند سيّد من رؤوس إحدى القبائل، المتأصلة في القرى التي تجاورنا، وكان وفياً لسيده حد امتناعه عن الانغماس في المهانة، كان يدعى "عنبر" وكان فارع الطول ومفتول الجسم، وسيم التقاسيم، يقال إنه جُلب من بلاد فارس، وبعضهم يقول ويؤكد أنه كان سيداً في قومه لكن أحدهم اختطفه وباعه

لأناس مرتحلين وجدهم في طريقه، وإني لما رأيته توسمت فيه ملامح أهل العراق، كان لسيده امرأة لعوب دفعته إلى الخطيئة رغماً عنه، فأبى، وحين بارت محاولات تلك المرأة وشت به عند سيده، وعلم أن سيده ينوي قتله، فهرب، ومكث زمناً فوق تلك الصخرة، لا يعرف مكانه إلا أنا، كنت آتيه بالزاد وحين يراني يصرخ "أيها العجوز عد إلى بيتك، لأن النبل في حياتنا حالة انخداع دوماً" فكنت أضع الزاد تحت الصخرة وأعود أدراجي دون أن أقول أي كلمة، تكرر هذا المشهد كثيراً، فكان يقول لي تلك الجملة وكنت أضع الزاد وأنسحب في صمت، دسست الحيرة في داخله، فإذا أردتَ يا بني أن تشغل خصمك فكن صامتاً، لأن صمت العدو دائماً باعث للحيرة والاستغراب.

سكت قليلاً، واتجه إلى شجرة كبيرة كانت تسكن وسط الوادي، وكنت أسير وراءه متعثراً، كنت أسير قلقاً ألا أسقط وأصير نكتة يلوكها بفلسفته إزاء سقوطي، وعندما وصل إلى الشجرة، رمى بعمامته واتكأ عليها، وأضاف:

- بدأ يتصالح معي مع مرور الأيام، وبعد مدة ليست بالقصيرة جلست بجانبه وحكى لي أمره حمماً تخرج من جوفه، وصدقاً كنت أستمتع بالحديث معه، قال لي مرة "يا عم، إن المرأة في حياتنا ظاهرة خطأ" ولهذا السبب اعتنقت مبدأه ولم أتزوج فلم أكن كهلاً في ذلك الوقت، وبعد مضي زمن لم أعد أراه وحين سألت عنه وأعطيت بعض الناس أوصافه قالوا لي بأنهم رأوا رجلاً بهذه الصفات يرحل للبعيد، انطلق عبر الحقول سريعاً، وبعضهم كان يقول إنهم رأوا رجلاً بهذه الصفات خلف عبيد يجرونه وهو مقيد وحينما سألنا عنه قالوا إنه عبد هرب من سيده، لأنه سرق مال سيده فأمسكنا به لنوصله إلى سيده ليقتله، وأنا لا أدري أين هو الآن، لكني أتذكر مقولته لي مرة "من أمن خبث الحياة فقد نجا"!، وأصبحت أرابط عند تلك الصخرة زمناً لعلي أراه مجدداً، وعندما يسألني أحد إلى أين أنا ذاهب أقول له إنني ذاهب

إلى صخرة "عنبر" حتى سميت هذه الصخرة باسمه، وهي معروفة إلى الآن.

لم أخرج بعد سماع هذه القصة من دوامة التأويل، هل عمي النتاري خرج من عنق اقترافه للذنب من هذه الحكاية؟! وهل هذه قصة عنبر فعلاً؟! ولماذا يؤكد عمي أن عنبراً قال إن المرأة حالة خطأ؟! وهل اقترف عمي ذنب عزوبته اعتناقاً لمبدأ؟! أم أنه يسرد هذه الحكاية يبرد أفعاله؟! إن أقبح ما يقدمه الإنسان، تبريراً لتصرفاته من العدم، وهو تبريرها بدلق الحكايات. كانت القرية بالنسبة إلي مندوب تفتيش، تفتش عما يذهلني وتخضني، أكثر ما كان يغيبني، فكرة أن أنعتق من رق القرية هذا، والأكثر حيرة، حينما أبقى في دوران مع الترك. بعد كل هذا الزمن من التفكير، هل الأتراك فعلاً ساديون في تعاملهم مع القرى؟! وهل كانوا سلطويين تجاه الناس والمراعي والجبال وحتى الأشجار؟!

عندما غاص عمي في حكاياتهم ورواياتهم التي لا تنتهي سألته مرة:

- يا عم، لماذا لا تقول إن الأتراك كانوا أناساً حقيقيين عاشوا بعدما أضافوا شيئاً إلى القرى.

- يا ولدي، لا أدري شيئاً هنا ما كنت أسمعه من "زبيد"، لكن وكما يقول آخرون، كانوا ظالمين.

- وهل كل الحكايات التي قالها لك حقيقية؟

- أنا أنقل ما أسمعه وليس بالضرورة أن تكون حقيقة، أو كذباً.

- لكن الإنسان مرهون للسانه.

- إن اللسان الباقي على شيء واحد يستحق القطع!

- يعني هذا أنك تريد أن يكون الإنسان صادقاً مرة، وكاذباً أخرى؟!

- هو الإنسان من التشكل شيء لا نستطيع الإمساك به.

انكمشت حينها على نفسي مثل قنفذ. هممت بأن أرحل متزراً

غبائي، ولكني لم أشأ أن أترك الحيرة تسكن عمي، وهو لا يعرف بأني مستاء من الحكايات التي يصبها في آذان الناس، تلك التي ترمز في كل ما ترمز إليه بالتسويد. فنحن نزوّر التاريخ، لأن قوى التماسك في داخلنا إزاء الحقيقة غير مرضية لأنفسنا، لذا نتحرر من كل القيود بأسلوب بدائي في صبغ الحقيقة بلون ليس لها. والحكايات كالكتابة: تلوين للحقيقة.

***

ذات قمر، حين تكون ليالي الشتاء في القرية ممطرة، خرجت من المنزل لا وجهة لي، أشعلت سيجارة، وحينما وجدت المطر شديداً اتقيته بجدار بيتنا الطيني، لم يكن في ذلك الوقت إلا أنا والدخان، وقفت أنظر إلى المطر بتأمل، فليس أجمل من رؤية المطر إلا تأمله، انتظرت طويلاً، فما إن أفرغ من سيجارة حتى أنكحها بثانية، ويستمر عهر الدخان ذاك. كنت أتأمل المطر ووابل من الصمت يدفعني، كنت ضئيلاً بما فيه الكفاية تجاه الحياة، والمجتمع، والأطفال والحب، وحتى اللعب، بدأت أتلاشى فيما بيني وبين نفسي، شعرت لوهلة بأن الكون كهل وقور، يقبع في كوخه، ولا يتصالح مع الأشياء من حوله. إن الكون يشبه منفضة السجائر، يجمع الناس بعد احتراقهم، إنه إرباك شعور الإنسان بالتسامق، إنه حالة شك لا تنقطع. فعندما نقف أمام الكون ببلاهة فنحن في الحقيقة لا ندرك قيمنا، لأن الإنسان وحياته تشبه الكون في كل تداعياته، فالكون إنسان ضخم جداً، يغضب ويزمجر، ويضحك ويحقد ويحب، إننا أكوان ومجرات لكثرة ما نحمل من قيم متناقضة، غدا الكون بأشيائه المتناقضة الصغيرة منها والكبيرة، على مستوى واحد من لعبة التفكير عندي، وشعرت بأنني خلقت لأفكر، كانت ظاهرة التفكير عندي مضغة بسيطة ساعدها عمي "التاري" على النمو.

نعم نحن البشر حالة ولادة في كل تفاصيل حياتنا، فكل شيء فينا

يبدأ مضغة، ينمو، وينمو ليتضخم، ويصبح فيما بعد جبروتاً، غولاً. وليس الغول كائناً استثنائياً أبداً، إنه وليد صغر دائماً. فما أقبح أن نتضاءل تجاه الأشياء الصغيرة حين تكبر، شعورنا بقيمة الأشياء على حقيقتها المطلقة يجعل منا مخلوقات قابلة للتطور. فكل شيء يبدأ صغيراً، ثم يكبر، إلى أن يصل إلى مرحلة لا نستطيع معها صده.

بهذا المنطق البسيط بدأت الكتابة في أحشائي، تتغذى على جهد عقلي، وضنك قراءتي، واجتهاد من ناظري. جميل .. أن تساعد على تهذيب نفسك، لكن القبيح دوماً ألا تؤمن بأنك لا تعدو منديلاً في يد المستقبل يتمخط بك متى شاء.

وهكذا بدأتُ أكتب إلى أن غدا قلمي سكيناً سامّة.

السنة الثالثة بعد حمدة

بعد سنة من تأمل المطر، عادت بي الحياة ورقاً.. لم يأتِ الوحي، لم تتقاذفني أسطورة أو معجزة. كانت شرارة البدء مرحلة متقدمة جداً من الضعف، لا أنكر أنني بدأت الكتابة من موقع الضعيف لكني حاولت كثيراً أن أجبّر عجزي بقلمي، ولم أستطع. لم أعِ يومذاك بأن من يتكئ على قلم سيأتي اليوم الذي يدخله في مؤخرته من فرط ما يدرك بأنه غير مؤهل لمواجهة الحياة، فالأقلام شحطات ترف فقط، لا يُقبل عليها إلا المترفون، أولئك الذي نبعوا من قضم الحياة، وامتلأت بطونهم أذى.

كنت أمام التلفاز كالخلد أشاهد مباراة، أغوص بعيداً عن الأصحاء، بعيداً عن الحياة في تربة العاهة، كان ثمة مباراة بين فريقين، رغم عاهتي، كنت متعصباً حد الدهشة. ما يؤلمني كثيراً، رؤية المعاقين في أرضية الملعب يشاهدون المباراة. آآه.. ماذا يمكن أن تنسج أخيلتكم من أحاسيس ومشاعر تجاه معاق يرى الأصحاء يقتاتون ما يحبه، وهو ينظر ووجع العاهة يمزّقه والله.. إنه لشعور الخسة الباعث على الانتحار. كنت أتابع بصحبة كأس من الشاي وعكّاز، وبينما أنا أتابع لم أتحمّل حماقة أحد اللاعبين لتفريطه في هدف محقق، عندها قفزت من القهر، وشتائم بذيئة معلقة بلساني، غادرني عقلي آنذاك، ولم أتذكر بأني مخلوق لا يقفز، خلقت لأكون كالديدان صنو الأرض دوماً، وما إن وقعت على الأرض حتى انسكب عليّ كأس الشاي والتحفني التلوي احتراقاً. إننا نقهر، لكن الإنسان دوماً ثورة مقابل قهره، إلا المعاقين يركضون في قهرهم وثورتهم في أنفسهم إلى أن يتكسّروا، راحت المباراة وأنا أتلوّى، ولا أحد يتذكرني إلا كأساً مقلوبة وجزء إنسان جامداً، والله فوق سبع

سماوات. إن الله يرانا، ولا يحب أن يرى إنساناً ضعيفاً، أؤمن بذلك، فأنا أحب الله حباً لا يماريه في قلبي شيء، وموقن بأن ساقي ذهبت بإرادة منه، وأنه يصنع مني شيئاً للمستقبل، لذلك المجهول المخيف والمرعب. فإن حقّ أن نخافَ يوماً، فلا بد أن نخاف من المجهول، لأنه يأتي بغتة، بوجه مرعب دوماً.

عندما وعيت عند نهاية المباراة، سحبت قلماً وكتبت أول مقال لي، كان عنوانه "عندما يعرج الأصحاء" ، نقدت فيه فريقي على سوء لعبه، وقسوت على عرجتي، ميزة اصطفاني الله بها عن أقراني. فنحن عندما نكتب لا نظلم إلا أنفسنا. أرسلت المقالة في اليوم التالي عبر البريد إلى الجريدة، لم تكن وسائل الاتصال مستخدمة في القرية بعد، مرت الأيام، وأنا أنتظر إلى أن جاء يوم قدم إليّ أبي بالجريدة، وفيها مقالي يتصدر الصفحة. إنه من المحزن جداً، أن يتصدر المعاق الأصحاء في مواطن تكاثرهم، فالمعاق له حياته الخاصة، له طريقته في الحياة، في الكره، في الحب، في الأكل والشرب، في التأمل، له أسطورة الصحة التي يعيش على تآكلها. ابتعت في ذلك اليوم ست عشرة نسخة من العدد نفسه ووزعتها على زملائي فرحاً. فيحدث أن نضحك من تصرفاتنا، في تلك الأثناء التي نرى فيها أنفسنا ضعافاً يفارقنا الأقوياء. كنت فرحاً جداً، كالأطفال صباح العيد، والعرائس في ليال زفافهن، لأن الإنسان مسكون بحب الشهرة. صحيح بأنني لم أشتهر في قريتي، لكنني أعذر فيهم قراءاتهم، أعذر فيهم خبثهم، فالإنسان الذي ينجح يصبح أكثر لؤماً في نظر أعدائه. فعلى طول السنين أخذت أتعارك مع أفكاري تجاه أمّة، تجاه قرية حبلى بمن لا يقرأ، لكنهم لا يوفرون جهد الزرع إزاء جهد القراءة في القرى - فقط في القرى - لا يتساوى ثمن الزرع وثمن القراءة، لشيء بسيط جداً، بأن الكتب إقامة جبرية في العقل. وما أسخف أن تتآمر على عقلك، وتحاول قتله باحتراف!

بدأت أقلّم أظفار القراءة بدقة متناهية، متناسياً دراستي، في الواقع

كنت أكره الدراسة ، لأنها تغرقنا في بحيرة صغيرة وضحلة من الاعتراف بالكتب المدرسية، نعم نحن مدفوعون في دراستنا إلى القراءة غصباً، لذا نجد بأن الدراسة حاصل حسابي أبله. ذات صباح وبعد مرور شهر على نشر تلك المقالة أرسلتُ مقالة أخرى إلى الجريدة نفسها، وبالطريقة نفسها، وتركتها تعجن بعناية حتى صباح النشر، لمت فيها كل من يلعب من أجل إرضاء الآخرين فثمة بعض اللاعبين يوغلون في اللعب بغية تجبير رأي لأحدهم، فليس أقبح من أن تمارس شيئاً لا تقبل به، إلا ممارسته تحت ضغط قرارات شخص آخر. انتظرت أسبوعاً، وكلي ثقة بأن تُنشر مقالتي تلك، لأني كتبتها بالطابع نفسه وبنفس الناقد بالذات، وأخيراً ظهرت المقالة كاملة لم يشذبها أحدهم، وتحت المقالة أيقونة صغيرة كتب فيها بخط أصغر:

"الأخ قصاص.. نرجو منك مراسلة محرر الصفحة، ولك جزيل الشكر".

هي الأشياء المفاجئة بسيطة جداً، كأي شيء يحصل لك، لها وقع اللحظة الآنية التي تجعلك تنقبض منطوياً على نفسك كسعدان. فحين تفصل من عملك، أو تحصل على وظيفة مرموقة براتب جيد، تعينك على العيش في زمن لا يأبه إلا للمال، هو مثل أن تقع قدمك على قطعة زجاجة مكسورة في أحد الأزقة المعتمة، وينفر منك دمك خائفاً أو حانقاً أو حتى مستاء، أو أن تجد كهلاً عند باب أحد المساجد يتسول، ويغدو في آخر حياته ظاهرة شفقة، أو أن تذهب لشراء صحيفة وتفاجأ بأنها نفدت من السوق لأن ذلك اليوم موعد إعلان تعيين المعلمين، فالحياة.. في كل ما تدور حوله، أشبه بمتجر فيه أنواع شتى من البضائع، وكل بضاعة يتكدس منها الملايين في مستودع ذلك المتجر، لأنه لا يمكن أن نُعدَم مرارة النفاد وتقديم البضاعة للزبون حال طلبها. بادرت سريعاً إلى الاتصال بالمحرر، فقال لي بعد حديث قصير ومختصر "نرجو منك إرسال سيرتك الذاتية مع صورة شخصية لك"، وبعد يومين، كتبت

له سيرتي الذاتية، بقلم أزرق جاف، بخطي المتقن ذاك، وأرسلتها إليه مع مقالتين.

"الاسم: قصاص..

الجنسية: سعودي.

الحالة الاجتماعية: أعزب.

المهنة: طالب في السنة الثانوية الأولى.

لا يوجد لدي أي مؤهلات أخرى، أو دورات،

ولم أنشر أي مقالة إلا ما نشر في صحيفتكم فقط،

وتجدون برفقة هذه السيرة مقالتين.

ولكم جزيل شكري."

في عصر أحد الأيام، جاءني حظي يركض، يدفعه أخي محمد أمامه، لم أتوقع يوماً بأن الحظ يتجسّد، لكني توطنت مع هذه الفكرة حين جاء محمد يحمل أول عمود صحفي لي بين يديه.. كانت أول مقالة لي في زاوية مؤطرة، وكنت كمن يعود إلى الحياة بعد ميتة مفاجئة، إننا لا نستطيع أن نتدارك حظوظنا السيئة، إلا حينما نهملها ونوهم أنفسنا بأننا نسيناها مطلقاً، لأن الحياة قيد كبير جداً لا نخرج من عزيمته أبداً. قرأت مقالتي التي أرسلتها إليهم، وكأنني قارئ فنجان يتنبأ بالأحداث مسبقاً. فبالرغم، من أن الكتابة شغلتني عن الحياة تلك الأيام إلا أن حمدة كانت تتدفق في داخلي حباً خالصاً. فالمحبون كالمشاريع الزراعية يحتاجون إلى من يرش قلوبهم وذكرياتهم بماء الذكرى لينمو الحب ويترعرع. كانت حمدة آنذاك بالنسبة إلي عملاً خرافياً، عملاً يحتاج إلى سنين عدة من التذكر في إبداع المشاهد المؤرشفة، لأن الإنسان لا يقدم على خطوة إلا من فرط ما حاك خاطره من المواقف المتشابهة

والمتناكحة. في تلك الليلة، وعلى أهبة الفرح والانتظار كتبت لحمدة رسالة قصيرة من فرط ما اختزلت عاماً من العزلة عن القرية، كان يلوب في ذاكرة الكلمات والأحرف.

كتبت:

"حبيبتي حمدة.

لا أستطيع أن أبين لك مدى ما أنا فيه من الفرح،

لكني غدوت كاتباً رسمياً في جريدة، أكتب في الرياضة،

وستصلك بعض من مقالاتي قريباً، لكني أحببت أن أدفع إليك هذا الخبر، لتتقاسم رغيف السعادة.

قصاص"

ويدور الزمن وتعود رسالتها محمّلة "بِرْكا" كتبتْ:

"عزيزي قصاص:

عرفت هالخبر قبل فترة، لكن اللي محيرني وشلون تكتب عن الكورة وانت ما تقدر تلبها!!، الله يوفقك ويسعدك ويرزقك.

حمدة"

بقيت أنتظر الحزن على عبارتها هذه ولكني لم أستطع، لأن ثمة بعض الكلمات من فرط تداولها تصبح عادية جداً، حتى لو كانت تجرح. لكن هذه الرسالة أكلت من جوفي كثيراً، وبصقته على رصيف الحياة حزناً بالياً، لمدة خمس ليال لم أقدر على المضي إلى المدرسة، لأنني شعرت بأن بكارة كبرياني فُضّت، أنا الكاتب المعاق الذي يحمل من الغوضى، قدر أحرفه. كنت أكتب لأكسّر عكازي وطرفي الصناعي،

وأجبّر جدار العامة والنقص، كنت مزيجاً من التناقضات. فات عصر ممطر، والقرى ملأى بالمطر، لمحت "شمعة" تسير في الطريق ذاهبة إلى بيت خالتها، فركضت خلفها كطفل لا يستطيع أن يدوزن نفسه. باالله.. نحن المعاقين أطفال الحياة التي لفظتهم، التي رفضتهم، وبينما أنا أركض لها أحتمل عاهتي صرختُ بها، فالتفتت إليّ والغرابة تحلّق فوق رأسها، كانت ترتدي "كرتة" مشجرة، وقناع رأس يضم شعرها الأشعث، وكنت كعادتي أستند إلى عاهتي وأسير، وفي تلك الأثناء، وبينما أنا أمشي بسرعة اختلّ توازني فوقعت أمامها، أنا الذي كثيراً ما بقع، تحاملت على سذاجة الحظ، ودنوت منها وأنا أنفض عن جسدي التربة والمهانة، برقت في ملامحها ضحكة بريئة، وبرزت أسنانها البيضاء، وبدون أن ألوك حكياً معها قلت:

- شمعة قولي لحمدة إني انتظرها ورا بيتكم الليلة.

نظرت إليّ بابتسامة طفيفة، لأن الفتيات يفرحن بحب أخواتهن كثيراً. تركتها، وحين جاء المساء، ذهبت انزويت خلف منزلهن مولعاً بلقائها، لكنها لم تأتِ. بقيت أنتظرها أكثر من ثلاث ساعات، بخّرت آرائي حول عدم مجيئها، برهة ألتمس لها العذر، وأخرى أكظم غيظي، وأعفو عنها، وألعنها في داخلي. أكنت مغفلاً حتى لا أنتبه لمقدار البعد بينها وبيني؟! لم أكن محتاجاً إلى تفسير آخر، يوصلني إلى فكرة أن "حمدة" لم تعد تتلاعب بقلبي كدمية مجوّفة.

***

المرء حالة نفسية أكثر منه حالة جسدية، فهو يتزاح دائماً إلى نفسه أكثر، لذا يكون طابع النفس هو المهيمن على تصرفاته، وإذا حاولنا أن ننقل الفكرة من كونه نفسياً إلى فكري، لا ينبغي أن نتناسى دور البعد

النفسي في تفكير الكائن الآدمي، لاسيما إذا تعلق الأمر بالتصرفات الحاسمة في حياته، فهو وإن كان لا يستطيع إجراء أي تصرف حاسم وجذري إلا تفكيراً، فإننا يجب ألا نتجاهل أن التفكير في ثلثيه الأخيرين بعد نفسي بحت، إذن المسألة هنا تتضح حين نبغي الوصول إلى نقطة هل التفكير جهد نفسي أم عقلي؟! لكننا نتوصل إلى أن الإنسان في كل ممارساته العقلية يبالغ في تقديس النفس، لأن عوامل التفكير في الإنسان لا يمكن أن تحدد العقل، لأن القرار، يبدأ منطقاً، وتفكيراً، ثم يُمرر على النفس ليأخذ إمضاءها، ثم يخرج في الأخير دون أي كلفة.

***

بدوت لوهلة أمام ألمي طفلاً صغيراً جداً لا يقوى على التألم والصراخ، انتظرت بفارغ القهر مجيء فتاة أحببتها طفلة، ورغم ألمي وعاهتي لم أستنطق الجدران ولا الأوراق ولا الأقلام عن سبب غيابها، لكنها الأنثى دائماً ترسّخ فينا حبها باصطناع الغياب. انسللت من ألمي، كمن يسحب إبرة المغذي من جسده، وذهبت إلى ركن قصي من بيتنا كان مهجوراً إلا من ذاكرة حب، غدا هذا المكان كنيسة نعترف فيها بالحب ونطلب منه الغفران، أذهب إليها في أيام الآحاد من الغيبة أو الشوق أو الفقد. انتظرت أن يأتيني وحي يبلغني غيابها، لكن الوحي لم يأتِ، ككل المتنبئين كنت، أكذب على نفسي في انتظار الوحي، وفي مداراة أكاذيبي.

أذكر مرة بعدما تعرفت إلى حماد، كان الوقت ظهراً، والسماء في القرية مضمّخة بالسحب كرغوة قهوة، كنا في سيارتي، وحين دهمنا السكوت طويلاً، سألني:

- لماذا تبدو حزيناً يا قصاص؟

دون أن ألتفت إليه، والمكان يعبق برائحة الدخان، ولأن الدخان كان يغريني بالتخفف من عناء الحزن الجاثم في صدري قلت:

- الحزن هو الإنسان، لا تتصور أن ثمة إنساناً بلا حزن، لأن الحياة حالة حزن مركّب يا صديقي!

- أنت من تؤثث الحزن في داخلك فقط.

- قطعاً، لم أتنازل عن فرحي، لكني أيقنت بأن الحياة في جزئها الأكبر امرأة، والمرأة في عالمنا نحن العرب ظاهرة حزن.

- إن المرأة التي تصنع منك تمثالاً شاحباً امرأة سلبية.

- السلبية يا حماد مسألة نسبية، ونحن نحتاج إلى الإيجابية لندرك نقيضها أولاً.

***

بعد أسبوع ذهبت إلى المدرسة، لم تتغير مطلقاً، ولن تتغير لأن المدارس في كل قطر في هذا الكون متناسخة، أخذت أستمع إلى المعلمين وهم يشرحون دون رغبة في الاستفادة، لأني أيقنت بأن ما تبذره المدرسة في رأسي من علوم لا فائدة منها، ومن أراد أن يتعلم فلا بد أن يغور في الكتب.

جاء أحد معلميَّ بعد شهر من استكتابي وسألني:

- قصاص هل أنت تكتب في الجريدة؟!

سكت، وأنا أقيس مقدار جوابي، وقلت:

- لا.

فانسل من أمامي وهو يقول:

- غريب، ثمة شخص يكتب في الجريدة، ويوقع اسمه تحت بعض مقالاته، اسمه يشبه اسمك إلى حد كبير، لكن يبدو أنني واهم فهو يكتب في الجانب الرياضي، وتناسيت أنك مبتور الساق.

في الواقع لم أنكر بأنني كاتب، إلا لأنني أخشى مغبة أن يعرف معلم بأن طالبه الصغير جداً يكتب في جريدة، وبالتالي يزداد مقدار الجهالة لدى المعلم، وينقلب غولاً ويوقع بي الرسوب، والأمر الآخر مصادفة المشيئة أن معاقاً يكتب في جانب من الحلم الذي يحلم به. وأنا عائد من المدرسة ظهر ذلك اليوم، طاف في ذهني سؤال لم أجرؤ على قوله لأحد قط، هل أنا أحاسب على خطيئة ساق؟!

الصيف الأول بعد حمدة

كان الفكر صحواً. وكنت أستند إلى راحتي بعد عناء سنة دراسية كاملة، سنة دراسية تندفع فيها إلى العلم قسراً، وتثرثر مع غبائك والمعلم بشرح، وهو يدلل معارفه البائسة حكياً نصفه لا يُفهَم. جاءني أبي وقال:

– ثمة عشاء عند عمك "مصلح" الليلة، لا تتأخر في المجيء.

كانت مثل هذه الولائم بالنسبة إلي لقاء محموماً بالكذب، وكنت لفرط ما فيها من حكايات أشتهيها، رغم ما يلتحفني من نفور تجاه ما نمتلئ فيه من غيبة قروية جمّة. لكن هي الحكايات درجة رفيعة جداً من الكذب. لأنني أتذكر تلك الوليمة التي حضرتها مع أبي يوماً، دخلنا إلى المجلس الذي كان يشترك مع كل المجالس في العالم بزواياه الأربع، كانت المساند التي تسند ظهور الرجال عبارة عن لفظ تركة لعش يمني قديم، والجدران التي غدت مسكناً للوزغ، والنوع الرديء من الحشرات، وكان يتوسط المجلس صفائح مهترئة توضع فيها القهوة، وبرادات صدئة ملأى بالشاي، وفوق هذا كله دجل القرى. حين دخلت المجلس كان الرجال ظاهرة صوتية مزعجة، سلمنا على كل من كان حاضراً إلا اللباقة، وبينما نحن جلوس سمعت أحدهم، حكى قصة ليس فيها من الصدق إلا نزر الأماكن. "ذهب رجل إلى مدينة جدة، على بعير له برفقة زوجته، كانت الشمس تخبط رأسيهما بتؤدة أول النهار، وحينما نعبت الشمس من عناد هذا القروي في المشي والمسير عادت لتدق رأسه في الظهيرة بعنف، لكن هذا الرجل لم ينفض من عناده، هم القرويون كذلك رعاة العناد، وحين دهمهما المغرب وهما على حالهما في المسير، أناخا البعير وجلسا يتقيان ضنك الحياة بسنامه، وفي الليل

أبصرا ضوءاً ينبعث من بعيد، وصوتاً يألفانه، دبّ هذا الصوت الرعب في نفسيهما، وحينما جاء الصباح، وبعدما زاد الفضول دقات قلبيهما، أرادا أن يعرفا مصدر ذلك الصوت الباعث على الخوف، وسارا إلى أن رأيا مجموعة من الأبقار متحلقة بعضها حول بعض وكأنها تعقد صلحاً، وسارا كذلك حتى وصلا إلى الأبقار ونظرا إلى شيء لم يرياه مسبقاً، رأيا الأبقار تأكل من جهة بقرة أخرى ميتة".

عندما وصل إلى هذه النقطة من الحكي، شعرت بالبكاء، لأن المسلّمات في حياتنا أمور غير قابلة للمساومة، وأيقنت بأن الحكي يضفي على المرء نعت الكذّاب، فهل البقر ستستحيل يوماً آكلة للحوم وهي التي تأكل الأعشاب دوماً؟! فعندما نقف أمام بديهيات الحياة شاهرين دمعة، فنحن أمام كذب لا محالة.

صحيح أن عمي التاري قال ما شفى غليل البكاء في داخلي تجاه هذا الرجل، إلا أنني لم أغفر له هذا الانتهاك القسري لعقلي، قال له:

- من يساوم على مكوثه بالكذب، لا يجدر به أن يعقد بين الرجال.

لم تكن هذه العبارة كافية، كنت محتاجاً لأن أدلي قاموس الشتم في داخلي وأبتزه باحتراف، لأن من لا يحترم سامعيه، لا يحترم نفسه أصلاً. فهل تكذب رغم إيمانك المطلق بأن من حولك لا يصدقونك، وهل يكفي أن تحتقر نفسك نقصاً وترميماً لتآكلك داخلياً؟! وعندما يشعر الإنسان بأنه في حاجة ماسة إلى الكذب، فهو بين حدين هلاميين، خوف ونقص. إن الإنسان لا يستطيع أن يحيا إذا اتكأ على جانب هش من كلمات منذلقة صغيرة جداً، محاولاً صفّها جنباً إلى جنب لصنع كذبة هو لم يصدقها أساساً، ويوهم الآخرين بتصديقها، فالإنسان الذي يعرض نفسه دوماً من خلال هذه الكلمات، هو متسخ لا محالة. فهل كان ذلك الرجل يختبر فينا ردود أفعالنا؟! أثمة من يحتمل رد فعل قرن من الناس؟! فالإنسان هو الزمن، والحياة بكل تجلياتها. لذا عندما حضرت

تلك المناسبة لم تتغيّر الأجواء كثيراً، بل كانت كتلك التي تقززت منها حد التشفي سراً، دخلت إلى المجلس والنقص يؤثثني، كان المجلس مكتظاً بالأجساد، حينها تركزت العيون على طرفي الصناعي وكأنهم يرونه لأول مرة. إن الناس مجبولون على الشماتة من فرط رداءتهم. كانوا مجموعة من الرجال، يحتضنون في وسطهم أواني مهترئة من قهوة وشاي، اقتعدت طرف المجلس أنتظر مجيء شيء لا أعرفه، كان ثمة شعور يعتريني بأن هذه الليلة ليست عادية لفرط ما كان يملؤني التشاؤم، فالإنسان يشعر بأنه نبوءة للمستقبل من خلال مشاعره.

تحدثوا بدءاً عن المطر، وكيف صار كائناً مؤجلاً؟! فأهل القرى لا يعرفون من مظاهر الطبيعة سوى المطر، كانوا يصبون جام غضبهم على السّحب، وكيف أنها تنأى بنفسها عن القرية. رغم تأخر المطر في ذلك العام، إلا أن القرية كانت تحتاج إلى من يغرقهم في طوفان من النبل قبل المطر ليغدوا أناساً. فلماذا يحب القرويون المطر؟ هل هم مثله؟! أم أنهم جزء المطر المظلم الذي يهدّم ويخرّب ويميت؟! وهل الإنسان الماثل مطراً قادر على الشح من فرط ما أعطى؟! فبعدما تحدثوا عن المطر كثيراً، بدأوا يولون الشق المعتم من حياتهم نوراً، أخذوا يتحدثون عن فساد طينتهم، غالوا كثيراً في نزاهتهم، كانوا يقولون: "كنا نسرح بالغنم كل فجر، وكنا نجتمع رجالاً ونساء ونترك الماشية ترعى، ونأخذ في الحديث حتى ينتصف النهار، فنفطر وبعدها يتوسّد كل منا فخذ من بجانبه سواء أكان رجلاً أم امرأة وينام، لنستيقظ جميعاً وقد شارف النهار على الانقضاء، فنقود قطعاننا ونعود أدراجنا ممتلئين نشوة، وبراءة وحشمة وشهامة، وتزداد الأيام واللقاءات ونحن لا نقتات إلا البهجة". كان الهاجس في داخلي يفور تجاه هذه الحكايات، حتى أن الكهل "مسلّم" من فرط ما حكى راحت حكاياته تتداخل بعضها ببعض محدثة تناقضاً عجيباً وكذباً، قال مرة:

- فات يوم كنت بين غنمي فهجم علي ذئب وأراد الفتك بي وبالقطيع، فانقضضت عليه بفأسي الذي كان معي وذبحته.

وبعد مدة من الزمن عاد وقال:

- ألم أقل لكم بأن الذئب الذي هجم على غنمي مرة وهرب حينما صرخت به، عاد مرة أخرى كي يتزود من ماشيتي، ولا أدري لماذا يصر هذا الذئب على الفتك بغنمي أنا بالذات؟!

غلف حكايته الأخيرة بتساؤل، ولم أغفر له كذبه هذا، كان كذابا مع سبق الإصرار والتعنّت.

في تلك الليلة استكمل حكايته فقال:

- أتذكر أنني انتقلت من قريتنا إلى قرية "صابغة" وكان برفقتي "عالية" وكلكم تعرفونها بنت ابن عبيد، وأخذنا في المسير يومين كاملين نترادف على حمار حتى وصلنا، ولم يحدث بيننا ما يسيء، لكن الزمن تغيّر ولم يعد هناك من يأمن على نفسه وأهله خاصة في هذه الأيام.

كانوا يلحون دائماً على عبارة "قديماً كانت النفوس طيبة" وكنت أمقت هذا التنزيه، لأني لحقت بأواخر عصر التنزيه هذا، حينما كان أهل القرى يتكاشفون فيما بينهم، كان الواحد منهم ينتظر أن يسلو الرجل عن إنائه ليجالسهن وهو مملوء شهوة، كانوا يعطون هذه الغريزة بُعداً منطقياً جداً، لكنهم يلوون عنق الغريزة بمقولة "النفوس طيبة". فلم أستطع التصالح مع هذه المقولة، لأن الإنسان كائن غريزي بالدرجة الأولى، لذا تضحي الغريزة لديه مارداً يدمّر كل شيء إذا لم تُلبَّ. ولأن عمي النتاري هو أقرب الناس صدقاً معي ومع نفسه واجهته مرة وقلت له:

- يا عم، كيف يمكن أن تكون النفوس طيبة قديماً، ونحن وأنتم بشر نعيش مثلما تعيشون وتسمون الزمن بالتغيّر؟!

وكمن قُرِص نظر إليّ بشفقة أبوية حُرِم منها وقال:

- يا ولدي، إن الرجل وإن أوغل في شيء لا يحب أن يُظهره أمام من هم أصغر منه.

- لكن لماذا يصر مسنو القرية على أنهم نزيهون؟!

- لأن الخطيئة لا تبرّر، وهي تشبه الديدان، إن لم تجد ما تأكله عادت إلى الإنسان فأكله.

لم أفهم ما أراد إيصاله عمي بادئ الأمر، وحينما أدرك أنني لم أفهم استكمل فكرته:

- إن اقتراف الذنب يبقي في النفس أثراً أكثر من تبريره ...

ونكز بعصاه الأرض وأكمل وهو ينظر في التراب:

- عندما يشعر المرء بالإهانة يقذف الاتهامات بدون دراية.

- لكن يا عم نحن نعقل وندرك قيمة ما يقولون، وما نحن فيه أصلاً.

- يا بني، العقل في الإنسان مسافة شبر من الوهم، والوهم حقيقة تتماهى!

لم أكن أحتمل كل ما كان يملأ المجلس من أحاديث تتحرش بي، مكثت أطأ على نفسي حتى أكلت ما تيسّر من عشاء وخرجت سريعاً، كنت أسرع في المسير، وكأنني أخاف وقوع كارثة تمحقني، شعرت بأن أعضائي لا تناسبني، وأن طرفي الصناعي على خسته يترفع عن مشاركتي في جرم سماع الأحاديث. فالكلام.. هو ذنب اللحظة الذي نقترفه ونوهم غيرنا بتزاهته.

عندما خرجت، كان الليل أشبه بامرأة عجوز تكثر من الثرثرة، كان الليل سائلاً حد البذخ. ففي أحيان كثيرة تتجسد الظواهر الطبيعية أناساً، لأن الكون بكليته في تكامل عظيم، فالإنسان يغدو حجراً في لحظة، والسماء عذراء، والأرض حبلى، والمطر مراهقاً، والمسنون كوارث طبيعية وفيضانات. سرت ما تيسّر لي من جهد، وبينما أنا كذلك صدفت غرم الله، كان يقف على مرمى نظرة مني، وفي يده سلسلة مفاتيح،

أشار إليّ بطرف عينه وسرت إلى السيارة دون أدنى معارضة، لأننا لا نفكر حين نصير على مقربة من وأد قناعاتنا.

ذهبت معه ذلك اليوم إلى المقهى، كان مقهى "عمران" ملاذاً لنا بداية الصيف، وقبل أن يأتي أهل المدن، كان الصيف بالنسبة إلي موسم حصاد الأنفس، لأن القرية في الصيف تصبح كوناً آخر، يأتي إليها أهل المدن ليقضوا فيها الصيف بغية صلة الأرحام، وهم يقطّعون الأحلام. كنت أستغرب دائماً كيف لهؤلاء المدنيين أن يتركوا المدن بأضوائها وضوضائها وغرائبيتها، ويأتوا إلى القرية، هذا الوطن الذي يربي فينا العدمية الصرفة؟! وصلنا إلى المقهى، كان عدد الناس فيه يوازي عدد رؤوس شيش الجراك، وكان العامل الإفريقي يغدو ويروح بين رؤوس الناس ورؤوس الجراك كبندول ساعة، ضآلة جسمه تتوارى خلف الأدخنة المتصاعدة من الأفواه الملآى بالشاي الأسود، حتى تماهى معها وأصبح جزءاً منها، فالإنسان الممتد طويلاً في عمله يغدو جزءاً منه لاسيما إذا عمل بإخلاص.

دلفنا إلى المقهى، وعمران في ركن قصي منه يشرب شاياً فقط، عندما رأيته اندفعت مع سؤال كان قبالتي، لمافا كل من يقدّم الأشياء السيئة لا يمارسها علناً؟! عندما رآنا "عمران" حيّانا بتحية تقدير وإجلال، نظراً لما كانت تربطه من علاقة ود مع عمي مصلح وصاح في عامله:

- ياقوت، أركض لعمك غرم الله وشوف وش يطلب هو وضيفه؟!

ما كدنا نستقر على إحدى "القعايد" المنطرحة في المقهى حتى وثب أمامنا ذلك العامل الأفريقي، وابتسامة غبيّة لم يحسن إخراجها ملقاة على وجهه بعشوائية أفريقي أميّ، طلب لنا غرم الله براداً من الشاي، وانحاز هو إلى "جراكه" وبقيت أنا وفياً لتبغي، وأصوات الناس تتعالى مع وقع أصوات قطع "الضومنة" وتصادم أحجار "الكيرم"... وبينما نحن نتحد مع ثقافة المقهى، وإذا بصوت لا تظهر معظم أحرفه يصيح ويدخل من باب المقهى، فقد كان "عطية بن مجهول".

الصيف الأول بعد حمدة

كانت تلك أول مرة أرى فيها "عطية بن مجهول".

حينما دخل إلى المقهى انطلقت رغبات الناس في أن يقترب منهم، كل يطلبه وهو يرفض، فطلب إليه رجل أن يأتيه، داخلني شعور وقتها بأن الرحمة بدأت تسري في قلوب الناس، اقترب عطية من ذلك الرجل، وقرّب رأسه منه، وبعد همسٍ لم يطل، ابتعد عطية عن الرجل قليلاً، والتردّد واضح على تصرفاته، وإمعاناً في التردد هزّ رأسه مراراً، لكن ذلك الرجل أخرج من جيبه ورقة من النقود وبدأ بإغراء عطية، كنت أتابع الموقف مذهولاً، وغرم الله يقبّل "لي" شبشه غير آبه لما يحصل، أردت أن أستفسره عما يحدث، لكنه لم يرد على نظراتي الموبوءة تساؤلاً. أخذ الرجل في إغراء عطية، وهو يقاوم بكل ما أوتي من إدراك، لكن النفس تذوب دائماً عند المال حتى تصبح عدماً. وبعد تلك الفترة من التردد، حاول عطية أن ينتزع ما في يد الرجل من نقود، لكن الرجل أخفاها في جيبه، وصاح به:

- خلاص يا عطية بطلت ما راح أعطيك شيء!

وفوق مرارة الحرمان، وفي درجة لا تصدق في التلاشي، وفي عالم أقرب للحلم، وبحركة مضحكة وسريعة، قام عطية وانتزع سرواله، وأخذ يضرب على إسته ويصرخ، والناس غارقون في الضحك، حتى عمران لم يتبرع ولو بجملة واحدة يزجر بها هذا المخبول، تقيه مغبة الاسترسال في هذا المشهد.

بين الذهول والضحك كنت آنذاك، لم أستطع أن أخفي بسمة شردت مني إلا بتساؤل مختصر، هل هذا الشخص يدرك ما يقوم به؟!

انتزع عطية تلك الورقة النقدية من يد ذلك الرجل بعد رجاء ومماطلة، ودون أن يكلف نفسه عناء إعادة سرواله لستر عورته، وبعد هذه المماطلة غير الطويلة أعطاه الرجل الورقة النقدية ، ورحل عطية.

في جو من الهدوء العقلي بعد أن رحل عطية سألت غرم الله:

- من هو هذا المجنون؟!

- رجل يدعى "عطية بن مجهول".

- ومن أي القرى هو؟

- من قريتنا..

- لكني لم أره منذ أن وصلنا إلى القرية.

- هو لا يبقى في القرية كثيراً، يذهب كل صباح إلى القرى المجاورة ويعمل هناك، يقال بأن أباه وإخوته هم من يطلبون إليه ألا يخرج في قريتنا مطلقاً، لأنهم يخجلون منه.

- وهل تعرفه جيداً؟

- عطية بن مجهول حكاية ملتبسة لا يعرفه أحد من أهل القرية، لأنه لا يحدّث أحداً ولا يبقى في القرية مطلقاً.

- وهل وُلِد مجنوناً هكذا؟

- والله لا أعلم، منهم من يقول إنه ولد هكذا، وبعضهم يقول إنه جُنّ بسبب ضرب أبيه إياه.

ثم مصّ نفساً من شيشته واستطرد:

- أنا أعرف أخاه "عابد" سألته مرة عن عطية وأجابني بحذر وخجل إجابة لم أجرؤ بعدها على سؤاله قال لي "عطية جُنّ لأنه كان ينظر إلى الأعلى كثيراً"!

بقي عطية ملازماً لي زمناً طويلاً، وبقيت حركته تلك تبذر التساؤل في نفسي، وأنحاز إلى التأويل، والسؤال الكبير الذي يسكنني، ما هو الجنون؟! وفي مرحلة متقدمة من الهذيان أيقنت بأن الجنون لحظة ضعف يستمرئها المرء ويسترسل بها، لأني لا أفترض في المجنون أن يظل

مجنوناً إلى الأبد، لكنه يستلذ هذا الضعف ويوغل فيه إلى أن يلازمه دائماً، لأن الجنون اضطراب نفسي داخل كينونة الإنسان، هذا الاضطراب يولّد ردود فعل مختلفة، يترجمها الفرد بتصرفات غير مقبولة في كثير من الأحيان، فكل إنسان منا يمر في حياته باضطرابات نفسية ووجدانية، لكنه لا يبقى على تبعاتها مدى العمر، لذا يغدو الإنسان منا في حياته مجنوناً في لحظة اضطراب ما، وحين تتوارى هذه اللحظة يعود كما كان إنساناً متماسكاً. فهل كان عطية يستمرئ فعلاً هذه الاضطرابات بردود فعلها العديدة ويستدرّ الرحمة من قلوب الناس؟! وهل هواه هذا أسهل طريقة لقتل الحرمان والخذلان في داخله؟! إننا نجنّ لأن الواقع مجحف بكل تفاصيله. هكذا جُنّ عطية في نظري، كان مجتمعه مملوءاً ظلماً وبدا له أن الجنون أقصر مهرب من عقوبة العقل لو استزاد منه. لأن ثمة مجتمعات يكون العقل فيها إدانة.

مر زمن طويل وأنا أفكر في "عطية" حتى جاءت تلك الليلة التي وجدته فيها يترنح في أزقة القرية، اقتربت منه وأوقفت سيارتي بجانبه ورائحة "العرق" تنبعث منه بشكل مقزز، لم أحتمل رائحة العرق تلك بعد أن امتزجت برائحته النتنة، فأركبته في حوض سيارتي الهايلوكس، وانطلقت به إلى منزله، وحينما اقتربنا من المنزل، خبط ظهر السيارة بشدّة، فتوقفت فزعاً، فلم يتنظر استفساري عما يحدث، بل وثب من حوض السيارة، وأخذ يجري إلى منزلهم، دون أن يلقي عليّ أي كلمة، فاستدرت بسيارتي عائداً، وتصرفه يجوس في داخلي. فلماذا فعل عطية ذلك؟! هل كان يعي ما يقوم به، وأن اقترابي من منزله أكثر سيدخله في إشكاليات لا حصر لها حين يخرج أحد إخوته على وقع صوت السيارة وربما يراه في هذا الوضع المتدهور من السكر ففضّل بقائي بعيداً كي لا أثير أحداً باقترابي؟! أم أن السكر للمجانين إعادة رسمية لعقولهم؟! عندما تكون الأفكار أفعالاً فمردودها يغور فينا كثيراً ولا يتلاشى. عدت بعد إنزاله، وفي طريق عودتي لمحت أنوار سيارة قادمة من بعيد، أخذت

تتسكع في القرية كعادته، وحين اقتربت منها تبين لي بأنها سيارة "هادي" عريد القرية كما يحلو له أن يُسمّي نفسه، أوقفت سيارتي بجانبه، وخفضتُ زجاج نافذتها، فسألني بغتة:

- قصاص شفت عطية؟!

- إيه شفته سكران فأخذته لبيتهم.

- شافك أحد؟

- لا

فأخرج قارورة كانت بجانبه على مرتبة السيارة بزهو منتصر وقال وهو يضحك:

- والله سكر من هذي!

وأشار إلى القارورة الملأى عرقاً حتى نصفها.

كان عطية يمثّل لي إشكالية منذ أن رأيته ذلك اليوم، لأن الجنون هو الذي يثير فينا العقل. لم يكن يشكّل لأهل القرية تساؤلاً، لأنهم اعتادوا رؤيته هكذا، ولم تدر الحياة وتقلّبه أمامهم، فأهل القرى لا يولون منشأ الأشياء أية اعتبارات بذلك القدر الذي تثيرهم التحولات. رحل عطية ذلك اليوم، وكنت أشبه الأطباء حينما يواجهون مرضاً ليس في ذاكرة قدراتهم، تركت الليلة تنقضي وذهبت إلى غرم الله في اليوم التالي، أخذته معي في السيارة، وحين ركب سألته:

- هل تعتقد أن عطية مجنون فعلاً؟

نظر إليّ نظرة بين الدهشة والسخرية وقال:

- أجزم بأنه مجنون؟

- وكيف يمكن أن يكون الإنسان مجنوناً؟

- بأن يتصرف كالمجانين يا مثقف أنت.

عندما سمعت كلمة "يا مثقف" أيقنت بأنه يودّ أن نفضّ بكارة الحوار، وأدركت بأن الأسئلة عند بعض الناس تصير خيانة. لكنني تجاهلت هذه السخرية وقلت له:

- أبسألك آخر سؤال، ما هي صفات المجانين؟!

ثار غضباً، وقال دون أن يلتفت إليّ:

- يا أخي والله ماني فاضي لأسئلتك الغبية هذي، فكنا واللي برحم والديك من هالوسوسة.

فكرت آنذاك: إن الوطن الذي يستحيل فيه التفكر وسوسة قهرية وطن عاهر، لأن العهر تسمية الأشياء بغير أسمائها، وهو التركة التي لا نضطر لتقليبها إلا حين نشبع. أنزلت غرم الله ذلك اليوم وعدت إلى البيت. وصلت إلى المنزل بعد غروب الشمس، محملاً همّ التساؤل، وهل من يحقّق لنا السؤال شيء حي؟! أم أن الأسئلة هي الموت؟! قبل أن أنام بلحظة، أتذكرها جيداً كجرح لم يبرأ، وأثناء تقلبي على فراش سهادي، كنت أفكر بصوت مسموع، كأنني أجادل الفضاء، رفع أخي محمد رأسه وقال لي:

- تراك غثيتني أبي أنام!

تركته يلعن ما في داخلي سراً، ولم أرد عليه، لأن الغاضب في المجمل نمط تفجيري. إن السؤال الذي يبقيك ساهداً، ويدع التبغ يجري في دمك ولسانك ومخيلتك، سؤال طاهر، لا يستحق عفونة الإجابة. بعد أن سكت اللعن عن محمد، وأثار النوم أجفانه وحركاته عليه، سألته دون أن أنتظر إجابة:

- محمد ما هو الجنون؟!

الصيف الرابع بعد حمدة

أقبل أبناء عمي أبي نضال هذه المرة بكثرة أقبلوا لأنهم يريدون أن يغيروا مفهوم الحياة في تصوراتهم، لأن المعيشة مهما بلغت تُسبغ على الإنسان مفهوماً موحداً. فنحن دوماً أسرى حياة نعيشها، ولا نخرج من معتقل حياتنا، إلا بالموت أو الفاجعة، هذا ما ذكرني به عمي التاري حين قال لي مرة:

- الإنسان مغروس في حياته لا يقطعه إلا الموت أو المصيبة.

وذكر لنا قصة الرجل الذي مات بعد أن مكث في كهفه عشر سنين، فهل نحن مدفوعون لممارسة حياتنا رغماً عنا؟! أم أن الحياة بكل ما فيها من تعاسة تبقى في أعيننا وجهة نظر صائبة. إنني لا آبه للإنسان المتغيّر، لأن التغيير نسيج وحده، إنني أرتبك كثيراً أمام المحنّطين، لأن دوران الحياة دوران لشخوصها، والتغيّر نار لابد أن تقلب فوقها لتنضج حياتنا.

بقدوم أبناء عمي، اكتمل مسلسل البهجة، وكان عرس غرم الله على رحمة، وبكل الأشياء الصغيرة والكبيرة التي كانت تحملها هذه الزيجة، تغيّر غرم الله. إن المرء الذي ينقلب جراء ارتباطه بأنثى كائن مؤجل. كان حفلاً كبيراً، لأن غرم الله كان أول من يتزوج من أبناء عمي مصلح الذكور، والأوائل في العائلة هم دوماً من يحصل على ميثاق البهجة في الأعراس.

بُعَيد الظهر كان حوش بيت عمي مصلح محتشداً بالبشر، لأن أسرتنا كانت حبلى بالأفراد، فنحن أسرة اشتهرت بالإنجاب، لأن عامل الشهوة سيطر علينا منذ بدء تكويننا. إن للبشر شهوة تفوق منطق

الحيوانات، لكن الله قنن هذه الشهوة فأفرزت أفراداً غير كثير، فالأرض محيط بسيط إزاء حجم الشهوة في البشرية لو لُيّت بكل حذافيرها، بكل ما تحمله من عنفوان لأصبحت الأرض مسكناً ضئيلاً جداً تجاه تناسل البشر وتكاثرهم. هذه الحقيقة كانت ومازالت تسيطر علي، لأنني حين أتأمل غرائز البشر أبهر بمدى ما يحمله الإنسان من مخزون هائل من الشهوة في داخله، ذكراً كان أو أنثى.

نظرت من أمام باب بيتنا على تلك الربوة، إلى بيت عمي مصلح الذي وقف تحتنا، كالحجيج كان منظر الناس وهم يملأون بيت عمي، لم أحظ فعلاً بقوة بصر تبيّن لي ملامح الناس في الحوش، لكني تبينت مجموعة من النساء وحولهن أطفال يتلاعبون ببهجة وفرح، وكأنهم يعلمون أن اليوم موعد زواج غرم الله. فما أغبى الأطفال، فهم كائنات فرائحية بالدرجة الأولى. فلو كان الإنسان يعلم ما تخبئه الحياة له في تقادمها لما مارس شيطنة الطفولة مطلقاً. نزلت أجترّ تعبي، وفرحي، وذكرى رحمة. وقفت أمام المنزل فظهر لي غرم الله محتزماً جنبيته وعاصباً رأسه ووجهه يتّزر ابتسامة رقيقة. فهل الزواج فكرة فرائحية بالدرجة الأولى؟! أم أن جبروت اللذة حين يقرب من التلبية يستحيل فرحاً؟! لا أعلم، لكني موقن بأن الغريزة ذات طابع غرائبي في تسطير أفعالنا من خلالها.

نظرت إليه، وبادرته:

- كيفك يا عريس؟

ردّ علي والابتسامة تؤثث محياه:

- بخير يا رب لك الحمد

- مبروك يا عريس ومنك المال ومنها العيال

لم أبق بعد هذه العبارة إلا مسافة نظرة فقط، وعادت بي الذاكرة ثلاثة لقاءات مع حمدة، والسؤال الأهم: هل سأتزوج حمدة، وأنعم بابتسامة العريس الغارق في همّ الليلة الأولى؟! شعور باهر، أن تكون

على موعد موقّت من رغباتك، والمجتمع من حولك قنينة تمتلئ تأييداً. فنحن غارقون في وحل من قيم الترهيب والعادات المحكوم عليها بالإعدام. رحلت وتركت ورائي إجراءات معقّدة لعرس لن أقوم به يوماً، لأن عاهتي تفترض فيّ الشق الرديء دوماً. كان زواج غرم الله امتحاناً آخر لي لأكتشف ما أنا فيه من عجز إزاء ما يقوم به أبناء عمومتي وإخوتي من تيسير سبل إنجاز هذا العرس، فلماذا أنزوي دوماً بجوار الجهلة والمسنين والنفاس في مقاربة قدرية باذخة؟! أنا الذي لم يكن له في أرشيف المساعدة سوى ذاكرة قلم فقط.

***

ياالله.. إلى متى والضعفاء سلعة الأفواه والأقلام؟! ربما تكون صناعة البطولة لي في هذه الرواية، ترميماً للعجز الواقعيّ في حياتي، لأن الروائيين يجدون أنفسهم في مسودة العمر فيقومون بتبييض حياتهم على الورق فقط. أنا من يصنع حياته رواية ليكون بطلاً لفرط ما جرّب في حياته من التهميش.

***

جاء المساء يحمل البهجة معه. لبست أفضل ثيابي، أنا الذي تحنطت على جسده النحيل تفاصيل الثياب فقط. ذهبت إلى العرس محملاً نشوة، محملاً رغبة في رؤية حمدة في أجمل حللها، فلماذا يفضّل الرجال دائماً رؤية النساء في أبهى الحلل؟! هل لأن رؤيتهن تلك تستدرج الرغبة الجامحة لدى الذكر؟! أم أن الرجل حين يرى المرأة متكدسة خلف ملابس رثّة وهيئة بالية يستبطن الكره لها؟! لسبب أجهله وددت أن أرى حمدة، لكن يبدو أن كلام حماد بعد ذلك أعاد إليّ هذا السبب المسلوب مني تجاهلاً، قال:

– قصاص، محاولة رؤيتك لها تلك الليلة هي استدرار المستقبل في أسرع وقت ممكن، أنت مهووس بحب التقادم.

– ما فهمت.

– إن شغفك بالارتباط بها، سرّع في داخلك رؤيتها في العرس لتختيل نفسك عريساً غصباً.

لا أدري لماذا كان هذا السبب وجيهاً ومنطقياً في نظري، مع العلم أنني لا أريد اجترار الأحداث لأقع في لب الفشل مع المجهول، أنا من يخشى المجهول وكأنه حية سوداء، تلدغ بحرفة تخفّيها.

كان الحضور مبهجاً وجميلاً. امتلأ المكان بالناس حتى غدا حشراً فرائحياً، بقيت في زاوية بعيدة عن النظر أسترق النظر إلى غرم الله وهو مسرور جداً؛ لأننا حين نحسد الناس نرمقهم من حيث لا يعلمون. بعد أن انقضى العشاء الذي بدا فاخراً مقارنة بذائقة القرى، بدأ "العبيد" ينقرون على "زيرتهم" و"زلافهم" يختبرون الوجود، ويختبرون أدواتهم. كان كل عبد يمسك بزير أو زلفة يقوم بتحميتها على نار أوقدت أمامهم لهذا الغرض، ينقر عليها لامتحان جودتها، ومدى ما وصلت إليه من جاهزية، وهو بالمقابل يدق قلوب الناس ليلفحهم الشوق المبكر لإقامة "عرضة" ماجنة. فعبيد الطبول، ذاكرة مترنحة لا تلوك إلا الفرح. كان الجو في تلك الليلة ماجناً، وكان الناس قردة من فرط تقافزهم، لم ينزل المطر منذ مدة، لكن روحي أمطرت حنيناً بغزارة لرؤية حمدة. فأحياناً نكون أقرب للتصالح مع الكوارث، إذا كانت تمثل جزءاً من مشاعرنا. بدا عمي مصلح في تلك الليلة مخلوقاً مريباً بالنسبة إلي، فهو وإن تجاوز العمر الذي يؤهله للتقافز فقد كان في تلك الليلة يشبه الأرانب في فرارها. أخذ يقفز فرحاً ونشوة، مذ رأيته وسؤال يقفز فوق رأسه، ما السبب وراء استحالة الآباء أطفالاً عندما يتزوج كبر أبنائهم؟! مثلما فعل عمي أبو نضال في عرس ابنه نضال، فقد تحوّل من ذلك الرجل المسكون بالصمت إلا في نظراته، إلى صبي لم يكن يعرف ماهية البهجة

قط. ففي عرس نضال كان عمي أبو نضال يقود العرضة، فقد كان في مقدمتهم، وأخذ يعرض دون أن يتكلف عناء نحت تصرفاته، فقد أخذ منه الفرح ما بقي في حياته من سرور وسكبها في عرس نضال، ليعقد صفقة مع السكينة التي عرفتها تصرفاته منذ ذلك الحين. حتى في أعراس أبنائه الآخرين، لم يكن بتلك النشوة التي شهدها عرس نضال، وكأنه اتفق مع القدر على إنجاز عرس نضال مقابل الصمت والسكينة طوال العمر. لأن الزمن آلة حادة تقطّع تصرفاتنا على مهل.

بينما كنا ننتظر بدء العرضة، سمعنا صوت "زلغة" تنبعث من داخل حوش عمي حيث شيطنة النساء، وتكامل زينتهن. أخذت أصوات النساء تعلو شيئاً فشيئاً، وصوت الطبل يرتفع ليولّد رعب الفرح في قلوب النساء، هن الماثلات دوماً أمام البهجة. استمتعت بالاستماع والإنصات لعلي أحظى بسماع صرخة فرح من "حمدة" لأذوب طرباً، ولأنتفض على عاهتي وأحاول مجاراة جرس السرور بين الناس، وأتلمّس عجزي بإرادتي. صحيح أنني سأبكي كثيراً تحت أقدام العجز، لكن لا أجمل من البكاء فرحة، إلا تضحية محب فوق ستار المهانة، فالعشاق يمضغون المهانة حتى تغدو مستطابة. فهو جرم كوني عندما تريد مضاهاة حبك وأنت عاجز.

لم يأتِ صوت حمدة وكأنها ماتت، أو كأنها تعيش في عالم مع مخلوقات صامتة، انتظرت طويلاً دون أن يأتي صوتها، وأنا أغرق. بعد هذا الصمت في انتظار صرخة فرح، جاءني نضال وقال لي:

- تروح معاي؟

- وين؟

- نروح نتفرج على الحريم!

اندفعت معه دون دراية، كالأطفال حين ينقادون من أيديهم وهم لا يعلمون بأنهم ذاهبون إلى المدرسة، كان ذلك المشهد مدرسة جنونية في نظر طفل، ذهبت دون أن أدري بأن صفعة ستلتئم وجهي، كطفل ذاهب

إلى المدرسة وهو لا يعرف بأن معلمه بات الليل ساهراً في تقليم أظفاره بنيّة أن تكون صفعاته على وجوه طلابه أكثر تقنيناً وجودة. جاهدت كثيراً، وأنا أحاول أن أرقى جداراً قفز نضال فوقه في طرفة عين، لأننا نحن المعاقين مظاهرات كبرى ضد الإنجاز!، بصعوبة بالغة صعدت الجدار، قبل أن يملّ نضال من مساعدتي بلحظة، وما إن اتضحت رؤية النساء أمام ناظري، وهن يتراقصن على صوت "الزلفة" التي ترن لترتعش أجسادهن اللدنة، حتى رأيت بين النساء واحداً من أولئك العبيد وقد احتضن زلفته والعرق يتقاطر منه بغزارة، والضحك يملأ الأفئدة وأرجاء المكان، كان ذلك العبد يدق على زلفته بإخلاص، وكأنه قطع وعداً على نفسه في التفاني لهذه المهنة غير الشريفة.

يقترف العازفون الإثم دوماً دون أدنى شعور بالأهمية، والمستمع يستلذّ الاستماع وهو غير راغب في معرفة من وراء هذا العزف، إن العازفين أدوات تمرير اللذة والاستمتاع فقط، كما نرى العبيد الآن. وبينما كنت أنظر إلى ذلك المشهد، هالني منظر النساء وهن "ينقّطن" ذلك العبد ويكسونه نقوداً، كانت الواحدة منهن "تجمّح" إلى أن تقف على بعد شبر من العبد، وتقوم برشّ النقود فوق رأسه، وهو يبالغ في دغدغة مفاتن الرقص فيها بالضرب على زلفته بشكل أقوى، وتبدأ هي بالتلاعب أمامه دون خجل، والنساء من خلفها يصفقن لها محاولة منهن في إيغالها في الفتنة. فهل ستكون النفوس طيبة - على حد زعم مسني القرية - حين يكون هذا المشهد ثائباً في الأعين؟! إنني لست تشاؤمياً حين أقول بأن القرى ترعى الخطيئة بأدب، لكني واقعيٌّ أحترم عقلي كثيراً، فكيف يمكن للشيطان أن يتوارى في مثل مواقف كهذه وهو المخلوق الثابت دوماً بين المتكدسات البشرية؟!

ظهرت "شمعة" بين الجموع النسائية ترقص بصبيانية، هي من عرفتها من هذا التكدس النسوي، لأنها هي من كانت تدبّر لحبي بطفولة، فالنساء حين يجتمعن لا يمكن للمرء التفريق بينهن، لأنهن

يتناسخن حتى في ضحكاتهن. أخذت شمعة ترقص وهي لا تعرف. دوزنة حركات جسدها البضّ إزاء وقع الطبول، كانت تمارس الفرحة بطفولة فتاة لا تعرف عن الأعراس إلا أنها مستودع للتزيّن والبهجة. وفي تلك الأثناء سمعت صوتاً من خلفي أثار خوفي وهلع نضال، وأحاله إلى إرهابي لا يعرف سوى الهرب، قال:

- يا قلال الحيا، بدل ما تسترون معاورکم تتفرجون علاهم؟!

وقف عمي مصلح من خلفنا بأهبة جندي حرب في معركة يعرف بأنه الرابح الأوحد فيها، لكن إثم المواجهة يقتات فؤاده. لم نطل الاستماع إليه، هربنا وأنا لا أدري كيف اجتزت ذلك الجدار الذي بقيت تحته قبل لحظات مسافة جهد خارق، لكن الإنسان عندما يخاف يصبح حيواناً مريباً، لكن قبل أن أهرب بلحظة، ألقيت نظرة خاطفة ومودعة على تلك البهجة الأنثوية الصاخبة، وأنا لا أعرف السبب وراء استقرار عيني على "شمعة".

كان صوت الطبول يملأ عالمنا آنذاك حينما هربنا من عمي مصلح ودلفنا إلى المجتمع الذكوري، ما إن بدت معالم الرجال تطفو أمام ناظرينا حتى رأينا أحد أبناء القرية "يحمّل" والجميع ينظر إليه بإكبار، لأن من يجيد العرضة في ديارنا كائن متفوق، وكأن الحياة والنجاح مرتبطان بهذه الخصلة من السرور. فعندما يكون السرور أداة تفوق، فالناس دواليب تخبئ الغباء. كان "بن جيلان" ينقر على زلفته وهو يحمّس كل ما كان داخل تلك الحلقة المتصلة من الرجال، كان الجميع يتناوبون على السخافة، فمنهم من يقفز على ساق واحدة نشوة، يثير الجمهور من خلفه صراخاً "إيواه، إيواه" وبعضهم كان يبالغ في صراخه لأجل أن يلفت إليه انتباه الناس والعبيد، وبأنه قد عُبِئ فرحاً بقوله "على قلبي يا بن جيلان، أنا أشهد إنك زلاف". كان أداء العرضة في ديارنا، ومازال في نظر بعضهم رقصة الحرب، فقد كان الناس يؤدونها وهم يتقافزون ويسيرون إلى الأمام بخطوات ثابتة على وقع

أصوات الزيرة والزلاف، حتى أن "ابن فجّة" بالغ يوماً حين قال: "عرضتنا هي رقصة الحرب، حتى أن أبي كان يقول عندما كنت صغيراً إننا استقينا عرضتنا هذه من ذهابنا لغزو القرى المجاورة، فكان أهل القرى حين تهتزّ الأرض من تحتهم يعرفون بأننا قادمون، وكانت هذه الرقصة إشعاراً لهم بأنهم هالكون، حتى ترسخت فينا، وأصبحت هي الرقصة التي نؤديها في أفراحنا". كان الرجال يصطفون صفين متوازيين بعضهم وراء بعض، حتى يكملوا دائرة كاملة، وفي بعض الأحيان لا تكتمل هذه الدائرة، ويبدؤون على وقع الطبول بالمسير والرقص في آن وهم أقرب للهنود الحمر، وبين الفينة والأخرى يخرج رجل من وسط هذه الدائرة ويبدأ بالتحميل، فيصطف الرجال جنباً إلى جنب وقد أعطوه وجوههم، ويقومون بتشجيعه على القفز عالياً بحركاتهم وصراخهم، ويقوم هذا الرجل "المحتل" أولاً بتحريض العبيد على النقر بقوة أكبر، بإشارة من يده أحياناً، أو بإشارة من رأسه وتقليب صفحات وجهه، فيثور العبيد على أدواتهم ويصمّون الآذان، ويبدأ الرجل بالقفز عالياً، وحين ينزل إلى الأرض بعد خطوتين ثم يعاود القفز مرة أخرى، وهكذا، والعبيد يحرصون دوماً على تناسب الطبول مع وقع الخطوات على الأرض.

هكذا كان أبناء القرية يتفنّنون في إبراز مواهبهم في هذه الرقصة، لم أجرب منطق البهجة هذه مطلقاً، ليس لأنني معاق فحسب، إنما لأنني ضعيف، فالضعف غير الإعاقة، الضعف: أن تبكي أكثر! حينما بدأت أتأمل هذا المشهد، غاب عني وجود الناس، وتزاحمت الأسئلة في رأسي، وكأنني غير موجود على هذا الكوكب ؛ لأن الأسئلة غيبوبة مطلقة، فحينما تدهمنا الأسئلة نخفي ونغيب، لأن الأسئلة مخدر عقليّ جبّار: لماذا طردنا عمي مصلح عن رؤية النساء وهو من أدخل ذلك العبد لينقر بينهن؟! هل لأننا فحول؟! أم لأن ذلك العبد عنّين؟! ولماذا نفترض في العبيد دوماً نقص الرجولة؟! هل لأن الرق نقص أوكسجين

الذكورة بينما الحرية امتداد فحولي لا منقطع؟! ولماذا هرب "عنبر" من سيده أليس لأنه أتهم بأنه هتك عرضه؟! وكيف تتنامى كل هذه السخافة؟! يُطرد الصبيان ليفوز الرجال بنوبل النشوة؟! يا ترى هل الشهوة في الطفل غير مبررة عنها في الرجل الراشد؟! إن فكرة تبرير الخطيئة لأناس دون غيرهم فكرة معاقة أساساً. لا أريد إجابات، لأنني لم أكتب للبحث عن إجابة ملقاة على رصيف الحياة وقد سقطت من حقيبة عقل أحدهم. لأن السؤال سخرية العقل إزاء الإنسانية البشعة.

يا إلهي .. إنني أحبك كثيراً جداً جداً، أحبك فوق التصورات الإنسانية كلها، امنحني ثقة بنفسي تجاه أسئلتي هذه، تجاه عقلي الذي يتبسم بسخرية سوداء ناظراً إلى عهر القرى. كنت إبان تأملي أنتظر لحظة في هذا العرس طالما انتظرتها، لحظة تتفحص قدرتي على التسليم بفلسفة الضحك. كنت أنتظر «البيتحة» بفارغ الصبر. عندما تأتي "البيتحة"، تجيء متأخرة كالعادة، خلف تعب الرقص والعرضة. لأن الناس يأتون بالأشياء الغريبة والمضحكة متأخرة دائماً، لكي يتسلقوا بها حبال الجهل والجد تصرفاً تصرفاً.

في أول مرة أرى فيها "البيتحة" كنت في عرس لأحد أخوالي، رقص الجميع وتعاقبت دورات السرور، فتقدم سُنّ كان يحمل في يده ناياً بدائياً يطلقون عليه مسمى "صفريقة" يخرج منه صوت لذيذ وهادئ. سألت أحد أخوالي ليلتها:

- وش اللي في يد الرجال؟

- صفريقة.

- وش بيسوي بها؟

- بيصفرق ويقومون الرجال ويرقصون على صوت هالصفريقة، هذي بسمونها هنا البيتحة.

اختزل خالي ذاكرة أمة باسم، اختزل عادات شعب بكلمة واحدة، وتركني حائراً أمام عقلي وضحكي واكتشافي، بترجمة التصرفات

وتبريرها. مبهج، عندما تكتشف بأن العالم قطع ضحك مركّب حتى في عاداتهم. أتذكر أنني قبل عرس غرم الله بيومين، وجدته بالمصادفة عند حقل عمي أبي نضال، أشرت إليه وأنا أعرف أنه لا يريد أن أكلّمه، لكنه وقف بسيارته، فقلت له وأنا جالس في مقعد سيارتي:

- اليوم راح تجيبون واحد يصفرق علشان اميتحة؟

ابتسم وأجاب، وكأنه يتنفس الصعداء إزاء معاق يعرف عريه، ويعرف بأن هذا الزواج امتداد قدري فاخر لليالٍ سوداء متفحمة:

- اعرف إنها تعجبك، كيف ما نجيبها اميتحة لازم منها.

وذهب.

عندما كنا نذهب مؤخراً أنا وحماد لرؤية هذه البيتحة في أي حفلة من الحفلات، أتذكر حيناً أنه في إحدى المرات سألني:

- لماذا تُصرّ يا قصاص على رؤية هذا الموروث، ألأنك تحبه؟!

- انقيادنا للأشياء لا يعني الحب المطلق لها يا حماد ، نحن نقاد للأشياء الغريبة حباً أو سخرية، لأن الأمور التي تعلق بالذاكرة كتسلّق أولي، لا يمكن نسيانها.

- يعني أنت تذهب للسخرية و الضحك.

- أنا عندما أسخر لا أسخر سوى من نفسي، لأنني مؤمن بأن استمرار الأشياء الرديئة رداءة لوسط تمادت فيه.

في عرس غرم الله، وعندما انتهى فاصل العرضة ووقتها المتزامن مع البهرجة، تقدّم مسن وفي يده عدة بهجته، وبعض الناس من فرط حبهم لها بدؤوا يصرخون: "لعنبوا واحدن ما يحب اميتحة".. وآخرون "الله الله يا مجدوب بامصفرقة". نفخ "مجدوب" وقد كان مسناً خرافي الهيئة في صفريقته، كان يسكن وجهه طن من التجاعيد، وقرابة رطلين من السمرة، كان يمسك نايه البدائي فاك بحرية عازف معتّق، وخرج صوت الصفير منغّماً، وددت في ذلك الحين أن أبقى مستمتعاً ومستمعاً دون تدخلات الحاضرين في اجتراح اهتزازاتهم ورقصهم البشع. فهنالك

أشياء سماعها أفضل من رؤيتها، كالبيتجة تماماً. وهنالك عادات تشبه المدن، هي كثيرة وتأخذ حيزاً من العادات دون فائدة منها. وبينما أنا أنتظر، ورد في خاطري سؤال كالنيازك حين تتصادم وتحترق: إلى متى وأنا أنتظر حتفي في أغلال القرى، وكيف يستطيع رجال القرية دوزنة أجسادهم مع صوت الصفير؟!

بقيت مستمعاً والناس من حولي يتراقصون، وفي لحظة غياب وجودي هززت رأسي لينع سؤال طالما أخفيته.. لماذا لم أر حمدة هذه الليلة؟!

السنة الخامسة بعد حمدة

بعد ثلاثة أشهر غادر الصيف، وبمغادرته غادر أهل المدن إلى مدنهم.. فما أجمل القرى حين تتبرأ من موفدي المدن فجأة. بقيت أنتظر الدراسة بأمل أن ألتقي حمدة، وعندما يتعجل الإنسان نكده بحجّة لقاء أنثى فهو في حالة متدهورة من العشق. كنت أتعجل الاستيقاظ المبكر للمدرسة وذلك لأجل أن يرحل أهل المدن الذين يزيدون حجم القرى صخباً، ويزيدون حجم التصرفات حذراً، هذا الحذر الذي يقتات لقيانا نحن اللذين كنا نلتقي خلف سكينة القرية، يغمرنا السرور، وتتلبسنا الثقة، لأن القرية في أيام الدراسة منفى للهدوء. قبل أن أعرف حمدة، كنت أحب زيارة أهل المدن للقرية لأنهم يذكرونني بأيامي في المدينة ويعجنون فينا الفرحة، لتنضج وتخرج رغيفاً لذيذاً من السعادة، لأن من لا يحب يعشق الضوضاء، بينما المحبون كائنات الهدوء دوماً. إن المحبين يعشقون الهدوء لفرط ما تضج دواخلهم بالمتغيرات.

أتت المدرسة بمعية المطر. كان أول يوم دراسي في تلك السنة ممطراً بدهشة، وكأن مجيء المطر تعاقد مع أول يوم دراسي، ربما لا نتنبه لوجود الترادف العجيب للطبيعة، لكن الطبيعة إنسان ضخم ومهول. ذهبت إلى المدرسة ذلك اليوم، كانت السماء منتشية بالغيم، كانت تتباهى بسحبها كثيراً، وكنت أتباهى بحب سأجده، ووجه قمري بقيت مدة لم أتضرع له، ولم أقدم قرابين الحب لألوهيته.

هكذا إذن.. ننسى كل ما يؤرقنا في لحظة لقاء وبهجة مرتقبة. فهل نسيت فصلاً كاملاً من الغياب في لحظة لقاء مرتقب؟! أم أن العشاق يغفرون كثيراً للغياب الطويل إذا ما أتيحت لهم دقائق لقيا قصيرة

ومواربة؟! ماذا لو كنت عاشقاً في دول الشتاء المستمر واللامنقطع؟! تلك الدول التي تمنح العشاق وقتاً أطول لاجتياز اختبارات المشاعر والحنين؟! هل سأحظى باللقاءات الطويلة وهل سأستطيع أن أنثر حبي وأخبئ عاهتي لفترة أطول؟! إن الحب لا يذر في داخل الإنسان منا خلية تنبئ بالقبح ، الحب.. عملية غريبة تولّد خلايا التعتيم فينا بشكل خرافي، حتى لا نعود نرى إلا الجمال، والجمال، فقط. عودتنا بعد الإجازة تكون دائماً صاخبة في حضور التذكر والتلفيق، لم نعترف بواقعية الدروس إزاء غرائبية إجازاتنا، ونحن محدقون في الأمكنة التي سترافقنا إلى نهاية هذه السنة الدراسية، إما أن نرحل ونتركها، وإما أن ينذر الواحد منا الوفاء لهذا المكان ليبقى فيه عاماً دراسياً آخر. اصطففنا في طابور طويل، كنت آخره إلا من طالب وقف خلفي، طالب كان يحترم كسله في الدراسة، ويوليه جُلّ اهتمامه.

أشار لنا المعلم بأن نتقدم للذهاب إلى فصلنا الجديد، ذلك الذي سيكون صومعة نحترق فيها بتعاويذ الضرب والغش والحب والمراهقة. اندفع الطلاب في طريقهم إلى الفصل، ورغم أنهم بدوا أكثر هدوءاً إلا أن النظرات المتوقة للمقاعد الأمامية كانت أشد ضجة، فأحياناً تكون نظراتنا جيوشاً تتقدم ببعثرة، وكأنها على موعد ثابت مع الموت.

اقترب الطلاب من الفصل، وما إن دخل أول طالب إلى الفصل حتى بدأ تدافع الطلاب وكأنهم حجاج يتدافعون أمام الحجر الأسود، كل منهم يسترق الغفلة من الآخر ليفوز بمقعد أمامي، وكأن التفوق وليد كرسي في أول الفصل. صحيح أنني على ميثاق عتيق مع عاهتي، إلا أن رؤية هذا المشهد أحرقتني كثيراً، لماذا لم أتسابق معهم إلى المقاعد الأمامية؟! ليس لكرهي للدراسة، إنما لأنني لا أستطيع سوى النظر وتكديس الحسرة، فلماذا تبتز المواقف كلها عاهتي؟!

دخلت متأخراً كالعادة، نظرت إلى الوجوه الماثلة أمامي، كانت تحمل الحياة بين دفتيها، منهم من كانت السعادة تمتطي وجهه، ومنهم

من مضغه الاستماش نظراً إلى استيطانه متعمداً لم يكن يطمح إليه، وآخرون كانت وجوههم كالجدران حيادية في نظراتها، وبعضٌ منهم كانوا أشبه بالأطفال من فرط نظراتهم اللامبالية. فعندما نريد اختزال الحياة في نظرة، فلننظر إلى الجموع من الأعلى. وجدتُ مقعدي خالياً، وكأنه فُصّل على قياس حزني وعاهتي، قبّلته في داخلي ضعفاً وقعدت. كنت قبل الأخير وفي يسار الجدار. لماذا كنت ملاصقاً للجدار؟! لماذا لم أكن وسط الفصل مثلاً؟! هل كان يعني الجدار بأنه يسند معاقاً وسيبقى يسنده عاماً دراسياً كاملاً؟! فعلاً ما أوفى الجدران تقدّم خدماتها الإنسانية بالمجان. استندت إلى الحائط كما كنت أستند إلى عجزي يومياً، وبدأت سلاسل التعارف وتقليب صفحات الإجازة، كان كل الطلاب يجهّزون وجبات دسمة من الأحداث تبين للمستمع مدى ما كانت فيه الإجازة جميلة، إلا أنا لم أفهم بعد كيف تكون الإجازات دفعات مجانية للأنس، أنا الذي يصنع العذاب في كل إجازة ويوم دراسي. كانوا يحكون لي كيف كانت 'عراس قراهم؟ وكيف جاءهم أبناء جماعتهم من المدن بهدايا كثيرة جداً، وكيف أسبغ أهل المدن على القرى طلاء التغيّر؟ وأنا أقارن بين واقعين لهما المناسك نفسها مع اختلاف الأجور. إن الحياة في المجمل لها الوقع نفسه والأحداث نفسها، الناس هم من يتذوقها، لأن الكينونة الإنسانية بكل ما تحمله من مظاهرات هي من تعطي الدلائل تجاه هذه الأحداث، وتفرزها، وتصنفها.

استمر الوضع هكذا إلى أن جاءني أحد الطلاب وحكى لي أنهم ذهبوا إلى مدينة جدة، ورأوا الأنوار في الشوارع في أعمدة امتلأت رؤوسها ناراً تبعث الضوء في الليل لإنارة الطريق. صحيح أنني لم أفاجأ بمثل هذه الحكاية، لكني أشفقت على عقول لا تعرف إلا العلف وروث الأغنام، عقول صغيرة جداً إزاء ما يحصل في هذا الكون من انفتاح. بعد مدة، دخل معلم التاريخ إلى الفصل، كان بديناً بقسوة، فسلم علينا،

وأمهلنا مدة لكي نستوعب دخوله، لأن الوقوف في وجه المتغيرات المفاجئة غباء مركب.

قال بعد مقدمة لا يحسن قولها إلا المعلمون فقط:

- أريد أن أعرف أين قضى كل منكم إجازته؟ وكيف كانت إجازاتكم؟

وبينما كان الطلاب ينقلون مشاهداتهم ومشاعرهم بأسلوب ضحل ومراهقي، بدأت أفكر: هل أقول له بأني تعذبت في هذه الإجازة كما لم أتعذب في غيرها؟! أم أقول له بأن ابن عمي في هذه الإجازة تزوج المرأة التي كنا نقضي معها خلواتنا الليلية متنازلاً عن حقه في الطهر والكرامة؟! أم أقول بأن أهل المدن أصبحوا جراداً لا أحب موسم هجرته إلى القرية؟! أم أقول له بأنني أحببت فتاة كانت الإجازة عائقاً دون رؤيتها؟! أم أكذب وأقول له بأني تمتعت بهذه الإجازة كثيراً، حتى أنني لم أتنبه لقدوم المدرسة إلا في الليلة الفارطة؟! كنت منشغلاً بتأويلاتي، كالمعلم حين ينشغل بتصحيح دفاتر طلابه، وهو يضع تصرفات طلابه على بعد نظرة يقتنصها لهم بين الفينة والأخرى. وبي شيء من الضآلة تجاه الإجابة التي ستشملني بعد قليل...

قال الطالب الذي كان يجلس أمامي بسرعة:

- يا أستاذ الإجازة حلوة مرة.

اختزاله هذا، حوّل السؤال لي سريعاً، بوغت بسرعة الانتقال هذه، فسألني المعلم:

- ما اسمك؟

- قصاص.

- كيف كانت الإجازة يا قصاص؟

أربع كلمات تؤرخ لعذابات جمة، وتقيّم تصرفات كثيرة، أربع كلمات كيف ستفي بحكاية انهيار للمبادئ، وتساؤلات تملأ براميل الحياة دون تعنّت. أجبته سريعاً كما بادرني:

- يا أستاذ بالمختصر الإجازة كلها نوم.

نظر إليّ الأستاذ ومدّ شفته السفلى إلى الأسفل قليلاً مستغرباً كلامي، ونقل السؤال الذي كان بين يدي لمن كان بعدي. فهل كانت هذه الموارية مقنعة؟! أم غريبة؟! أم مفاجئة؟! أم مضحكة؟! لا أعلم لكن ثمة إيمان مطلق بأنها لم تُرضِ عقل أستاذ ينظر إلى تلاميذه وكأنهم أطفال، لأن المعلم في بلادنا من الطبقة البرجوازية دائماً. المعلم هو من يحق له الاختزال والموارية، والتلاميذ علبٌ جاهزة للتعبئة. استمر أول يوم دراسي برتابة التعارف، واعتلاف ذكريات أيام الإجازة، هكذا من غير أي تبدل وكأنما نما تواطؤ خاص حول هذه الخصلة بين كل أعضاء المدرسة حتى المدير، الذي كان يصنع لنفسه قدسية بعصاه التي لم تفارق ظهر أحد من الطلاب سواي.

عدت إلى المنزل، فصدفت أمي عند الباب، فبادرتني قائلة:

- هاه كيف كان أول يوم في المدرسة.

- ممل!

- ليش؟

- بس كذا، إحس إني بديت أكره المدرسة.

كان هذا التنبؤ يشكل أزمة بالنسبة إلى أم، لأن الأمهات يبدعن في استنطاق مشاعر أبنائهن، فقالت لي وهي تربت كتفي بحنان مضاعف:

- أدخل الحين، يمكن لأنه أول يوم تشوف أنه ممل، بكرة تتعرف على أصحاب جداد وتشيل من رأسك مثل هالخرابيط.

دلفت إلى الحجرة، وأنا أنتظر أو أؤمل فعلاً أن تتغير هذه الرتابة الموغلة في الملل، لأن ثمة رتابة لا تتصادم مع الملل إطلاقاً، كرتابة الحب تماماً. انقضى الأسبوع الأول من الدراسة، وأنا مؤمل رؤية حمدة، وبدت المدرسة أكثر مللاً..

.. إنني أعترف الآن بأن عدم لقيا حمدة تلك الأيام، هو السبب في تبدل المدرسة في نظري، لكني لا أعلق على فتاة فشلي، أعلق على

الزمن كل ما حصل، لأنني مستضعف تكالبت عليه المصائب وهو ما زال غضّاً. وأن تهاجمك الحياة وأنت طفل، فالحياة دستور تآمري بشع.

***

أتذكر الآن أنه بعد زمن ندمت على ترك المدرسة، وحين أردت إكمال دراستي في المدرسة الليلية، لأن سني لم يسمح لي بأن أكمل الدراسة صباحاً مع طلاب يصغرونني، أنا الموظف المتربع خلف شنبه بعنوان رجولي أبله، ولأن الوظيفة أخذت مني وقت الصباح الذي كان قديماً لا يتقاسمه مع المدرسة شيء إلا ذاكرتي مع حمدة، قال لي حماد عندما أخبرته برغبتي في إكمال الدراسة بعد ضحكة موجعة:

- إنني لا أضحك عليك إلا لأنك كائن ليلي، والكائنات الليلية لا تعطي الليل إلا القداسة، لكنك تتقدم تقدماً جيداً بالنسبة إلي "لأن قرار الفشل أسهل من قرار تداركه دائماً".

أكنت بقرار إكمالي للدراسة ليلاً أرمّم بيتاً خرباً صنعته التضحية واستباق المجهول؟! أم أن المرء حين يُصدم بالأشياء التي كان يرى فيها الوفاء التام يبدأ في تصنع النجاح!؟.

***

بعد شهر من الدراسة لم أر فيه "حمدة" انضم هذا الشهر إلى أشهر الصيف الثلاثة لتتضخم مدة وجعي إلى أربعة أشهر كاملة، حاولت كثيراً أن أجدها لكنها كانت قاسية معي بما يكفي وزيادة. وفي إحدى العشيات خرجت من المنزل فرأيت "شمعة". ناديتها بحذر وأنا أخشى هربها مني، كنت أنتظر فقط أن تنظر إليّ باستهتار وتمضي، لأنها بدأت تمارس أسلوب النساء في ديارنا حين يُردن ابتزاز الرجولة بغطاء الوجه.

فالمرأة في ديارنا لا تغدو امرأة إلا إذا تحجبت واستترت، فيبدأ المجتمع في ملاحقتها، وتبدأ أمها في تلقينها دروساً في كيفية التلاعب بمشاعر رجل. فالحجاب في بلادنا ليس ديناً في كل الأحوال، لأن الدين تقية، إنما هو ستر تتفنن من خلاله المرأة باقتناص الرجال لفراش الزوجية الحلال. فبالقدر الذي تكون فيه الأنثى مستترة، يكون فيه الرجال شبقين. شبق الرجال هذا يلبي والرجال موقنون بأن المرأة مستترة حتى في الغياب. لأننا نقيس طهر نسائنا بالمقدار الذي تلبس فيه المرأة حجابها، وكأن الحجاب ساتر لها عن ممارسة الرذيلة.

لم تهرب "شمعة" مني، بل انقادت لندائي، وأتتني كما هي أول مرة، طائعة تقدم خدمات الحب بين عاشقين بالمجان، في بلد لا يعرف فيه العشاق إلا الاختباء. لكنه الحب لا يخبئ أحداً. كانت تصرفات شمعة معي تبعث التساؤل فيّ: لماذا تقدم شمعة كل هذه الخدمات بنفس راضية؟! أقبلت في حجابها الجديد، وطيف حياء يتربع على محياها، سألتها:

- كيفك شموعة؟

- بخير.

- والله وصرتِ حرمة!

خجلت كثيراً، وفرحت أكثر، لأن النساء في أوساطنا يحبذن أن يصرن حريماً، فكلمة "حرمة" تعني أنها في المنطقة التي تسرق فيها أنظار الرجال. وكما هي عادة الأنثى، تحب أن تغزو نظرات الرجال مستوطنات جسدها، كانت نظرات شمعة لي محاولة منها لأستزيد بنظراتي مضغ جسدها. لأن المرأة من الضعف بحيث تعوّل على جسدها في كل وقت.

سألتها:

- وين حمدة؟

- في البيت.

- طيب، أبيك تروحين وتقولين لها قصاص بيبي يشوفك الليلة ضروري.

- طيب.

ثم أردفت:

- تبي شيء ثاني.

- لا سلامتك.

وانطلقت..

كالكلمات التي نقذفها من أفواهنا بغبة ارتداد مفعولها إلى الأشخاص، رحلت شمعة وأنا أنتظر رجاء عودتها وهي تحمل خبر إعادتي للحياة، فالعشاق موتى مبتدئون، حتى يأتي موعد اللقاء.

السنة الخامسة بعد حمدة

"قصاص..

لا تحسب إني أتهرب منك، لا وربي، أنا مشتاقة لك مرة، لكني أتهرب من الناس اللي حولي لأنهم بدؤوا يلاحظون تصرفاتي، وأنت تعرف إني بنت، والبنت هنا محاصرة حتى تتزوج وتعرف وش صار في الدنيا من تغيير، بأحاول أقابلك بكرة، وإذا ما قدرت تعال يوم الأربعاء في الليل وراء بيتنا تلقاني هناك..

حمدة"

بهذه الجمل البسيطة أوجزت حمدة عذابات أربعة أشهر من الغياب، لكني وقتها كنت كمن حاز الدنيا بما فيها، بقيت منتظراً مساء الأربعاء بصبر يتقلّص، لأني متأكد بأن موعد الغد ما هو إلا تصبير ألقته في طريقي، كي أتزوّد به لمساء الأربعاء، كانت تعرف بأنني أبغض الانتظار، فألقت موعد الغد لتختبر مقدرتي على الانتظار، وتجازي طيب أفعالي، بأردأ مواعيدها. لا عجب أن المرأة في تعاملها مع الرجل دقيقة الملاحظة والتركيز، لأن حمدة كانت تذكرني بأشيائي التي أهواها وينسينيها الزمن، أتذكر أنها أرسلت إلي مرة رسالة طويلة كان معها علبة كبريت، وكتبت في آخر الرسالة:

"... علبة الكبريت هذي خذها علشان تحرق فيها نفسك بسجائرك، لأني أعرف إنك ما تحب تدخن إلا إذا ولعت سجائرك بالكبريت".

كان سهلاً عليّ أن أتناسى ما فعلته، لكن المشاعر التي تصهل في داخلي كانت تنبئني بأن من يحرص على تذليل حزنك هو من يستطيع أن

بدخلك في زمرة الأشقياء. تسلمت الرسالة من "شمة" ومعها علبة الكبريت وقد نسيت فعلاً أنني أهوى إشعال سجائري بالكبريت.

جاءتني رسالة حمدة مساء السبت، ذهبت إلى المدرسة صباح الأحد ولم يكن معي في حقيبتي سوى كتاب واحد، وأشلاء متهدّمة، وهندسة حب، وحزن انتظار. دخل معلم التاريخ البدين إلى الحصة الثالثة، كان الفصل على أتم الاستعداد للخروج من مأزق درس تلقيني، وكنت أتحرّق شوقاً لانقضاء يوم يفصلني عن حمدة، لتخفف عقوبة سجني الغيابي ثلاثة أيام فقط. عندما رآني المعلم بلا كتب سألني:

- لماذا لم تأتِ بكتابك؟

مددت بذاءتي وقلت:

- مالك دخل!

صدم المعلم بدءاً من ردي، وقال ومازال حاجباه مرفوعين إلى الأعلى:

- هذا رد تقوله لأستاذك؟

- .....

- صدق قليل أدب، والله لو منت معوّق لأعلمك وشلون تتعامل من مدرسينك.

عندما سمعت هذه العبارة لا أدري ماذا 'صابني؟ لكنه شعور لا يدركه إلا ذوو العاهات حينما يبتز أحد ما إعاقتهم، لأن الإعاقة وإن كانت شعوراً بذيئاً في داخل كل معاق إلا أنها تغدو مقدسة إن حاول الأصحّاء نقدها، فالعاهة عند المعاق خصلة بؤس إلا حين يعرّض بها الأصحاء.

قلت له:

- أقول ثمّن كلامك، أنت أصلاً حرام تكون مدرس، اللي مثلك بروح يشتغل قواد أحسن!

لم أنته من كلامي هذا حتى سمعت صوتاً انبثق من خدي الأيسر

إثر صفعة مدوية أطلقها هذا الأستاذ على وجهي، شعرت بأنني أرض تدور حول محورها، وأخذت الأشياء تتعدد في عيني، عندها نكشت قاموس السب في ذاكرتي القروية البليدة، ولا أسمع سوى أصوات الطلاب وهم يقولون "يا أستاذ تعوّذ من إبليس" وهو يرعد ويزبد، ولم أعِ إلا على صوته وهو يقول "ودوا هالمعوق عند المدير، لأنه مو متربي"

اتجهت إلى غرفة المدير والدوار يعشش في رأسي، وما إن وصلت إليه حتى قلت:

- أستاذ جمعان أنا ما عاد أبي المدرسة عطني ملفي.

بهت المدير من هيئتي، نظر إليّ ملياً بإشفاق مختلط بصدمة، ومكث يتأملني كقطعة أثرية في متحف عالمي، وبعد أن استوعب منظري أشار إلى الطلاب بالذهاب، فبقيت واقفاً أمامه وغضبي يتمدد في الغرفة، فقال لي:

- اجلس يا قصاص.

- ما بي أجلس ولا أبي أدرس أبي ملفي ما عاد أبي الدراسة أبد.

- أنت أجلس الحين وأحكي لي اللي صار وبعدها يكون لكل حادث حديث.

حكيت له ما حدث بكل التفاصيل، ولم أنقص شيئاً، فقال المدير بعد أن تناول كوباً من الشاي وضع أمامه، وعدّل من وضع نظاراته التي كانت تتربع على أرنبة أنفه:

- صُدمت فيك يا قصاص، أنت الطالب المؤدب والعاقل والخلوق بحصل منك كل هذا.

وبعد أن تأمل وقع كلامه عليّ أردف:

- أولاً أنت ارتكبت خطأً في حق معلمك، وأنا سأجلس معه وأسمع منه ما حدث كي لا أظلم أحداً، فخذ حقيبتك واذهب إلى البيت ولا تأتني غداً إلا مع أبيك.

كان المدير يدرك بأنني سأخبر والدي، وحتى لو لم أخبره سيتصل به ويخبره، كنت واثقاً بأن أبي لن يبادرني بأية عقوبة، لأنني الفتى المدلل في المنزل، ليس لشيء إنما لأنني أفتقد عضواً يملكه كل أفراد أسرتي. إنني أكره ذلك الدلال الذي لا يأتي إلا ممرراً من أنبوب الشفقة والرحمة، عدت إلى المنزل مبكراً على غير العادة، وقفت أمي أمامي بذهول الأمهات، وسألتني مشدوهة:

- وش اللي صار.

أجبت دون أن أنظر إليها، وكأنني مدان يدرك بأنه قريب جداً من حبل المشنقة:

- تضاربت مع المدرس.

- ليش.

- لأنه قال لي معوق.

- ليش قالها طيب؟

- تكفين يا يمة خلاص اللي صار صار، واللي فيني مكفيني.

عندما جاء أبي إلى البيت، حكيت له ما حصل بالتفصيل، ولم يزد على أن قال:

- الله يهديك يا ولدي.

أعترف بأنني اختلقت هذه المشاجرة كي أترك الدراسة، أنا المجتهد دوماً، لكنه الحب يغيّر مسارات الأشياء دون أي بادرة اعتراض منا. فلم أذهب إلى المدرسة في اليوم التالي، فقد ذهب أبي وتداول مع المدير ومعلمي ما حدث، فألزم المدير أبي بأن يأتي بي وأقوم بالاعتذار من المعلم أمام الجميع في الطابور الصباحي إن كنت أريد الدراسة. وقفت آنذاك أمام مستقبلي وحيي شاهراً عاهة. عندما قال لي أبي ما أملاه عليه المدير قلت له بأنفة:

- ما راح أعتذر لواحد يقول لي معوق، ولا عاد أبي أكمل

دراستي، لأن الدراسة اللي تجي من أمثال هالمدرسين ما تجيب غير الهم، أبروح أتوظف.

لست مكابراً، أن أترك دراستي لأجل اعتذار، إنما هي فرصة - والفرص عادة لا تتكرر - للتقرب إلى حمدة بوظيفة. حاولت أن أعمل مبكراً، كي أكون أقرب لبلوغ الزواج، وأنا لا ينقصني إلا ساق فقط، كيف يمكن أن أجمّل نفسي بعمل، وأنا ينقصني عمر آخر لاستكمال أعضائي؟! حاول أبي أن يقنعني بأن أعتذر مراراً، لكنني لم أذهب، وحاولت أمي أن أستمر في مدرستي لكني لم أفعل، وبقيت متزراً غضبي ومنتظراً لقاء الأربعاء.

يوم الأربعاء ذاك رقم تائه في سجلّ اللقاءات العشقية في بلادنا، فكم من الأيام غيرت تاريخ إنسان ما، وربما يكون المرء منا متغيراً بطبعه، يهوى التبدلات، لكن أن يكون ثمة يوم واحد في حياة كل إنسان بجعله يسلك الطرق المغايرة، معنى لا يمكنني استيعابه. انتشر خبر تركي للمدرسة في أوساط أسرتنا، وفي يوم الأربعاء عصراً مرّ بي عمي التتاري، وصدفني عند عتبة باب بيتنا فقال لي:

- يبدو لي أنك تفرعنت يا قصاص.

لم أجب، وأيقنت بأن هذا القرن من الفراغ يقدم لي جبروت السنين في كلماته. فأحياناً تُعمّي السنين على الإنسان مبادئها، كما كان عمي التتاري، ليس له في رصيد الحياة إلا مائة سنة قضاها أعزب. وكم من الخلايا يجدر بنا أن نُعمِلها لتدبّر إنسان يبلغ مائة سنة من العزوبية. لكن هي القرى توفر همّ الأجساد قبل همّ الأرواح دائماً. ذات يوم مررت بجانب نافذة عمي التتاري اليتيمة في بيته، سمعت من المذياع الذي كان يشاركه في سريره صوت أم كلثوم وهي تغني "الأطلال"، وبدأت أتخيّل شكل هذا المسن في توحده مع الموسيقى، لأن الموسيقى توحد بالدرجة الأولى، أخذني الهاجس كثيراً، حتى تمنيت أن أعرف طقوس المسنين إذا استمعوا إلى الغناء، وقفت على صوتها:

يا حبيبي كلُّ شيءٍ بِقَضَاءْ...
ما بأيدينا خُلِقْنَا تُعَسَاءْ
رُبَّمَا تَجْمَعُنَا أَقْدَارُنَا...
ذاتَ يومٍ بعدما عزَّ اللقاءْ
فإذا أنكرَ خلٌّ خِلَّهُ
... وتلاقينا لقاءَ الغرباءْ
ومضى كلٌّ إلى غايَتِهِ...
لا تقلْ شتتنا.. فإنَّ الحظَّ شَاءْ

تقدمت إلى منزله، طرقته بعنف لأخرجه من هستيريا الموسيقى تلك، كان بي حنين إلى رؤية مائة عام تتغذى على أغنية، سمعت صياحه من الداخل عالياً يلبي وكأنه يقول "كفى ضجة"، وقفت أمام الباب مباشرة، وكأني عسكري أُمِر بمناهمة منزل ما، وحينما خرج وجدت فيه بساطة تلك المائة من السنين، كان لابساً فانيلة بيضاء، وسروالاً أبيض قصيراً، وفي يده عكازه الذي يشبهه حتى التطابق. فعندما يلتصق الإنسان بالجماد حتى التشابه، فهو في الحقيقة ظاهرة آحادية الوقوع!

نظر إليّ مستغرباً وقال:

- ماذا حصل؟

- لا شيء، مرّ بي رجل قبل قليل وسأل عنك، وقلت له بأنك في السوق، وجئت لأتحقق من وجودك هنا.

- من هو؟

- لا أعرفه.

- أعطني أوصافه.

- كان رجلاً أسمر البشرة طويلاً.

- وكيف يمكنني معرفة من هو؟ معظم الناس هنا سمر وطوال، لكن عد إلى بيتكم وإن أرادني سيأتي مرة أخرى.

عدت إلى المنزل، وأنا لا أعرف كيف أمكنني الكذب أمام مظاهر البساطة المتدفقة من عمي بغزارة. فقبل حادثة تركي للمدرسة كنت أدرك أن عمي النتاري يمارس معي الأبوة والصداقة، لأنه كان يلقنني دروساً بطريقة مواربة، فالآباء لا يعطون أبناءهم دروساً كهذه، الآباء هم من يصنعون مبادئ أولادهم حتى يكبروا، وحينما يكبر الابن يغدو بين خلفية ثقافية ممتلئة في ذاكرته، وواقع يفترض أن يعيد الشخص تأهيل تفكيره فيه من جديد، ورغم ما كنت أفترضه في عمي هذا من ضرورات للسن وللتنشئة، إلا أنه كان رقيقاً معي بقروية، لأن الرقة في القرى تختلف عنها في الحواضر، كما هي السلوكيات الإنسانية الأخرى، فالقرى أبجدية مختلفة تماماً.

قال بعدما وجدني صامتاً أمام سخريته تلك:

- سمعت إنك تنوي ترك دراستك.

- ....

- يا ولدي الشهادة في هذا الزمن قارب نجاة.

عند هذه اللحظة تذكرت حمدة، وتساءلت بسريّة، وماذا تفيد الشهادة وحظي مع حمدة بدأ يتآكل؟! فقلت لعمي:

- يا عم عافت نفسي الدراسة.

- وهل كل من يعاف شيئاً يتركه؟!

- ...

- أنا عفت الحياة، لكني لم أتركها.

شعر بأنني لا أريد إتمام هذا الحوار الناصح، فقال وهو يستدير ويطلق ظهره أمام قامتي:

- يا بني، لولا اصطدام الغيوم لما سقط المطر!

رحل عمي وترك في ذهني تنوءات لأسئلة لم تنك بعد، ظلت هذه التنوءات زمناً طويلاً في انتظار دكها إجابات، كنت أبحث عن الضياع لفرط ما تخيلته من الاقتران بحمدة؟! أم هي تضحية عاشق مغفل حرمه

العشق من التفكير الأنسب؟! أم أنني معاق يريد أن يعجن مواقف الحياة وفق ما يتصوره؟ والسؤال الكبير جداً، هل حمدة تستحق كل ما فعلته بنفسي فعلاً؟!

صحيح أنني لم أقدّم لها إلا حبي ومدرستي، لكن الحب فعل للعظمة في نفوس المحبين. وبالرغم من السنين الطويلة التي مرت، إلا أنني لست بنادم على ما فاتني وما اقترفته في لحظة حب جنونية، لأني أتذكر حكاية القنبرة والصياد التي قرأتها مؤخراً في كتاب القراءة والمحفوظات عندما كنت أستذكر لابني دروسه، تقول الحكاية إن صياداً اصطاد قنبرة وحين أمسك بها قالت له "سأعلمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلي" فتعجب الصياد منها وأكملت القنبرة "واحدة أقولها لك وأنا في يدك، والأخرى وأنا على الشجرة والثالثة وأنا على الجبل، فقال لها الصياد" هاتي الأولى فقالت "لا تتلهف على ما فاتك" فأطلقها، وعندما صارت على الشجرة قال لها "هاتي الثانية" فقالت القنبرة "لا تصدق بما لا يكون أن يكون" فطارت فلما صارت على الجبل قال لها الصياد "هاتي الثالثة"، فضحكت القنبرة وقالت له "لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درتين تزن كل واحدة منهما عشرين مثقالاً" فعضّ الصياد شفتيه نادماً، وقال لها وهو يتحسر "هاتي الثالثة" فنظرت إليه القنبرة وقالت في تهكم "لقد نسيت الأولى والثانية فكيف أقول لك الثالثة، يا أحمق أنا وريشي ولحمي لا نزن عشرين مثقالاً" وطارت.

أقول بأنني لم أندم على ما تركته، هذا الإحساس يتضخّم في مخيلتي تارة ويخبو تارة أخرى، وأقبع في عنلي قزماً إزاء مشاعري المتنفخة، وحماد يلوح لي سمائي مقدّماً ابتسامة لا أجد لها نعتاً حقيقياً وصوته في الفضاء يذهب ويعود:

- يا قصاص أنت خليط من المتناقضات!

عندما دخل المساء، تركت نفسي تعمل على هواها، كما عملت في لقاءاتي الأخرى، فالإنسان حين يقترب من موعد مع حبيبته يغدو مرسى

للأخيلة ومروحة تطرد ذباب الاحتواء الكاذب، وضرورة كبرى بأن يلقي في مجرى حبيبته حجراً ضخماً تتعثر به مسارات الحب، وتنبهها بأن الحب في تجدد. فالحب الذي يقبع دائماً فوق الرفوف دون حراك، حب مغبر. ذهبت واغتسلت، وقبل أن ألبس ثيابي، وقفت في وسط الحجرة، أردت أن أطبق حركتي المعتادة، فردت يدي إلى جانبي ورفعت رأسي إلى الأعلى كأنني أريد الطيران، وبدأت أرفع ساقي الصناعية رويداً رويداً إلى الأعلى، ثم أخذت أستنشق هواء الحجرة، وأستنشق إلى أن شعرت بالتماهي مع الموجودات داخل تلك الحجرة، وبغتة ضربت برجلي البلاستيكية في الأرض، ضربت بها، ضربت بها بشدّة، وجلست على هذه الحالة حتى تعبت من الضرب، وفي تلك الليلة لم يسقط طرفي الصناعي، فكانت هي الليلة الوحيدة التي لم يسقط فيها هذا اللعين، فجلست على السرير الحديدي الصدئ في الحجرة، وقد أجهدني الضرب برجلي، فتناولت ملابسي وسترت طرفي الصناعي جيداً، وتناولت علبة سجائري بعد أن رششت على جسدي عطراً رخيصاً كما هي عادة أهل القرى في تكديس البهجة، ومضيت.

حينما وصلت إلى عتبة البيت تذكرت علبة الكبريت.. فرجعت والتقطتها سريعاً..

وقفلت عائداً إلى حمدة..

السنة الرابعة عشرة بعد حمدة

ما زلت أذكر حماد حينما قال لي:

- لقد قسوت في مقالتك على التاريخ، إنك تنحاز إلى التضاريس أكثر يا قصاص، لو حكّمت عقلك لما خرجت مقالتك على هذا النحو.

كان كلامه هذا وجهة نظر صديق، ووجهات النظر التي يقدمها الأصدقاء تجاه بعضهم بعضاً قناعات مواربة. فعندما قرأ مقالتي "الدولة العثمانية أزمة شعب بأسره" جاءت فلسفته للقراءة بهذا الشكل، كان منصفاً معي حينما قابلني بتجرّد.

سألته:

- ولماذا قسوت على التاريخ في نظرك؟

- لأنك تزيف الحقيقة.

- الحقيقة لا تزيف يا صديقي، لكن ما هي الحقيقة التي رأيت أنني زيفتها؟

- لماذا افترضت الخطيئة الأخلاقية في الأتراك؟ وفسّرت ما كان في القرى أنه انتهاك أعراض ولم تقل بأنه مصاهرة؟ وكأنك تبني أصول القرى حراماً، بالإضافة إلى أنك صادرت كل ما قدموه في القرى، ولماذا جعلتهم شعباً دموياً بهذا الشكل المجحف؟

- إن الإنسان الذي يرى نفسه في مرتبة عالية لا يمكن أن يرفع الوضيع إلى مرتبة هو فيها إلا استثناء.

- ....

- كان الأتراك يرون في العرب قذارة التاريخ، ولهذا السبب افترضت عدم المصاهرة، لأن السيد لا يتزوج الجارية، فهكذا كان

التركي يبني قناعاته، عبودية العرب في نظره لا ترقى إلى طهارة الترك، فهل تعتقد بأن التاريخ كان صادقاً إزاء هذه المسألة؟ لم يذكر التاريخ بأن تخلف العرب وتأخرهم سببهما الأتراك، ولم يذكر بأن مستودعات الموت عبأها الأتراك، نظراً لأنهم لم ينشئوا المدارس، ويوفروا المستشفيات، قل لي هل بنوا المدارس أم أنشأوا المستشفيات، الجزيرة العربية من شمالها إلى جنوبها لم تحظ بهذه الخدمات الضرورية التي لابد أن توفرها لها دولة تدّعي أنها تحكم باسم الإسلام، منذ الدولة العثمانية والبلاد العربية تمتهن الجهل يا صديقي، وبكل تجرّد إن كل كتّاب التاريخ مبتزون، إنهم أدوات تحركها السلطة، لا تصدق التاريخ، لأن كتب التاريخ كذبة لبقة، وماذا يمكن أن تفسر ظاهرة انتشار الحصون في القرى؟ فلماذا بقيت هذه الحصون؟ أليس لأنهم شعب يهوى الدموية فهذه الحصون كانت مراصد لجنودهم يتربصون بها بأهل القرى؟ فهل لو بنوا مدرسة أو مستشفى سيمّحيان؟ لن يمحى يا حماد لأن الحصون لم تمح إلى هذه اللحظة!

- الأتراك يا قصاص حكموا الدولة الإسلامية قروناً عدة، وأنت تحاول إطلاق أحكامك من خلال سلوكيات متطرفة هيمنت في فترة ثم تلاشت، إن الدولة العثمانية على اتساعها لا يمكن أن تُختَزل في تطرف ضئيل، لماذا لم تعتدل في رأيك عندما حاولت الكتابة عن هذه المرحلة الزمنية التي تعد مأزقاً في التاريخ لو تعرضت إلى القرون الأولى في حكمهم وحاولت أن تنصفهم ثم تطرقت إلى المراحل المتأخرة من حكمهم، فأنت هنا قد أسكت العصا من الوسط؟!

- أنا وليد أمة عانت سلطوية الترك، وبذرها الجهل في أوساطنا، فلا تفترض فيّ أن أكون متوسطاً، لأن ردود الأفعال لا تحاكم إطلاقاً ومقالتي ردة فعل مبررة، حاول أن تقرأ كتب التاريخ، ستجد كل من كتب هذه الكتب مجّد الأتراك، وحاول أن يضفي عليهم بريقاً ليس لهم، وهذا ما يؤلمني كثيراً، لماذا لم يكونوا صادقين، أنت تحاسبني الآن

على تطرف اقترفته في تصورك، فلماذا لا تحاسب كل من مدح الأتراك في كتبه، وحاول أن يبرزهم على هيئة الرجل الملتزم؟ .

- أنا لا أعرفهم، أنا أعرفك أنت، لكن دعنا منهم، أنا هنا لأناقشك، وليس لأتخذك خصماً، إنك يا صديقي كنت متطرفاً بشدة، فلماذا لا تنظر إلى الأشياء بجانبها المشرق، فربما تكون الحصون وضعت لأجل مراقبة اللصوص وقطاع الطرق، وليست لجنود الأتراك؟

- لأنني لن أصدّق كلاماً كهذا.

- إذن لا تكتب السياسة.

- السياسة لا تكتب، هل تخال أني حين أكتب عن السياسة أنتظر التغيير؟

- ولماذا تكتب إذن؟

- لأنني أبحث عن قوت، فالكتابة فعل انهزامي يجلب المنفعة للكاتب وليس للملأ.

- ها ها ها أنت غريب فعلاً.

- ربما أكون غريباً، لأن الغرابة في الشرق وطنٌ نعتزل به كل الأشياء الخارجة عن منطق الضمير.

رمقته بنظرة خاطفة وأكملت:

- الأتراك ذاكرة ألم يا حماد.

عندما أتذكر هذا الموقف تتجلى لي لحظة يوم السبت حينما ذهبت إلى المدرسة، وأخذت ملفي، وأقلعت عن الدراسة الذي كنت أرى فيها نفسي معاقاً فاشلاً، لأن هذا الحوار جاء في عصر ذلك اليوم الذي طرحت لحماد فكرة أنني سأكمل دراستي في المدرسة الليلية، فقد ذهبت صباحاً إلى المدرسة وقابلت المدير فطلبت منه ملفي. سلمني إياه وهو يقول:

- أتمنى لك التوفيق وأرجو ألا تندم على قرارك هذا.

لم أندم على قرار كهذا، إنما ندمت لأنني كنت مثالياً بسذاجة،

ابتسم لي بشفقة أهل فلسطين، تلك الشفقة التي لا يعرف بها إلا هم، ونظر إلى جدول كان معلقاً على حائط الحجرة وقال:

- في الصف الثاني الثالث أدبي.

أقفلت عائداً، وأنا أتذكّر ما دار بيني وبين الأستاذ ناجي مدرّس التاريخ ولم يخرجني من أرق الذاكرة إلا باب فصل الثالث ثانوي أدبي. طرقت الباب مرة ومرتين، فانفتح الباب ليقف الأستاذ ناجي في وجهي بكل بدانته، سألني بامتعاض:

- ماذا تريد؟

- أريدك.

- عندي حصة الآن بعدها سأقابلك.

- لن أطيل عليك، كلمتان فقط وأمضي.

سحب الباب خلفه استعداداً لمواجهتي، في مباراة سأخسر فيها لا محالة، وعندما انغلق الباب تماماً، وما إن أدار رأسه ناحيتي، حتى انقضضت على رأسه بسرعة وأخذتُ أقبّله بعنف، وكأني مسيحي في حضرة قسيس. دفعني أمامه برفق، وحينما تلاقت نظراتنا قلت بأسف:

- أُعتذر منك يا أستاذ على كل ما فعلته...

كرجل جليد ذاب بعد ما صُبّ عليه ماء، تلاشى الأستاذ في ناظري ... أخذ ينظر إلي بأبوة لأن الطالب مهما بلغ يبقى هو الابن الذي لم ينجبه المعلم... كنت محتاجاً إلى هذه النظرة لما أنا فيه من فوضى، كان بلزمني نظرة حنو أرتب بها ارتباكي في تلك الأيام. أنا الطفل المدلل بغباء، لم أتذكر يوماً بأني قلت لأبي شيئاً ولم يلبّه لي، فالدلال أحياناً فعل تتراجع فيه قيم التربية إلى الوراء.

لم يتكلم قط.. فقلت له متداركاً موقفي، ومشيراً إلى ذلك الملف الأخضر بين يدي، الذي كان جواز تهوري لحمدة:

- هذا ملفي. لقد تركت المدرسة، ولم يجدر بي الذهاب قبل أن أعتذر منك.

ولأن الحزن يُولد الارتباك، لم يقل الأستاذ ناجي في ذلك اليوم كلاماً كثيراً.. قال:

- معذور يا ولدي، وانتبه لنفسك، والله وياك.

ابتعدتُ عنه، وكأني أم وارت ابنها في تراب قبر وأخذت تتمطى في ابتعادها عنه، وكأنها تنزع شيئاً من روحها في الأرض. أكثر ما يبكني آنذاك ذكرى وفاء، وأكثر ما يبلي الذاكرة، محاولة تناسي شخص ما، أذنبنا في حقه كثيراً دون اعتذار.

خرجت من باب المدرسة، وأنا أودّع عشر سنوات قضيتها في الدرس.. عشر سنوات وأدتها حمدة...

صدقاً.. ما أقبح وداع السنين!

السنة الخامسة بعد حمدة

"هل الانبهار بمرأى الحبيبة فعل حب أم ردة فعل جنونية؟!" عندما رأيتها تبادر إلى ذهني هذا السؤال، كانت جميلة جداً من فرط بساطتها، كانت ملامحها تشبه لوحة فنان تشكيلي في بداية تكوينها؛ لأن جمال الأشياء يبدأ من بداياتها. واثق أنا بأن الإنسان لا يحب الأشياء بصدق، إلا عندما يراها على طينتها الأولى، لذا أحببت حمدة لأنها طينة لم يشكّلها الزمن بعد في تلك الأيام.

كانت تمشي إليّ من بعيد وكأنني قدر، وكنت مبهوراً بها كأنها قمر، والزمان أحجية الله الكبرى، والمكان عائق يتستّر بالتقاليد والموروث.. فليس أصعب من أن تحب، سوى أن تحب في قرية لا تعرف سوى الموت. فكم يلزمني من التفكير لأتصور وسطاً كان يقدّس تقابل الأجناس، ثم في لحظة تحضر أو تديّن زمني وئد ذاك التقابل. والعشاق آنذاك ينفثون كمدهم، وإذا اللقيا سئلت بأي ذنب وئدت؟! لم أتصور بأن هذا الكون يحمل الجمال في كفة، وهرطقة الحياة في كفة. كانت حمدة تتهادى أمامي، وكنت أقتات نفسي بمعيتها فرحاً، وأنا أتساءل أين هو أبو البقاء الرندي من حمدة حينما قال: "لكل شيء إذا ما تم نقصان"؟. هل كان أبو البقاء يعلم بأن ثمة حمدة ترمم تآكل الحياة؟! وتساعد التمام دوماً على التكامل إزاء قصيدته؟! ألم يكن في حياة أبي البقاء حمدة أخرى حتى يصمت ولا يجرؤ على قول هذه القصيدة ليشتهر بين الناس؟! لكن الشعراء هم شحّاذو الصيت، يحلبون التغيّر دائماً على حساب القدر.

أتذكر أنني كتبت يوماً عبارة مازلت أحفظها عن ظهر قلم، كما

أكتب هذه الرواية عن ظهر ألم، كتبت "إن الحياة ملأى بالأشياء الجميلة لكن عيون البشر لا تدرك سوى القبح"! فكيف يمكننا أن نترك الجمال ضميراً مستتراً، وننحاز إلى القبح لكونه من ضمائر النصب الظاهرة؟! فالحياة أشبه باللغة، لا يستمتع بها إلا من يعرف أسرارها وخواصها..

وقفتْ حمدة أمامي بهدوء الأكابر..

بقيت مستنداً إلى جدار دهشتي الذي شهد توحم حبي الأول، وأنا لا أعرف بأنه سيكون مآلاً لمشنقته حينما يكبر. دعوتها إلى الجلوس، فقالت بنبرة خافتة مزقتني:

- والله ما أقدر أطوّل قول اللي عندك بسرعة!

وهل يستطيع عاشق ما أن يقول ما يخبئه لحبيبته سريعاً لاسيما أنها تقادمت مع الغياب كثيراً؟! فعندما نسرع في دلق مشاعرنا تجاه من نحب نموت، لأن المشاعر في جملتها ارتباك، تحتاج إلى فترة طويلة لاقتناص الفرصة لتقديمها، لأن الإسراع في تقديمها يعطيها صفة الذبذبة، وأنا أحتاج إلى بعد زمني طويل جداً لإيصال مشاعري دون تشويش. بقيت أنظر إليها قائمة فوق رأسي، وكأني أنتظر أن تغفر لي وتدنو مني، وتصفح عني، فقلت لها وأنا أحاول أن أكون أكثر هدوءاً:

- اجلسي، اليوم يكون تحديد المصير.

جلست وكأنها تطحن أضلاعي فقلت:

- ليش مستعجلة؟

- أهلي ينتظروني للعشاء.

- وليش ما تعشيتي وجيتي.

- لأنك هنا

- أنا هنا من أول يوم عرفتك فيه!

نظرتْ إلى التراب بخجل وكأنها كانت تنتظر أن يُداعب كبرياءها، كنت رقيقاً معها دائماً، حتى أصبحت ورقة شفافة سرعان ما تتمزق.

فحين يؤنث الرجل ذاكرة أنثاه بدلال مضاعف، تصبح مارداً، أما إذا بقي محايداً إزاء مشاعرها وكبريائها يفوز بكلا الحسنيين، الحب والطاعة. بالرغم من صغر حمدة نجاه عبارات الحب الرمزي إلا أنها كانت تفهم دائماً ما أرنو إليه، خاصة ما يتعلق بقلبها، فالمرأة أقرب للتصالح مع اللغة إذا كانت غزلاً مصفّى. أخذت أنظر إلى عينيها والشفقة تحفر نفسي عليّ. يا إلهي.. كيف يمكنني أن أتمالك نفسي أمام كل هذا الظلم دون بكاء؟ ، لأن بعض الجمال من فرط طغيانه يغدو ظلماً. فنحن لا نستطيع دفع ردود أفعالنا تجاه الحب، لكننا نستطيع أن ندفعها إزاء القتل، مع أن كليهما تجاوزٌ للحد، واقترافٌ للذنب! صدقاً، الحب اجتراح للذنوب نحو مشاعرنا، لأن المحبين لا يحترمون مشاعرهم لذا هم يستهترون بها، فيجعلون رحى الحب تصهر قلوبهم بعنف دون اعتراض.

في الواقع كانت حمدة قاسية معي كثيراً، لأنها أوقفتني على جمالها مبكراً، أنا المتهالك الذي ينقصه في الحياة ساق ليتوازن. فماذا يجدر برجل تنقصه ساق أن يفعل عندما يواجه قسوة جمالية كبرى كهذه؟! كانت حمدة تمثل بالنسبة إلي ثورة، أدخلتُ نفسي فيها وأنا لا أعلم بأن عالمنا العربي لا يحب الثورات! كنت أستطيع منع قلبي عن مزاولة عمل الرفاق في التنظيمات الثورية، لكني لم أستطع أن أعيد ترتيب أبجديات فائقتي، لأن الحب في بداياته رؤية ذائقة. نمارس الصمت باحتراف، عندما يكون الحضور صاخباً، هكذا كانت حمدة صاخبة في حضورها، كانت تملأ المكان ضجة بسكوتها، وعندما يكون السكوت صخباً، وعندما نكون أكثر قابلية على الصمت، فنحن نتلقى جرعات عالية جداً من الدهشة.

كانت حمدة مدهشة حتى في حضورها في تلك الحقبة الحبيّة المندثرة. أعترف بأنها لم تكن بتلك الفتاة الجميلة التي كانت تملك جمال الحوريات، ذلك الجمال الذي يمحو كل مآثم القبح في دواخلنا، ويعطي أعيننا بعد الكبرياء، لكن ثمة بعض الإناث جمالهن من بساطتهن.

فرغم بساطتها إلا أن هنالك حبة خال تسكن أعلى شفتها من الجهة اليمنى تجعلني أدوخ، وتستثير فيّ كل ارتباكاتي. كانت لها بشرة بيضاء صافية جداً، وكان ملمس بشرتها يشبه كثيراً ملمس القطن، لها عينان عسليتان، وفم صغير وأسنان بيضاء، وبين سنّيها الأماميتين العلويتين فرقة بسيطة مدهشة، وغُمّازة في خدها الأيسر فقط، فعندما تبتسم تظهر هذه الغمازة وكأنها تسخر مني. فقنديل الأرق، والتعب، والانتظار، والبغض، سقط مني في وهلة ظننتها دهراً من الدهشة حينما رأيتها تلك الليلة.

سألتني:

- وش فيك تناظرني كذا.

- مدري، لكن أحس إني راح أبكي!

سكتت ثم قالت:

- سمعت بأنك تضاربت مع مدرسك.

- اختلقت هذه المشكلة.

- ليش؟

- لأني أبي أتوظف لي أسرع وقت.

- ..

- أبي أتزوجك يا حمدة.

سكتتْ، وكأنه أمرٌ فيّ للاستطراد، أكملت:

- تعبت كثير من هالظروف اللي مفرقتنا، لازم نتزوج.

- .....

- وش رأيك؟

نظرتْ إليّ خجلى، كان خجلها يتمدد أمامي ويستطيل بالرغم من أنها كانت تعرف بأني لا أطيق استمراء الخجل، لأن ازدياد معدل الخجل دائماً يؤرق المواقف، ويعطي الحياة بُعداً معتماً. بقيت صامتة إلى أن دفعتها للإجابة:

- قولي وش رأيك؟

- ما أدري يا قصاص، لكنك تعرف مستقبلك زين.

هل كانت بإجابتها المبتورة هذه تختبر مقدرتي على مجاراة الحياة والتوغل فيها؟! كيف يمكن أن تعتمد في تفكيرها على إنسان يتوكأ على رِجل بلاستيكية؟! أم أنني في نظرها ملأت الدنيا قدرة وتماسكاً؟! فالمرء لا يستطيع تصور إنسان ناقص ينظّر للكمال، لأن فقدان الشيء فقدان لأشيائه. كنت في نظر حمدة صقراً.. وفي نظر نفسي حمامة.. وفي وجه القدر خفاشاً.. أنا الذي كنت لا أستمرئ الحديث إلا ليلاً، حتى كاباتي كانت لا تلفظ أنفاسها الأولى إلا ليلاً، إن خفاشيتي هذه ذات طابع عكسي، هي ما أورثني حب الانطواء، وتباريح العزلة، وهي التي تزدري الحياة أمام ناظري حتى تغدو جناح بعوضة.

انتظرت طويلاً لأخلق شيئاً يقال لسبب واحد فقط، أنني كنت أريد أن تبقى معي فترة أطول، قلت ما أود قوله لها، ربما لم أنجح في اختبار مشاعرها تجاه قراري المصيري ذاك، أو ربما اعتبرته مصيرياً، ذلك الذي ظننت في لحظة حب متدفق أنه سيؤرق تصرفاتها، وكأنها دولة تستعد للاستقلال، لكن لم يحدث أي شيء مما كنت أتخيله. فالمحبون أدوات السريالية والتخيلات، لأنهم وقبل إتمام المشاهد يوجزونها ويعجنونها بالخيالات ؛ لأنهم يعتقدون بأن من يحبونهم ورقة تقويم يستطيعون إنهاء حياتها، أو التلاعب بها، أو حتى كتابة موعد مهم عليها أو رقم هاتف لإنسان على هامش الذكرى.

لا أدري كيف طرأت لي فكرة غريبة لم أتخيل يوماً بأنني سأطرق بها باب عقل حمدة، نظرت إليها وناولتها علبة الكبريت، وقلت:

- ولعي لي سيجارة.

بدءاً استغربتْ هذا الطلب لكنها أخذت - كما هم بقية الناس - بالتجربة الأولى، كانت هذه التجربة الأولى لها في عالم الاشتعال، وأنا لا أدري هل جربت حمدة أن تشعل سيجارة أخرى لرجل ما فيما بعد؟

أخرجتْ سيجارة من علبة سجائري، لم تُدهَش لصغر سني إزاء التدخين، لأن القرى تربي فينا المعصية منذ أن نكون صغاراً. إن من لا يدخن في القرية يغدو بخيلاً أو منبوذاً حينما يكبر، كان كل أترابي في القرية مدخنين إلا "سعد" لم يجرب التدخين البتة، لكنه الآن عسكري سمج لا يغدق على بيته بأدنى وسائل الرفاهية مقارنة براتبه العالي. فقد أيقنت مؤخراً أن التدخين تبادل الضرورات مع الرفاهية، لأن المجتمع العربي بأسره لا يدخن إلا فائض نقود فقط.

فتحتْ علبة الكبريت وأخرجت منها عود ثقاب، وحكّت به ظهر العلبة فاشتعل، وكأنها ترسم حياتي على مرمى شبر وزاوية لذة من ناظري. أشعلت السيجارة ونفختْ في ذلك العود المشتعل لينطفئ وأنا الآن أتمنى أن تحنو علي مثل ذلك العود، قالت:

- حركتك غريبة.

- ليش؟

- لأنك ما عمرك طلبت مني أولّع لك سيجارتك، أحس إني حقيرة!

- يووه ليش؟

- أحس أني أشتغل عندك، وإني عبدة، لأني سمعت مرة أمي تقول "إن رجلاً أجنبياً قَدِم إلى إحدى القرى معه جند كثيرون، فتجبّر وطغى فيها، فكان كلما أراد إهانة رجال تلك القرية أتى بفتاتين من فتيات القرية وجعل واحدة تحتطب أمامه والأخرى تشعل له النار وحينما تستعر هذه النار كثيراً يسرع وأنت تعرف بقية الحكاية..."

انتزعت من علبة الحياء منديلاً ولم تكمل الحكاية، لكني كنت أعرف هذه القصة جيداً، فقد حكاها عمي النتاري لرجال كانوا معه في مجلس عمي مصلح، اشتهرت هذه الحكاية كثيراً، فقد كان ذلك الرجل التركي يغتصب بنات القرية أمام تلك النيران التي يشعلنها إمعاناً في المهانة..

سألتها بخبث:

- وهل تعرفين ما أصل ذلك الرجل الأجنبي؟

- لا.

- يقول عمي التتاري إن أصله تركي، أي أنه أتى من بلاد تركيا، فقد كان الناس الذين يأتون من هناك جبابرة، وطغاة.

- وليش يسوون هالأشياء؟

- قديماً كانت الدولة العثمانية هي الدولة الإسلامية الأولى، وهي دولة الخلافة الإسلامية، وكان مركزها في تركيا، وقد اتسع نفوذها في يوم من الأيام حتى وصل إلى أوروبا، فبلغ بهم الغرور والغطرسة أنهم ظنوا أن لن يهزمهم أحد، واعتدوا بأنفسهم كثيراً، وجاء في آخر عهدهم ملوك كانوا ينظرون إلينا على أننا نحن العرب شعوب متخلفة، وشعوب بدوية لا ترقى لمستوى الحضارة التركية، وهم سبب في تأخر العرب قروناً، وهم يتناسون بأن الإسلام بدأ من عندنا، فبعدما كان العرب سادة في العلم، صاروا في عهد الأتراك نموذجاً للتخلف، فحتى عندما احتلوا بلاد العرب لم يدخلوا التعليم فيها، ولم ينشئوا المدارس أو يهتموا بالمستشفيات، فقد كان الفرد في شبه الجزيرة العربية يموت دون أن يحصل على قطرة علاج، فهل هذا سلوك دولة الخلافة؟ أياً كان أفراد شعبها فلا بد من أن توفر لهم أدنى وسائل المعيشة، من علاج ومستشفيات على أقل تقدير، بالإضافة إلى أن ذلك يتنافى مع سلوك الإنسانية أو الإسلامية على وجه الخصوص.

- ليش ما كانوا مسلمين؟

- إن الإسلام يا حبيبتي ليس تقمص اسم، إن الدين الذي يُعلّق على ستائر الأسماء دين لا أهمية له، هل ترين الحصون الموجودة هنا.

- إيه.

- هل تعرفين ما أصلها؟

- لا.

- من وضع هذه الحصون أول مرة هم الأتراك فقد كانوا يرابطون فيها، لمن كان يجول في القرى، وعندما يرون أحدهم يردونه قتيلاً.

- مو معقول.

- إلا معقول ونص.

نظرت إلي باهتة، وأنا على يقين بأنها لم تكن تدرك المعنى الحقيقي لجملتي هذه، وبعد أن امتحنت بأنانية كاتب وقع عبارتي هذه عليها، وحين رأيتها مأخوذة بها بقوة، أكملت:

- من يستطيع محاكمة دولة مكتسحة؟ هكذا كان الأتراك يفكرون، فحينما بلغ بهم الشبق الدموي حده، وحين استمرأوا الأبعاد اللاأخلاقية في تعاملهم السلطوي غزوا قرانا باسم الدين والشريعة، وإنصاف الناس وفقاً لدين سماوي، وبعدما استوطنوا فيها استبد بهم الطيش المادي فانتهكوا الأعراض، وذبحوا الناس، وخربوا القرى، وعاثوا في النفوس خراباً، والغريب في الأمر يا حبيبتي أنهم لم يخلّفوا وراءهم لا مدرسة ولا مستشفى إنما خلفوا وراءهم هذه الحصون التي تدل على أنهم شعب دموي فقط يحب القتل وانتهاك الأعراض.

- وليش سووا كذا؟

كانت براءة هذا السؤال تلتحف غباء امرأة شرقية، لأن النساء في الشرق مواد تسميد للخصب. بعد أن أخذت نفساً عميقاً من سيجارتي، وعلا دخان سيجارتي المنبثق من جوفي أجبت عن سؤالها:

- من يجد الرمال الكثيفة يحترف الحفر يا حبيبتي.

وأردفت بعد قليل من الدهشة:

- لأننا وبكل بساطة كنا قرى بسيطة، وكان الدين بالنسبة إلينا شعوراً نفسياً شعبوياً يجعلنا نتصالح مع الأخطاء التي تمارس باسم الدين، لكن أهل القرى لم يتأخروا في الدفاع عن قراهم، فقد قاتلوا كثيراً، ومات منهم عدد كبير جداً، وبقوا لفترة شوكة في حلق هذا العدو المستبد، الذي يعلق على الدين ممارسته غير الإنسانية، لكن الله سلط

عليهم دول أوروبا فقضت عليهم، ومن بعدهم عاش العالم الإسلامي الانحدار الأمثل.

- لكنني لم أسمع بهم الحين.

- تركيا دولة تعيش صراعاً إزاء ما تحمله من هوية، مشكلتها الآن في هويتها فهي لم تقف إلى أي جانب مطلقاً، تريد أن تكون أوروبية وأوروبا تلفظها كجنس تضاريس، وتريد أن تنضم إلى العرب ولكن لسانها لا يمكن أن يتماهى مع العرب، بالإضافة إلى أنها ترى في العرب حثالة الدنيا، الترك يا حبيبتي بقعة جغرافية تحترف الصراع.

صدقاً، لم أتخيل مرة أن أُدخِل حمدة في مغبة السياسة، لأن اقتراف الحكي في السياسة ذنب، والسكوت عنه ذنب أعظم ونحن الشرقيين قوالب تجريب لمخترعات الشعوب. لا أدري هل أُخذت حمدة بجملة ادهاشاتي التي قلتها، وأنا لا أعرف لماذا قلت كل ذلك هل قلته كدهشة حقيقية؟ أم كغرابة حياة؟ أم كتجلي معلومة؟ أم ككشط للتاريخ؟ أم كسخف تقادم تجاه الأمم؟ لكن ما أنا متأكد منه، أن حمدة بُهتت من فرط كلامي في التاريخ. وأنا أعرف جيداً بأن الكائنات الأنثوية، كائنات سماعية بالدرجة الثانية.

بعد أن أمطرت رئتاي دخاناً كثيفاً ودعتها..

تركتها وقلبي ملقى على قارعة قراري، تمنيت آنذاك لو أستطيع أن أتنصّل من عاهتي وصغر سني واحتياجي الدائم إلى الآخرين، لأبدو في نظرها أكثر قدرة على التماسك، لأن المرأة تصوغ من الرجل جداراً لحياتها تسند إليه كل أثقالها وهمومها، وتستريح عليه هشاشة. ألقيت ظهري أمامها وفي داخلي يتربع حلم متدفق، متى أقطف وردة القدرة في الاقتران بحمدة؟ هي من ترش السعادة في دنياي وكأنها عرافة، وكل ما يحيط بحياتها قداسة صرفة.

كالغيم بعد يوم ماطر تهاديت مشياً أمامها، وحمدة قوس قزح بتفسجي اللون ينحني بدلال، ويزخرف مشاعري وقناعاتي.

السنة السادسة بعد حمدة

الفراغ بؤرة الخطيئة، ولحاف الشيطان.. نعم هو الذي يقودنا إلى متاهات الخطيئة ويتنفس بنشوة، يعرّينا في الحياة إزاء شغلها. فعندما نفرغ من كل شيء يصبح باب الخطيئة مفتوحاً على مصراعيه..

قلقٌ أنا.. تجاه تلك المرحلة من عمري، ربما كنت أسير الانتقالات الفجّة، صرت أشبه بعربة معلقة تسير بتصرف الآخرين، وتنتظر أن تُعتَق من رقّ الأيدي. فما أصعب أن تواجه فوضى العمر دون تحسّب، عندما تركت المدرسة كنت في منتصف العام الدراسي، كان أمامي قرابة السبعة أشهر من بعثرة العطالة، لم يكن أمامي من فرصة سوى النوم المتأخر. وحين يكون النوم لك ملاذاً دائماً، فاعلم بأنك فارغ . لم أستطع حرمان نفسي من الشيطان الذي داس قفا حياتي ببطش فانقدت إليه سريعاً.

إن الله حين أمهل الشيطان في غوايته، كان يمتحن فينا قوة صبرنا، نحن البشر المخلوقين على ضفاف الخطيئة دوماً، لم يكن صبري قوياً لأتغلب على مكر كائن خفي كالشيطان. فأصعب المواجهات، عندما يكون خصمك في مواجهة ما، هو الخفاء، لأن مواجهة الخفاء أسلوب أرعن دوماً. في غيبوبة الفراغ الذي كنت أعيشه، نزلت يوماً إلى خالي توماس، قضيت عنده يومين كاملين، كان هذان اليومان كفيلين بالتباس العربدة. عندما وصلت إليه أول مرة قال لي بخبث العربدة:

- يبدو أنك ستمت التقوقع على كتبك يا جرثومة القراءة!

رغم دراسته المتواضعة كان خالي يحترف المقاصد، أيقن بأنني على ملل، لأن الإنسان الذي يسير في حياته على مهل وليد الملل عادة، فالتسارع مع الزمن أداة جودة. نظرت إليه باسماً، فليس أبلغ من مواجهة

- سأبحث عن وظيفة.
- وهل بحثت؟
- إلى الآن لم أبحث، لكن سأحاول مستقبلاً.

وأردفت ضاحكاً:

- يجب أن أتمتع بفراغي، فالفراغ كالعمر لا يعود أبداً..

ضحك بعمق. لم أكن أعلم بأن عبارتي هذه انتشلته من جبروت نستره. فنحن دائماً نفهم مقاصد الأشياء وفقاً لميولنا ورغباتنا.. وهذا ما فهمه خالي توماس. قال لي حماد أثناء سيلان دماء عربدتي مرة "النفس الرقيقة تتقطع بسكين الخطيئة سريعاً". في تلك الليلة، وحين كانت نفسي أقل توتراً، قال لي خالي توماس شيئاً لم أستوعبه حتى هذه اللحظة، فقد حكى لي حكاية هي من فرط غرابتها لا تصدق قال:

- أتعلم بأن جدك، الذي هو أبي هو من علّمني كيف أسكر!

نكصت متخاذلاً، لكن هي المفاجآت ما يدفعنا بقسوة إلى جرّ قناعاتنا إلى المسلخ. حدقت فيه قليلاً، وفكرت كثيراً: هل ما يقوله هذا العربيد صحيح؟ وكيف يمكن تقسيم الذوائق والقناعات بأي شكل كان؟ أليس اقتراف الرغبات دوماً هو ما يولجنا في مزالق التردد والابتعاد؟ ، لكني تساءلت مشاكساً فضولي في المطالعة. كالإناء صبَّ فيّ توماس فضولي وتركني على قارعة المفاجأة. فيمكن أن نتخيل وقع الأشياء الغريبة علينا مسبقاً، لكن لا يمكن أن نتصالح مع أخطاء أسيادنا أبداً.

أكمل:

- كان أبي كالولاة، فقبل أن أجرّب السكر، وحينما كنت في سنّ الرابعة عشرة من عمري، دخلت عليه مجلسه فرأيته يسكر، فقد كان يسكر بمعية عبيده، وحوله القيان يرقصن ويتضاحكن، وهو يضحك بهدوء، وبين الفينة والأخرى يلوح لإحدى القيان بيده، وتنتشي تلك العبدة، وتصبح هذه التلويحة ورقة رابحة تتباهى بها أمام صديقاتها من

القيان، ما أدهشني فعلاً في جلسة أبي تلك أنه كان لا يشرب إلا في قدح من الفخّار.

عندما وصل توماس إلى هذه النقطة... تخاذلت أمام أفكاري: صدقاً، لم أكن أتخيل - مجرد تخيل - بأن رجلاً ما يمارس تفصيل التاريخ كما فعل جدي. فأحياناً نحاول أن نغضب على التاريخ باجتراح نوائبه تصرفات خاطئة. عدت من سرحاني الذي سلكته بدءاً، وسألت توماس:

- لماذا يمارس جدي هذه التصرفات أثناء سكره؟

- إن أبي نرجسي في سكره، أعتقد أنه كان يتخيل نفسه أحد الولاة.

ما كل الأشياء الخاطئة تولد وصكوك غفرانها معها، هكذا كان سكر جدي في خريف عمره هذا.

***

بعد مدة من الزمن قال لي حماد عندما أخبرته عن طقوس جدي عندما يسكر:

- الغرور أوكسجين تتنفّسه العادات السيئة، لم يجد جدك من كبرياء التاريخ عليه سوى ممارسته في أردأ تصرف.

أعدمت ذلك اليوم ذكرى جد مكث قرابة تسعة عشر عاماً على رفوف الذاكرة، كان على رأس هرمي التنزيهي، فالإنسان منا له هرم تنزيهي كبير، يقف الناس عليه متراكمين بعضهم فوق بعض، الأفضل منهم فالأفضل. حينما سقط جدي من رف ذاكرتي ذاك، سقط واقفاً ليفتن إناث الخطيئة في داخلي، فليس أصعب من مواجهة خطيئة إلا أن نراها في رموز حياتك. فنحن نكيل لأنفسنا الشتائم في لحظات الصفاء المهولة، حيث نقف أمام مرآة الحياة نتمعن في رؤية أنفسنا بعيداً عن

قابلني توماس وقال لي:

- أبي يريدك.

هل علم بأن توماس حكى لي حكايته البارحة؟ أم هل وشى بي توماس عنده؟ لم أكن خائفاً من جدي، لكن أحياناً نخشى التصادم مع أناس نحترمهم كثيراً، ونخشى أن نتنكّس عذرية تلك الاحترام. أقبلت إليه فأجفل، وكأنني رجل يقاد إلى ساحة الإعدام وهو يؤمن بأنه بريء، فالأشخاص الذين يحكم عليهم بالإعدام لا يخشون الإعدام لذاته، إنما يخشون أن ينتهكوا قدسيته باللامبالاة، لأن الميت لا يخيف، المخيف فعلاً أن تكون مشاعرك إزاءه مشاعر صماء. كالسياف كان ينتظرني على مقعده الفاخر ذاك. دخلت وسلمت عليه، كانت عيناه حمراوين بشدّة، قابلني بحفاوة وحميمية الأجداد، فشعرت بأنه يريد تعويض أبوته المستباحة التي انكبت البارحة بشيء من الحقارة من فرط ما دلقها توماس على قلبي. فعندما ينحرف المسنون، تستيح الحياة أبوتهم غضباً.

سألني عن أهلي، عن أمي وأبي وإخوتي، كانت أسئلته عبارة عن خيط يصل به تباعد عائلتنا، ثم سألني فجأة بين زحام الكلمات:

- منذ متى وأنت عند توماس؟

- جئته بالأمس.

- وهل قضيت ليلة البارحة هنا؟

- نعم.

عندما أجبته شعرت بأن خنجراً وهمياً انغرس في خاصرته، أحسست بأنه كان يتألم من هذه الإجابة، لأن بعض الكلمات تؤلم كآلام الجسد. نظر إلي وابتسامة طافية على سطح وجهه وقال:

- استمتع بوقتك إذن.

خرجت وأنا أتألم أيضاً، لم أكن أرغب يوماً أن أسيء إلى جدي، لكن الحياة دائماً تعاملنا بمنطق البغايا، لا يسرن بانتظام إلا إذا أسيء إليهن، عصراً، ذهبت مع توماس نعوم في أزقة قريتهم، كانت القرية

وكلما حاولت اصطياد تفاصيل وجهها أخفق، وكأنها تباري فضولي، وعندما اقتربنا منها صاحت بغنج القيان الفاحش من خلف الباب:

- يا توماس، أشوف معاك اليوم واحد حلو.

كانت تقصدني، وألمحت إلي بجملة مستهلكة، تتشدق بها ذوات الأصل المتعرج دائماً. إن الزواني على مر السنين، يتناسخن في اقتباس كلماتهن وتصرفاتهن، فالبغاء هو الاحتراق الثابت في كل بقاع الأرض.

- وش رأيك تجلسين معه الليلة في سهرة حتى الصبح.

قالها توماس، وسكتت كالعذارى، وما أقبح أن ترتدي الزانية لباس الشرف، لأن بائعات الهوى أجمل ما فيهن تفسخهن وعهر كلماتهن. أكمل توماس بضحكة:

- خلاص تعالي اليوم وجيبي معك "غيثة" في المكان اللي تعرفينه.

تجازناها بعد أن ترك خالي أوامره المؤدبة كالقادة العسكريين تسيل في مسمع تلك القينة، وقد ضرب موعداً خبيثاً بحفنة من الكلمات. كنت أعرف بأنه عاهر، لكني لم أكن أعرف بأن الطريق إلى العهر بهذه السهولة. أن تصل إلى متعتك الجسدية من خلال عبارة، فأنت ملك، لأن الملوك هم أسوع الناس انقياداً إلى لذاتهم، هم الذين إذا دخلوا القرى أفسدوها. قلت له ونحن نسير:

- بهذه السرعة تعقد صفقة أنس؟

- إننا نستصعب العهر وهو في الأساس أسهل ممارسة وجودية، لأننا أمة تسمي الأشياء بغير مسمياتها دوماً.

- ومن هذه العبدة؟

- عاهرة تدعى "أم علي".

- هل هي متزوجة كي تطلق عليها "أم علي".

- متزوجة مع سبق الإصرار والترمل.

- وغيثة التي تقول عنها.

- صديقتها، لكنها ستعجبك.

رجعنا إلى البيت حينما غضبت الشمس على الأفق ورحلت. وحينما دلفنا إلى المنزل قابلت جدتي، هذه القنينة المعبأة حناناً، حينما أراها أتذكر أمي، كان كل من يرى جدتي بجانب أمي يظن أنهما توأمان، لأن النساء حينما يلدن ويغدين أمهات يحترفن الشيخوخة. كان لا يماري أمي دفئاً إلا جدتي، قالت لي أمي إنني حينما ولدت سألتها جدتي:

- ماذا سميت ابنك؟

- قصاص.

- وكيف هو؟

- بخير، هو الوحيد من أبنائي الذي لم يتعبني عند ولادته كثيراً.

- إن ابناً لا يتعب أمه صغيراً، سيتعبها حينما يكبر.

هل صدقت مقولة جدتي؟ لكنني أبدو تجاه أمي طفلاً يلبي كل الأوامر بفطرة صبيانية حتى وأنا في هذه السن المتقدمة من التعب. فحينما رأتني قالت لي:

- تبدو وكأنك جائع.

- وما يدريك؟

- إن الجدات يا بني يرثن مشاعر أحفادهن.

دعتني إلى الطعام فانسقت لها جوعاً. ظللت أعبّ من صحون العشاء وتوماس يضحك ويصرخ بمخاتلة:

- كُلْ كل ما بين يديك ليلتك اليوم مختلفة.

عندما جاءت ساعة الصفر أو العهر، دخلت علينا أم علي وغيثة في حجرة لتوماس كان يتخذها ملاذاً للخطيئة، فقد بناها جدي لتوماس خارج إطار المنزل في ركن قصيّ من حوشه الكبير، كانت هذه أول ليلة في حياتي أجتمع فيها بنجس الحياة، السكر والجنس، وقفت أم علي تتأملني، وعندما رأت طرفي الصناعي، وتأكدت من ساقي المبتورة قالت بأسف:

- معوق وراعي خراب ما تجي!

نظرت إليها والغيظ يملؤني وقلت:

- وعجوز وشرموطة ما تجي برضه.

نظرت إلى توماس وعيناها تشعان حقداً:

- الظاهر صاحبك لسانه طويل.

ردّ عليها توماس بسخرية:

- مو بس لسانه طويل!

غمز بعينه فانفجرت غيثة ضاحكة. فالعاهرة هي أسرع كائن على وجه الأرض تأويلاً لألغاز الخطيئة. خبطت غيثة على كتفي برفق وقالت بصوت مدلل:

- يالله وريني طولك.

في تلك الليلة الفاجرة، شربوا كلهم إلا أنا اكتفيت برشفة فقط، لكنها كانت كفيلة بإدخالي في زمرة الأشقياء. عرفت السكر فيما بعد، عرفت بطانته اللاذعة، وخدر الأطراف. فما هو معروف في السكر أن أول ما يتخدر من المرء أطرافه، كانت تتخدر أطرافي إلا تلك الخشبة المركوزة في ركبتي اليمنى، فإنها تظل تنظر إلي باشمئزاز. لأن أعضاءنا تشبه رفاقنا، أحياناً يضجرون منا ويتأففون، كما كان طرفي الصناعي أثناء نوبة سكري الجنونية. في تلك الليلة اكتفيت برشفة، ودخلت مع غيثة، وأثبت مدى الذكورة المتدفقة في دمي، لأن الرجال في الشرق فحولتهم عربون احترام. عندما انتهيت، وأرادت عبدتانا الانصراف، لكزتْ غيثة توماس في خاصرته وقالت:

- كلما جاء صديقك هذا نادني.

بهذه العبارة وقّعت غيثة عقد احتكاري، ظللت مدة طويلة مُحتَكَراً، لكني كما هي ساقي، لم أستسغ هذه الملكية الكلية، ومع مرور الزمن ثرت على غيثة كثائر دكتاتوري، حينما جاءتني يوماً وجعلتني مولى لها لفرط ما كنت مبدعاً في معاشرتها، وعندما صرحت بهذه الفكرة علناً، لطمتها على وجهها، وركلت هذه الملكية بعيداً جداً؛ لأن الرجل حينما

يجد نفسه حكراً لامرأة واحدة يشعر بأنه مختنق وازداد طغياني كفرعون، وأوغلت في هذه الحياة لأن الفارغين قوالب تعبنها الخطيئة، أحببت هذه الحياة التي عرفتها مؤخراً، إلى أن جاءت الوظيفة، وبدأ الزحف إلى حمدة / الحلم.

وهل النساء يقدسن الأحلام؟!

منتديات الكوكب العاشر

السنة الثامنة بعد حمدة

ملأ البكاء والصراخ منزلنا فقمت فزعاً، كان الوقت ظهر الخميس، والنهار يأتي عبر النافذة في خطوط مستقيمة بها بعض النقاط التي تتحرك وكأنها خارج الجاذبية الأرضية. قفزت إلى عكازي وتأبطته تحت يميني، وأخذت أقفز في محاولة يائسة لنجدة أحد ما. خرجت وصعقت بما رأيت. كانت "حمدة" عند رجلي أبي، وهي تبكي وتصرخ:

- والله يا عم أنا مالي ذنب، كله من أخواتي وأمي.

عندما رأتني أمي، سحبت حمدة من أمامي ودخلت بها إلى حجرة النساء. أن تحب دون أن تتكرر رؤيتك لحبيبتك جنون بحق عينيك! نظرت إلى أبي مذهولاً بما رأيت، فحدّق إليّ بضع ثوانٍ وغادرني ليدخل حجرته، عندها علمت أن ثمة أمراً أكبر من مستوى وعي الخذلان، بعد ساعة أخذ أبي يسرد ما حدث على مسمعي: "البارحة بعد صلاة المغرب ذهبت إلى عمك مصلح وعندما دخلت عليه، وبعدما شربنا القهوة والشاي، ذكرت له طلبك في الارتباط بحمدة، فرحّب بي كثيراً، ودخل ليأخذ رأيها، وبعد فترة ليست بالقصيرة، عاد برفقة أبنائه وعمتك "سحابة" وقال وهو يحني رأسه:

- والله ما أدري وش أقولك يا أبو قصاص، لكن البنت رفضت!"

عندما وصل أبي إلى هذه النقطة، استغربت منطق الأخوة هذا، لأن القرى توغل في تقديس الأخوة حد موت أحدهم دون الآخر، ودهشت لأنني أعرف أن حمدة لن ترفضني مطلقاً، هي التي كانت تدفعني دائماً إلى العجلة...

أكمل:

"... لكنني قلت له مستغرباً:

- نادها لي أبسألها وش سبب رفضها؟

عندها انبرت عمتك سحابة للجواب وقالت:

- والله يا أبو محمد الولد ما يعيبه شيء لكن انا ما أبي أزوج بنتي لـ"معوّق" وسمعنا بعض الناس يقولون أنه يسكر علشان كذا البنت رفضت.

- أنتم كلكم تعرفون أن هذا الشيء من عند ربنا، قصاص ماله ذنب فيه، وبالنسبة للسكر فأعتقد أن كلام الناس ما يدخل بين الأخوان.

- ...

سكتوا جميعهم، وطال سكوتهم ولم يبرّروا ما اقترفوه، وعندما ألححت في طلب حمدة ولم تأت. خرجت من الباب".

عندما انتهى أبي من سرد ما حدث، انسكبت دمعة على أطلال خدّ نهشّم فخرجت.

انزويت خلف جدار بيتنا، وأخذت أدخن بشبق، لأن المفجوعين في الحياة يمارسون التدخين بشدّة، لفرط ما يعانون من أزمة نفسية، يريدون أن يبددوا وطأة الهم بقتل أكبر عدد من السجائر، لأن السجائر في نظر الحزانى أناس يقدمون أرواحهم بالمجان لكي يخرج شاربها من أزمة هَمّ، وبينما أنا أدخن وإذا بحمدة فوق رأسي، رفعت رأسي فرأيتها، بادرتني:

- والله يا قصاص مالي ذنب في اللي حصل، أهلي غصبوني على هالشيء.

- يعني تبين توصلين لي إنك ما تقدرين ترفضين.

- وين أرفض في ديرة زي هذي!

- قولي لهم ببساطة ما راح آخذ إلا قصاص.

- أخاف يضربوني.

- حتى لو ضربوك لازم تضحين علشان حبنا.
- .....
- إلا إذا كنت ما تحبيني فهذا شيء آخر.
- إلا أنا أحبك وأموت فيك.
- الآن تقولينها، الحين بعد كل هذا العمر، وبعد كل الطلبات التي طلبتها لك تقولينها، أنا مابي منك الحين إنك تقولينها أبي منك شيء واحد بس.
- وشو؟
- إنك تضحين علشان حبنا.
- والله بيموتوني يا قصاص.
- تحملي هالفترة بس وبعدين راح نتبسط طول حياتنا.
- بأحاول.
- ودعتك الله ياالله روحي قبل ما يشوفك أحد ويسوي لنا مصيبة.

ذهبت حمدة، وأبنت دموعها على التراب كذكرى تؤرق كتابتي الآن، كانت تلك الدموع تشبه أداة الجريمة في عرف المحققين، لم أكن أنتظر منها أن تدلق لي حفنة من الدموع وتمضي، ولم أكن أنتظر في ذلك الوقت أن تقول لي "أحبك" وهي تنشج، كنت أنتظر فقط أن نجازف بجسدها تحت عدة سياط لأعيش حياتي معها هانئاً طول العمر، رحلت حمدة، ولم يبق منها بعد ذلك اليوم إلا ناكرة عشقية، وقطر حب مسافته خمسة لقاءات فقط.

حينما رحلت بدأت تعود الحادثة من أولها رويداً رويداً، فإن كان هذا ما حدث فعلاً فلماذا تأخر أبي إلى هذا الوقت من الليل؟ أين ذهب؟ وهل جاء مباشرة إلى المنزل؟! وكيف يمكن إقناع القرى بأن مصائبنا لا دخل لنا فيها البتة؟! وهل نستطيع أن نؤطر معاناتنا دائماً في سرد الكلمات وتلفيق الأسباب؟! كنت أدرك تمام الإدراك بأن الإعاقة ذنب أحاسب عليه دون سبب وجيه في اقترافه، لكني كنت أعرف أن الله

في هذه القرية خلف الجبال. وسؤال حاد يقطع تفكيري: كيف يستطيع الإنسان أن يحيا مع بريد حبه حياة زوجية؟! وكيف يمكن أن تتصالح زوجتي المطيعة هذه مع قلبي الممتلئ بحمدة؟! وكيف تنظر حمدة إلى شمعة حينما يتقابلان الآن؟ وكيف لي أن أخرج من غيهب الوجع إذا رأيت "رؤى" ابنة حمدة من زوجها "عزيز"؟.

منتديات الكوكب العاشر

المحتويات

ابتداء ـــــــ

حين كنت أقارن بين حمدة والأتراك، كنت أرى تقاطعها معهم إلا أن حمدة كانت في بداية الأمر باعث سعادة، ولم يكن الأتراك يوما باعثي سعادة قطّ، كانت تتفق معهم في سادية حضورهما، وتعلثم المواجهة أمامها دائماً كانت سلطوية بالجملة، كانت أشبه بالحرائق والموت والدمار، والتهدم، علامات تركية كما هي أحرف أسمها في ذاكرتي، ولا أدري هل كان تقاطعها هذا وليد فكرة آنية ؟! أم أن القدر حينما يوارب فكرة ما لا يُظهرها حتى تفسد كل ما تصنعه بنا ؟!

علوان السهيمي، مواليد مدينة تبوك شمال المملكة العربية السعودية عام 1983م.
روائي ومحرر متعاون في صحيفة الوطن السعودية مهتم بالشأن الثقافي.
صدر له: الدود (رواية)، دار الفارابي، 2007

ISBN 978-9953-71-417-2